أوراق قديمة من كراس الجزائر

محمد ناصر صوان



التدوينات الأولى

الجزائر:
حمامة بيضاء بين الحرب والسلام

1 - مقدمه : الحياة علمتني الكتابة .
2 - طائرة قديمة فوق المتوسط .
3 - الجزائر : لمن تقرع اجراس الحرب ؟

الطبعة الأولى
1998 / 1000

لوحة الغلاف: للفنان محمود صوان
الإخراج الفني: طارق صبح
تنفيذ: المركز العربي للكمبيوتر - دمشق - يرموك - هـ **6336672**

موافقة وزارة الإعلام رقم 27699 / **ت** 1996/7/21

دار النمير

طباعة ـ نشر ـ توزيع

دمشق هاتف: 2226207
ص.ب: 5175

الإهداء

إلى روح والدي الشابة، الذي قدّم ابنة عمه الجميلة عروساً، لنبيلٍ جزائريٍ من (دليس)، وأسكنه أرض فلسطين المقدسة.

إلى والدتي، الطاهرة، النقية، التي علّمتنا، الاستقامة، والفضيلة، والتي يقتلها حوار الخناجر والبنادق، على تراب الجزائر الدامي، فتفيضُ دموعها، ويَدْمَى قلبها، عند السّماع، والرؤية.

إلى زوجتي (المُروّعَةِ بالتاريخ)، وأولادي: نيروز وناصر ونور، الذين شاركوني فرحي بالكتابة، وحزني على الجزائر، التي تُسْحَقُ فيها الأشجارُ والورودُ، والنساءُ الفاضلاتُ، والأطفال (أحبّاءُ اللهِ).

وإلى كل شرفاء، وحكماء، وعلماء الجزائر، الذين زيّنوا عقولنا وقلوبنا بالحكمة، والشجاعة، ومكارم الأخلاق، كي يُعيدوا، روحَ التسامح البشري، والروحَ النضرةَ لوردة الشمال الأفريقي البيضاء، والنموذج العربي، لمعنى الدولة العصرية، التي تقبل الآخر، وتحترم قِيَمَهُ الثقافية والروحية، ولكي يُصعّدوا نُبل، وعظمة القيمِ الروحية الإسلامية، وهم أصحابها، لتكونَ شاهدةً على عصر الصراعات اللاأخلاقية.

أيها السادة: أوقفوا حمام الدم، اعتقلوا شياطينَ الظلام، وارْجعوا إلى عقولكم، وقلوبكم، المملوءة برحمة السماء.

قولوا ما تريدون، واكتبوا بقداسة القلم، لا بالسكاكين المدنسة بالشر.

أيها السادة: لا تشوهوا جمال الجزائر، لا تغتالوا طهارتها، ولا تعبثوا بأخلاقها، ولا تضعوها فوق صليب الخطيئةِ، فالأمُّ لا تخطئُ، ولكن الأبناءَ عُصاةٌ.

محبتي، وشوقي، وجنوني لأهلها الفضلاء، الأتقياء.

دمشق الشام ١٩٩٩م

محمد

شكر وتحية

للفنان المبدع: محمود صوان. مصمم الغلاف

وشكرٌ وتحية

لمن جاهد ووضع كل حرف في مكانه من هذه التدوينات بصمتٍ ومحبة.

(كلُّ الكتب يؤلّفها بشرٌ، فلا تكُنْ مُبالغا في الثّقة بها
ولكن.. أنظُرْ إلى قلبك واكتُبْ)

(إن القُرّاء الجيدين، هُمُ الذين يصنعونَ
الكُتُبَ الجيّدَة)

رالف إيمرسون

مُقدِّمة

الحياة علمتني الكتابة

(من أشقِّ الأمور، أنْ يكونَ الإنسانُ أميناً مع نفْسِهِ)

- ١ -

الورقة البيضاء الأولى صورة شريرة للكاتب، لأنها كثيرا ما تكبح جماح القلم، وخاصة عندما يكتب عن حياته الشخصية، وتجربته الذاتية، التى هى خصوصيات فردية قد لا تدخل ضمن نطاق اهتمامات الآخرين. مع ذلك فكل تجربة فردية هى واحدة من النسيج العام للبشر، وكذا لا يمكن الحديث عن عملية الإبداع من غير تناقض، الفكر الإنسانى والتجارب البشرية ليست واحدة مهما حاول الكاتب آن يكون عمومياً.

ليس سهلا للإنسان التحدث عن ذاته، وتعريتها أمام الآخرين - مهما حاول آن يكون موضوعياً. إنها أشبه (بالاعترافات) التي تَعَرِّي عقل ووجدان وغرائز الكاتب، وهذا الشيء لا يمكن تقديمه إلا في حضرة الآلهة.

من هنا شعرت بضخامة العمل الذي سأدونه، وسادني الاعتقاد بأن قدرتى على الانجاز ستكون مستحيلة، أو ناقصة. ولكن هذا الإحساس بدأ يتلاشى شيئاً فشيئاً، عندما عرفت أني أمتلك كل ما سأتحدث عنه، رغم بعده الزمنى عن الحاضر، لأنه يلح ويضغط عليَّ، وقد أنضجته الأعوام على نار هادئة ولكن (نشوة السكاكين) الدائرة الآن في المحيط الجزائري جعلت مني -

دون أن أدري- كأحد اطرافها. ولم أستطع مقابلة الأحداث الجارية هناك بفتور العامة من الناس لأنها خارج دائرة حياتهم. فالكثير من سكان العالم - ونحن جزء منهم - يريدون عبور الحياة بالقليل من الهموم. والكثير من المسرات.

وقد آثار الناقد والروائي (جون برين) حفيظتي عندما قال (من الخير أن يسير تيار الزمن إلى المستقبل لا إلى الماضي، والماضي أحياناً يقود الكتابة إلى حتفها). لأنه بذلك يلقي ظلالاً قاتمة على التاريخ، فالكتابة برأيي كالكائن البشري لا يمكنها الاتكاء على جدران الهواء؟ لمواصلة الحياة. ولن تصل إلى حتفها حقا إلا باجتياز مراحل العمر من طفولة وشباب. وكهولة، والا نكون بذلك قد آلغينا التاريخ.

- 2 -

ربما تكون التجربة التي مررت بها في الجزائر من الضحالة بحيث لا تغني الكثير من تطلعات المثقفين أو المتعلمين. الذين يودون تشخيص التجربة بشكل يحمل فائدة معرفية مثل كتب العلوم الطبيعية. أو فائدة تاريخية سياحية تقف على جغرافية المكان، وفيها حديث عن الأوابد. والملذات الأرضية الجديدة. تغني شريحة القادرين المترفين، أو تجذب اهتمام محترفي العلم السياسي الذين يهمهم جدا معرفة التيارات السياسية، والفكرية السائدة على الساحة. فتضيء لهم تحليل الواقع، واكتساب معارف جديدة يقيمون على أساسها نقاشاتهم الفكرية. وتحليلاتهم التي غالباً ما تنقصها قوة البراهين. وشدة التغيرات السريعة في الساحة الدولية التي تطيح باستنتاجاتهم المتسرعة.

كتبت وبكثير من العفوية عن أحداث جرت معي- ولربما مع الكثيرين غيري ممن عملوا في الجزائر - فأنا لست متميزا بشيء، فعقلي كان اقل ذكاء من عقول الآخرين. وغريزتي كانت متواضعة فلم تصل إلى مرتبة غرائز الآخرين. ولكن. إحساسي - وهو مشكلتي - لا تشبه أحاسيس الآخرين - وهذا من طبيعة الحياة العامة - كان متيقظا وعاقلاً لكل ما يجري حوله. وقد تكلفت الكثير من الشقاء والعناء في سبيل التعلم، وتوسعة نطاق الإدراك للأشياء والأشخاص الذين قابلتهم أو صادفتهم، أو عملت تحت إدراتهم، أو أحببتهم وعشقتهم. فلم أجمع مالاً، بل رجعت إلى أسرتي بعد خمس سنوات بمحفظة فيها القليل من الثياب. والقليل من الدفاتر والكتب. والكثير من المعرفة والحب والتواضع ومعرفة الذات.

الجزائر ليست ثورة دائمة، ولكنها أشبه ما تكون بالجرح الطري الذي لم يندمل بعد. ولا يمكن كتابة جملة عن الجزائر دون أن تدخل عليها ذكريات الحرب الأليمة والفاجعة، والجيل الذي عاصرناه في الجزائر في تلك الفترة، والذي قيّضت له الحرب أهمّ فترة في حياته، وهي فترة تكوين الوجدان الوطني، واتخاذ المواقف تجاه الحياة. لم يستطع حتى الآن الكشف عن هويته وانتماثه!؟ لقد كان جيل الضياع وجيل البحث عن حدائق الملذات، والهروب من الواقع الجديد! هربَ إلى مصانع وطرقات وأزقة الغرب المأفونة، علّه يجد ذاته التي كوّنها الاحتكاك المباشر معه، أو إلى البحث عن جذوره ومنابعه التاريخية. وتغيير الواقع لتثبيت الهوية، والالتفات إلى محيطه العربي والإسلامي - رغم انقطاعه الطويل عن متابعة الأحداث التي تجري فيه - والظاهر أن العقود الثلاثة المنصرمة، لم تكن سوى هدنة مؤقتة بين فرقاء التنسيج السياسي والفكري، والاجتماعي الجزائري. لشحذ نصال الخناجر، وتنظيف البنادق وحشوها. وقد قال لي أحد الأصدقاء الجزائريين الذين تركوا العمل الحزبي مبكرا حين سألته: من يحكم الجزائر الآن؟؟ فرد ساخراً: لا أحد وسيكون الوقت بعيدا كي تحكم نفسها!!؟

اتسعت دائرة العنف، وأصبحت طقساً يومياً. تقدم فيه الأضاحي لآلهة لم تشكل مواصفاتها ولم تجري عبادتها. وهكذا تظل الحكمة بعيدة المنال، ومن الصعب الوصول إلى أصحابها، والتراب الجزائري بحاجة للمزيد من الماء. بدلاً من جثث الضحايا. وبحاجة للمنطق الحقيقي، بدلاً من علم الكلام، وبحاجة للوفاق والحب، وتحكيم العقلاء، بدل الصراع العقائدي الذي يعتبر ضحاياه (شهداء) يقاتلون باسم الرب، وباسم الإيمان يموتون ويقتلون!؟

لا مجال للخيال والشطط فيما كتبت، وإنما دونت ما أحاط بي من أحداث وأشياء كثيرة انتظرتني كي أعبر عنها فقط، ولربما كهولة الذاكرة لم تسعفني كثيرا في إتقان أسماء الأشخاص، ولكنهم بطبيعة الحال حقيقيين.

لقد توخيت الإخلاص في سرد الأحداث والوفاء لشخوصها، وقد يعتقد البعض أني أحياناً أمجّد الغرائز! وأمثل دور القصصي الذي يكتب عن الحب يكثير من الرومانسية الحالمة ليضفي عليها البكائية المحببة لدى الحالمين، ولكن حالات الحب لا تعرف هوية البلدان (والإنسان الكامل عبر العصور لم يكن سوى وهماً) كما قال (أندريه جيد).

أنا بطبعي لن آكن أبحث عن المغامرات الحسية، واختراق قوانين الأخلاق العامة. بل هي طبيعة الحياة، وطبيعة الوجود، ولن يدفع أحد ثمناً (لخطايا) الآخرين!؟ فلكل عمل أخلاقي ظرفه المناسب، وإلاّ عدّ تدخلاً غير مشروع في

حياة البشر. والقليل جدا من البشر المؤمنين يتركون قلوبهم في المنازل!؟ والافكار البعيدة عن العالم والحياة تسبب الكثير من التعاسة والشقاء!.

– 4 –

لقد أحببت الجزائر لأن أهلها يحبون الحياة، ويبحثون عن السعادة بين حطام الألم التاريخي! ويغامرون بالبحث عن المتع، والحصول عليها للخلاص من الانضباط الأخلاقي والاجتماعي الذي فرضوه على أنفسهم تحت ظل استعمار أراد تعرية وتسفيه قيمهم الدينية والاجتماعية الموروثة التي استطاعت تشكيل حدّ فاصل بين مجتمعين غير متجانسين. وأحببت أيضاً أسلوب العمل الذي يؤديه الجزائريون، باندفاع شديد أحياناً، لبناء دولة ذات مؤسسات، لها صبغة وطنية محضة، تحديا للمستعمرين. الذين ظنوا بأن الجزائر ستسير بطريق الضياع. ومع ذلكم فقد خاب ظن الكثيرين من الأنقياء والشرفاء الذين أخلصوا لوطنهم وخدموه بأمانة.

لقد اعتمدت في الكتابة على الحدث ودلالاته، تاركاً للقارئ ايجاد الصيغة المناسبة للتعبير عن هذه الدلالات من وجهة نظره الخاصة، وسيجد القارئ أنه بعض لحظات الدهشة التى مررت بها لها ما يبررها، فالأفكار التى حملناها لدى عبورنا نحو الجزائر، لم تكن كافية، وغير واقعية في أحيان كثيرة، فالتناقض الواضح في أساليب العيش والتفكير كانا سببين كافيين لإعادة النظر، وإعادة التأقلم مع واقع جديد كلّ الجدة. وقديم كلّ القدم.

فالجزائري يحترم معتقده، وأحياناً يستعمل العنف للدفاع عنه، ولكنه يغوص كليا في الأساليب الغربية من الحياة اليومية!.

– 5 –

ومن الخطأ أن يتصور القارئ أني محور هذه الأحداث وبطلها الإيجابي، فأبطالها هم أناس من صفوف الشعب الجزائري – لديهم تطلعاتهم، وأحياناً – قدرتهم على الإقناع، فالنظرة الأحادية الجانب لا تفيد هنا في فهم الموضوع. بل تجعله مسطحاً وتافهاً، إني أتكلم عن حياة، وربما مصير أفراد عابرين، فليس الحب والعلاقات الخاصة سوى جسور موصلة لمعرفة طبيعة النظام الاجتماعي القائم، والبلدات والمدن المذكورة والتي تدور فيها الأحداث لم تقصد بذاتها، بل يمكن سحبها على أية مدينة أو بلدة في التراب الجزائري.

من أقصى مدن الساحل الشمالي ذات الوجه الشرقي الممزوج بقوة بألوان الحياة الغربية المعاصرة، إلى أقصى مدن الجنوب الصحراوي، التي رفضت

بقوة الصورة الجديدة للحياة، وبقيت تعشق الواحات والنخيل ومعاشرة الطبيعة القاسية لأنها مدن القناعة، والسكينة، والحكمة.

وسيظل سؤالاً يقدم نفسه مجدداً، كلما تقدم القارئ في استقراء السطور:

هل أساء الجزائريون استعمال نصرهم؟! وهم يعملون الآن كل ما بوسعهم لجعله أكثر سوءا!؟ أليست مقولة (هيجل) صادقة حينما قال: (إننا نتعلم من التاريخ ان الإنسان لم يتعلم من التاريخ أيّ شيء)؟!.

وليس من الإنصاف أيضاً. أن نقول عن الرجال الذين ماتوا ببطولة في سبيل وطنهم. أن نقول ونبيّن لأحبائهم وزوجاتهم وآبائهم وأمهاتهم: كيف أنهم كانوا يضحون في سبيل أخطاء الأغبياء! ونفاق الوطنيين وتعطشهم لسفك الدماء والحقد والجشع!؟ فهذا ليس من العدالة في شيء ولو كان مختبئاً تحت شعار المثل العليا تماماً كما يحدث في الحياة!

أنا حزين كحزن غيري من الناس في الجزائر، كيف انقلبت على أعقابها، فهي مثل لعنة المأساة في أيامنا هذه. فليس القتل غير المبرر من أخلاق هؤلاء الناس، لأن جهادهم السابق كان قمة الشرف والنبالة!

ويؤسفني أن أستعير قولاً (لبرنارد شو) ينطبق على الدراما العربية الممثلة على مسرح التراب الجزائري حينما قال في مقدمة لإحدى مسرحياته (فإذا كان الناس يأبون أن يتعلموا إلاّ أن تكتب دروسهم بالدم، فيجب أن يحصلوا على الدم، والأفضل أن يكون دمهم؟!!).

كأنه لم يعد لأي شيء أهمية في نظرهم بعد أن تحطمت قلوبهم، فهم يحرقون سفنهم، دون أن يحصلوا على السعادة، ودون أن يعرفوا متى يبدأ السلام!

- ٥ -

لم أتوقف عن الكتابة رغم كل الظروف المأساوية التى كانت تشطر قلبى، ولكنى أحسست بأنى سأقع في شباك النقد، لأن الكثير من النقاد يبحثون عن الفجوات مهما صغرت، وعن العثرات مهما دقت أهميتها، وكل واحد منهم يصنف عملك داخل جدران مدرسة أدبية ربما لم تقرأ عنها، أو لم تسمع بها بعد، ويقذفونك بالحجارة من كل اتجاه!

ولكن الشاعر (بول فاليري) حثنى على متابعة الكتابة، عندما تحدث عن الأسلوب في الأدب فاتخذت من إجابته طريقاً أسير عليه (الأسلوب هو الخروج

عن القاعدة!) والخروج كما فهمته ليس شذوذاً عن القواعد المتعارف عليها، بقدر ما هو بحثا مطوراً للأسلوب ذاته يتبعه الكاتب لإغناء طرق الكتابة، وإضفاء ذاتيته عليها، لتخرج بالتالي عملاً له صفة الخصوصية والتميز، وهذا حق مشروع لكل من يمارس فن الكتابة... بمختلف صورها. فالكتابة عملية فردية محصنة، تتوجها قراءة جماعية لها، ترفضها فتتركها جانباً، أو تقبلها فتزيدها توهجا. وعندما لا ينقطع الزمن أثناء الكتابة فانه ليس صعباً على الكاتب ان يعود إلى الإيقاع الخاص الذي يناسب أسلوبه ، وبالتالي لن يحدث هوة عميقة تفصله عن القرآء، الذين يجب احترام إيقاعية التفكير لديهم .وأخيراً مما يؤسف له أن تستقبل المدن السورية -وللمرة الثانية- آلاف المهاجرين الجزائريين وغالبيتهم من المثقفين، المرة الأولى كانت استقبالاً شرف ورجولة، للتدرب في الأكاديميات العسكرية السورية، للقتال في صفوف الثورة النبيلة. والثانية احتضاناً للحزن والأسى الذي تعيشه الجزائر الآن، انه لمن المهين حقا أن تجد عائلات بكامل أفرادها تبحث عن مصدر رزق أو مصدر علم. ودمشق رغم ثقل الدور التاريخي الذي تؤديه نيابة عن العرب، ورغم الأعباء الاقتصادية والعسكرية المترتبة على ذلك. فإنها فتحت ذراعيها لاحتضان هؤلاء الاخوة وأبعادهم عن دروب الآلام والظلام فدمشق تعرف أن (الطيبة دائما في روحنا، والروح طيبة، بينما الشر اكتساب) تولوستوي.

عندما كتبت اقتربت من (الفردوسي) وحفظت بعض قواعد الضمير الانساني لديه، فكان خير دليل على السلوك والعمل والحياة بكل عقائدها.

(إن كل ضياء البشر من الاستقامة ، فعليك تجنب الاعوجاج وسوء النية).

(تحدث بلين أيها الرجل المجرب، ولا تلوث شفتيك بالقول القبيح).

دمشق في 30/ 12 / 1997

طائرة قديمة فوق المتوسط

(لا يكفي أن تُولد في مكان لتكون مُواطنا لـهُ،
بل يجبُ أن تجد نفْسك فيه أيْنما كُنْت.)

- 1 -

في منتصف الليل، ودّعنا الأهل والأصحاب ودمشق. وصعدنا الطائرة السورية المسماة (D.C.4) ذات المحركين مُقلعةً من مطار دمشق القديم في (المزه) وعلى متنها أول بعثة سورية، ذاهبة باتجاه الجزائر. الغالبية من المعلمين يركبون الطائرة أول مرة،وأنا واحدٌ منهم. وجوهٌ شابةٌ. يداعبها الأمل واقتحام الحياة. وأخرى غارقة في بحر من الأفكار خوفاً من المجهول.

كان الهلع يصيبنا عندما تهوي الطائرة بسرعة خاطفة نحو الأسفل، ثم تعود مرتفعةً لتأخذ خط سيرها المعتاد، مكبرات الصوت داخل الطائرة تعلمنا بأننا في منطقة مطبات هوائية فوق البحر. وهو شيء معتاد فلا داعي للقلق. تشحب الوجوه. وتتمسك الأيدي بأطراف الكراسي .وتلهج الألسن بآياتٍ من كتاب الله. وتعود بعدها أصواتُ المحركات تدوّي في الآذان

فتغرقها بالضجيج المرهق للأعصاب، وتُصَوِّبُ العيون نحو الأسفل الذي لم نعد نميز فيه سوى حلكة الليل. وأحياناً أضواء حمراء خافتة متراقصة متناثرة هنا وهناك. كأنها حبات عقد قد فرط ولم يستو بعد بين يدي صاحبه.

السفير الجزائري في دمشق (محمد الغسيري) هو الوحيد الذي كان يقرأ تحت ضوءٍ خافتٍ. كتاباً دونما اكتراثٍ لما يجري حوله. وهو الوحيد الرابط الجأش. والعزيمة كأنه معتاد على السفر في كل الأحوال الجوية.

انحنى عليَّ قليلاً وقال: الحالة آمنة وليس فيها خطر، وهذا شيءٌ طبيعيٌّ في طبقات الجو العليا.

فأهز رأسي موافقا وكيف لا؟ فالسفراء لا يكذبون _ على كل حال وصادقون في كل الأحوال؟.

السفير وأنا كانت بيننا مودة، وربما صداقة من نوع ما. بعيدة عن الأعراف الدبلوماسية فقد كنت أتابع العديد من محاضراته وكلماته الخطابية. التي كان يلقيها في النوادي الثقافية. أو المناسبات الوطنية. كان حيويا ناشطا يدرك أن مهمته في دمشق لها طعم خاص. ومنظور خاص.

يومها كان الموضوع الجزائري هاجساً وطنياً سورياً وفلسطينيا على حد سواء. وكل ما يمكن أن يقال عن ثورة الجزائر وقضية فلسطين كنت تجده في دمشق. هكذا اعتادت دمشق. وما زالت فتربتها القومية من الخصوبة بحيث كأن باستطاعتها زراعة ثورات التحرر الوطني كلها! رغم الثمن الباهظ الذي كانت تدفعة من أجل هذه الرعاية والاحتضان.

سعادة السفير: الظاهر أنك تقرأ في كل مكان ؟! مشيراً إلى الكتاب. استدار مبتسماً بعد أن ترك الكتاب يرتاح على ركبتيه ، وبنبرةٍ جزائرية تعودتها: طبعاً، القراءة ضرورة ملحة، فالمتابعة الثقافية والسياسية والفكرية في العالم هي مستلزماتٌ للدبلوماسي الناجح. وخاصة في ظروفنا الحاضرة. فالجهاد الأكبر لم يكن في يوم من الأيام سوى العمل الفعال والحقيقي لانتظام دورة الحياة، وها أنا اكمل قراءة (المعذبون في الأرض) لفرانز فانون مترجماً للعربية. هل تعرفه؟

– لا ولكني سمعت عنه فقط وقرأت توصيفاً له في الصحف الدمشقية.

– سأنهي رحلتي مع الكتاب فلديّ الوقت الكافي لذلك من أثينا حتى الجزائر العاصمة وهناك سأقدمه لك برسم الإعارة – قالها ضاحكاً – فإذا عدت لدمشق أدخل السفارة لتجدني هناك ،وسنناقش أفكار الكاتب سوياً فأنا أعرف انك مشاغب فكرياً!

– سيدي أليست الحياة شغباً لذيذاً ومراً في آن معاً؟

– نعم، كنت استمتع بالحوارات التي كانت تدور في الأروقة الثقافية السورية ولقد تعلمت منها الشيء الكثير فالاخوة السوريون مثقفون يتصفون بالرزانة والعواطف القومية النبيلة.

– 2 –

بدأ الفجر يستيقظ ونحن ما نزال في السماء، وانساح الضوء متسللاً إلى داخل الطائرة اللاهثة من نوافذها الضيقة. وها نحن في مطار أثينا بعد أن قطعنا المدينة كلها، ونحن نشاهد واحدةً من عواصم العالم القديم ،ومبنى (الأكروبولوس) جاثماً على أعلى هضبة في المدينة بمعبده المهيب ،وأعمدته الضخمة التي تنوء تحت ثقل الزمان!

كان الهدوء مخيماً على المطار بكامله كأنه يأخذ أنفاسه. بعد عناء يوم عمل طويل وشاق. ونسماتٌ باردةٌ تَتَسَلّل إلى أجسـادنا. فنسترد صحوننا مجـدداً. دخلنـا قاعـات الاسـتراحة والانتظـار الفارهـة دون ضجيـج. لأن سكون ونظافة المكان فرضت ذاتها علينا. شعرنا أننا بدأنا نصل إلـى عـالم آخر يعرف متعة الخدمة. ورهافة المسؤولية. كل شيء متقـن أنيـق. قاعـة الانتظار. وسوق دولية للشراء فيها كـل وسـائل التسلية والمتعـة والفـائدة. المقاهي الداخلية. والمشارب أماكن للهدوء. والقراءة السريعة. ولأول مرة في حياتي أجد مكاناً لبيع الكتب والمجلات والصحف العالمية. وبكل لغات العالم تقريبا. بهذا الاتساع والترتيب إلا الكتب العربية والصحف العربيـة لم أجد لها مكانا!؟ رغم قرب أثينا من ديار العرب شرقاً وجنوباً! السـفير الجزائري اشترى جريدة (اللوموند). الفرنسية. رافقني في اكتشاف أجنحة المطار شاعر فلسطيني كنت أصْدُقُه في دمشـق في مناسـبات عامـة – أصبح فيما بعد صديق العمر – لطيف المعشر. يحب النكات اللاذعة. لكنه عندما يتحـدث فتبـدو الرصانـة علـى وجهـه وكلماتـه. يضـع نظـارات المثقفـين الشرقيين – في ذلك الوقـت – علـى عينيـه انـه وليـد زمـن رواج وجوديـة (سارتر) وعد مية (كامو) وتوهج الشعر العربي الحديـث. ونـيران الماركسـية الثوريـة التـي تجتـاح بلهبـها شـباب العـالم الثـالث. يعـرف الإنكليزيـة ويتحدث بها. كان مشدوداً ومبهوراً مثل الآخرين الذيـن تفرقـوا في أنحـاء الأجنحة وَكُلٌّ يرى ما يشبع غرزيزيه.

جلسنا نحن الثلاثة حـول طاولـة المقـهى الدافـئ ورائحـة المشـروبات الساخنة تعطر المكان. ووجوه الأوربيين تتطلع إلى وجوهنا وتعاود احتسـاء المشروب والثرثرة دون مبالاة استلم صديقي الشاعر دفة الحديث بعد تعرفه

على السفير. وانصب كلامه حول تطلعات الشباب العربي لخلق بعث قومي جديد يستلهم الحضارة العربية وقيمها وغناها الثقافي لبناء حضارة موازية لحضارة الغرب الحديثة، والقفز بسرعةٍ لاستملاك المنجزات والأدوات الحضارية الجديدة وتجاوز الماضي وسلبياته وقد أحسست كأن الجو الجديد الذي نجلس فيه قد دفعه للانطلاق بأفكاره وعرضها دون مواربةٍ أو رياء.

وقد ضَمّنَ حديثه الكثير من أقوال المفكرين الأجانب المعاصرين، حتى يضفي على حديثه صبغةً من المعاصرة الثقافية الجادة.

كنا نشرب قليلاً من قهوة (الاكسبرس) الدافئة اللذيذة. ونمتص لفائف التبغ الدمشقية. ونعود ثانية لمتابعة الاستماع لصديقنا الشاعر الذي دخل في الموضوع الشعري كشاهدٍ حيٍ على منطلقاته الفكرية. فأسهب في نقد القديم — دون الغائه— وقدم الشعر الحديث كتجربةٍ معاصرةٍ بديلاً وحيداً لتطوير الوجدان والذوق العربي.

السفير استمع مطولاً دون أن تبدو عليه أمارات فراغ الصبر، ولم يقاطع محدثنا إطلاقاً حتى استقر وسكن. متمماً وجهة نظره، بعدها نظر ملياً إلى محدثه وبلباقة الدبلوماسي. وبلغة مكثفة العبارات.

— يا أخي! أنت ذاهب إلى شعب قاتل المفهوم الحضاري الأوربي الذي تستلهم منه. قاتل الاستعلاء، والعنصرية، وقيم وأساليب الحياة الأوربية. قاتل لا ليهدم قيمة الاجتماعية والدينية، وأساليب تفكيره المعترف بها حضارياً. ولكن ليبني عليها مفهومه الحديث للمدنية. فأرجو أن تعلم بان الحضارة مفهوماً نسبياً، وان للحضارة حلقات ونحن إحداها.

ومع ذلك ستجد في الجزائر أننا مازلنا متأثرين بشدة بقيم الغرب ولكننا في نفس الوقت. نبحث عن هويتنا الذاتية فليس كل ما يلمع ذهباً!.

وأسال السفير بدوري: هل تعني أننا سنجد صراعاً فكرياً ونحن سنكون بطبيعة الحال طرفاً فيه ؟!.

فأجاب: هذا ما كنت اقصده فالجزائر تريد التعبير عن ذاتها من خلال تاريخها وإلاّ فقدت ثورة التحرير مضامينها. فنحن لم نقم بثورة الجياع. نحن قمنا للرد على الغزو الخارجي الذي أراد سحق ذواتنا من الداخل. نحن الآن في مرحلة استرجاع الذات، والعودة إلى المنبع.

ثم توقف ونظر لكلينا قائلا: أظن أننا بحاجة لشرب قهوتنا ساخنة وقد اقترب إقلاعنا. ولكني علمت أن طائرة المشير عبد الحكيم عامر الجاثمة هناك وأشار بإصبعه من خلال الزجاج –ستقلع قبلنا متجهةً إلى فرنسا في زيارة رسمية. وهاهم أفراد الحراسة ينسحبون من بين أطراف الطائرة.

وصلنا مطار الجزائر العاصمة، بعد رحلة شاقه دامت اكثر من ثماني ساعات، وكان وصولنا ظهراً، وقد زادت الإجراءات الطويلة. وصعوبة إملاء الاستمارات باللغة الفرنسية، ولهجة أهل الجزائر ا لجديدة علينا، والتي استعصت بعض دلالاتها على الفهم، من إرهاقنا.

ودّعني السفير كما ودّع بقية المعلمين، وتمنى لنا طيب الإقامة والخدمة الممتازة. ولكنه لم ينس تقديم الكتاب الذي استطاع الانتهاء من قرائة حتى ساعة وصولنا. حملتنا حافلات النقل المخصصة لخدمة المطار مع حقائبنا وسارت بنا في طريق طويل، تظلله الأشجار، والأسيجة الخضراء من طرفيه فلم نتبين معالمه كثيراً، وعندما بدأنا نلج مداخل

العاصمة المنظمة جيداً ذات الأبنية البيضاء اللامعة تحت أشعة الشمس، كنا ننتظر رؤية الخراب والدمار ! ! في هذا البلد الخارج من الحرب أو على الأقل بعضا من معالمه. ولكننا لم نجد شيئاً سوى شعارات تلوث بعض الجدران مكتوبة باللغتين العربية والفرنسية. كتبت بعجل على طريقة الإرهابيين ! ؟.

بدى الانطباع الذي نحمله في ذاكرتنا قريباً من الزيف! فالأخبار والمعلومات الشفاهية التي كانت تلقى علينا، تُعْوِزُها الدقة والموضوعية، فالجزائر التي وجدناها ليست برلين المدمرة ولا الوطن المحترق. وهكذا بدت المشاعر الوطنية مضخمة وبشكل كبير وتطغى عليها نزعة الكره الشديد للاستعمار. الذي استطاع بقواه الشريرة من إلحاق الدمار بالإنسان الجزائري ذاته وقتل أكبر عدد ممكن منه.

وبعد أن استقر بنا المقام في جامعة (ابن عكنون) قدم لنا طعام خاص في مطعم الجامعة. واستقبلنا الكثير من طلبتها بترحابٍ هادئ ! ؟

وبتنا ليلتنا في بيوت الطلبة النظيفة، والمريحة. وفي الصباح اندمجنا مع الطلبة. وتناولنا وجبة الإفطار بالخدمة الذاتية.

جلسنا في رحاب الجامعة وأقسامها وكلياتها وتحدثنا مع أساتذتها وطلبتها. فازدادت دهشتنا بطريقة الحياة الجامعية المتحضرة، ومقدار الخدمات التي تقدم فيها، حتى البناء الجامعي نفسه، كان محط أنظارنا بطريقة وأسلوب معماره الحديث. وغابات الصنوبر. وحدائق الورد، التي كانت تبدو في كل ركن فيه. تركت وصديقي الشاعر الجامعة واتجهنا صوب طرقات المدينة، وبقينا صامتين خمس ساعات ونحن نخترق الشوارع الأنيقة متفرجين على كل بناء، وكل ساحة، بل وكل شجرة، فالمدن

الجميلة لا تحتاج للكلام والتعليق، فلا مبرر لكلامٍ في موقف يحتاج إلى الصمت والتأمل. وبعد أن أخذ التعب يضغط علينا بقوة، استرحنا وسط المدينة في أحد مقاهي الأرصفة التي تنتشر في كل شارع وزاوية منها. طلبنا كعادة الشرقيين ماءً وقهوةً، وبعد أن استشرف النادل شخصيتنا أصرّ تقديم الطلب على حسابه كضيوفٍ على بلده!؟.

التفت صديقي الشاعر إليَّ، بعد أن أشعل لفافة قائلاً: هل تعرف أين نحن !؟

– حتى الآن لا أعرف ولكني سأعرف في مستقبل الأيام إن كانتْ لنا أيامٌ في هذه الجنة الأرضية، ولكن يا صديقي عَرَفْتُ شيئاً واحداً هو: لماذا دفعت الجزائر مليون شهيدٍ ثمناً لهذه الجنة!

كل ما رأيناه في هذه المدينة –ولو كان صغيراً– أكد لنا أن المدن كالإنسان، تحمل طابع شخصيتها المميز حتى لو دخلها مئات الفاتحين، والعاصمة احتضنت طويلا حياة الدخلاء، وأساليب حياتهم وطرز معمارهم، ولكن شخصيتها الحقيقية بقيت ظاهرة للعيان وطغت على السطح ثانية لتعيد تجديد الكيان الداخلي للحياة التي تؤمن بها وتقدسها.

وبعد شهور طويلة، عندما استقربي المقام في مدينة عنابة، قرأت (المعذبون في الأرض) بعمق وامعان، ودونت في دفتري ملاحظات وأفكار صالحة للنقاش، مع الكثير من الأسئلة، وقد استغرقني الموضوع وكنت احسبه روايةً سهلة القراءة والفهم، ولكني وجدت نظرية ثورية متكاملة الأطراف، دقيقة المضمون، كثيرة التفاصيل معاشةً من قِبَل الكاتب– وهنا تكمن أهميتها– وقد اتخذها الجزائريون كنظريةً صالحةً للتطبيق في حربهم وسلمهم.

بقي السفير معلقاً في ذاكرتي حتى عودتي لأرض الوطن بعد خمس سنوات. ولكني علمت أنه نقل سفيراً لبلده في المملكة العربية السعودية! ومع ذلك فالأيام استطاعت أن تجمعنا بعد سنةٍ واحدةٍ، وبطريق المصادفة البحتة. عندما التقينا في ريف دمشق الهادئ وبالذات في مقصف (نبع بردى) وكانت مفاجأة لكلينا. تعانقنا بحرارة، وتحدثنا بلهجة أهل الجزائر. والفرحْ بادٍ على وجهه. لكنه اصبح ناحلاً جداً. وهشاً جداً ووجهه تخفيه لحية خفيفة بيضاء، ولكن أناقة الدبلوماسي ظاهرةً على كيانه.

قال بسرعة: محمد أنا أحب دمشق. وأحن إليها لذلك أقضي عطلتي هنا مع العائلة. فدمشق الشام شيء مني لا أستطيع تركه. دمشق يا محمد مظلة للهاربين من وحشة الحياة وظلمها. ثم أخذني من يدي وسرنا سويا نحو طاولة أسرته على طرف السياج الخشبي المطل على النبع الجميل.

تقدمت وصافحت أفراد عائلته واستأذنت مباشرة، لأني كنت مع معلمين آخرين يدرسون بعض المناطق الجغرافية دراسة ميدانية ووعدته باللقاء ثانية.

ولكني قلت وأنا أشد على يديه: يا سيدي قرأت كتابك الذي أعرتني إياه في الطائرة، ولكن صدقني بأن عدد المعذبين في أرض الجزائر قد ازداد

هز رأسه بحركات سريعة، لاحظت انطفاء البريق في عينيه من وراء نظاراته الطبية. وبعد انقضاء فترة – ليست بالطويلة– على لقائنا الأخير، علمت بأنه قضى نحبه ودفن في الآرض التي أحبها ودافع عنها حتى الرمق الاخير ودفن في التراب ذاته الذي سبقه إليه (فرانز فانون

المارتينيكي الأصل الجزائري النضال). والمنَظِّر الثوري ذي الفكر الرصين، الذي دافع عن الفقراء، وعاش حياة المرضى وداواهم.

ونبذ العنصرية والفاشية وجهي عملة النقد الاستعماري.

هكذا لم يسترجع صاحبي كتابه المعار، وبقي في مكتبتي مغلفاً بالحزن. والذكريات الأليمة وضياع النظرية الثورية ولكنه مع ذلك استرجع صداقة مؤلفه الذي أحَبَّهُ ومشى على هديه، واحتضنهما مرقدٌ واحدٌ! ...

الجزائر:
لمن نقرع أجراس الحرب ثانية

(إنّ الذّهاب إلى الحرب للشباب مثل الذهاب إلى عيدْ ومنْ يبقى في المدينة ولوْ كان أميرا لنّ يشْبع خُبرا إنه منْبوذٌ من شعْبه مَحْتقرٌ في شخصْه كيف يمكن له أن يُصافح يَدُ من ذهب إلى الموتْ؟!).

شاعر سوري من مملكة ماري

-1-

شوارع الجزائر العاصمة تغص بالناس. ساحة الشهداء، وساحة بور سعيد، والشوارع المتفرعة عنها. صافرات البواخر، والقطارات، تملأ السماء ضجيجا. جزرٌ بشريةٌ أمام دور الحكومة، وعلى أرصفة المقاهي. رجال مدنيون بألبسة متباينة تدل على وصولهم من مناطق جزائرية نائية. حتى رجال الطوارق الملثمين تجد لهم جمهرة هنا وهناك، تختلط اللهجات فيستعصي عليك الفهم الدقيق، والجنود الشبان يحملون أسلحتهم.

وحقائب الظهر العسكرية سائرين بنشاط إلى أماكن لا نعرفها. مكبرات الصوت في الساحات. تذيع نداءاتٍ عسكرية، وأناشيدَ وطنية؛ كل المظاهر دلالةً على الحرب! ولكن لمن تقرع الأجراس ثانية؟!.

علينا أنا وصديقي – الاتجاه إلى محطة السكة الحديدية لنغادر إلى قسنطينة العاشرة صباحاً انتظرنا قليلاً في الشارع المطل على الميناء، ثم هبطنا درجاً طويلاً مع حقائبنا حتى وصلنا المحطة المكتظة بالركاب، حَمَلَةُ الأسلحة باللباس العسكري يتزاحمون على القطارات المتجهة غرباً، والآخرون يتسلقون عربات القطارات التي لم تتحرك بعد.

استطعنا اختراق التزاحم الشديد نحو واحدٍ من نُظّار المحطة بلباسه المميز. سألناه عن قطارنا، وعن الازدحام، وما القصة!؟.

– إنهم المتطوعون الذاهبون إلى الحدود المغربية يا أخ!

– وهل هناك ما عكر صفو العلاقات بين الجزائر وشقيقتها المغرب!؟

– نعم. إنها الحدود لقد ترك لنا الاستعمار ذيولاً يمكنه جَرُّنا منها!؟

– حتى مع الأشقاء الذين كان مجاهديكم على ترابهم؟

– نعم. يا أخ. النار لم تنطفئ بعد، ويريدون مزيداً من الوقود لها. وها نحن كما ترى.

أشار ناظر المحطة بيده نحو قطار قسنطينة، وحيّانا متراجعاً لعمله. تسلقنا إحدى عربات القطار. وبدأنا البحث عن مكان لنا بين الحشود البشرية الواصلة للمرات، ولكن دون جدوى، فآثرنا الوقوف، وترك حقائبنا تحت أرجلنا. ولكن بعض الركاب الشباب، أخلوا لنا مكانين ضيقين في احدى العربات بعد أن عرفوا أننا من عرب المشرق.

قبلنا شاكرين عطفهم وكرمهم. وحشرنا حقائبنا التي كادت أن تتمزق بين حقائب أخرى على رف العربة. اتجهت أنظار ركاب العربة نحونا بنوع من التساؤل الخفي، ولكن صافرة القطار المدوية استطاعت أن تحرك مشاعر ذاتية بحتة أدت إلى اختلاء كل واحدٍ بنفسه، كان الجو حاراً والأنفاس تحرق الوجوه، ولكن أرصفة المحطة كانت اكثر ثورية، كان نفيراً عاماً استعدادا لحرب شرسة مع (عدو) جديد يبدو أشد ضراوة من الآخرين.

مضى وقت طويل حتى أتم القطار اختراق العاصمة تاركاً وراءه الأبنية و الجسور تتراكض مسرعة. ليدخل إلى الطبيعة الرحبة الملونة، فصار الهواء أكثر برودة وإنعاشاً. فبدأت الأرواح بالهدوء والسكينة. وساد صمتٌ بداية الرحلة يشبه صمت القبور، تزاحمت الصور الأخّاذة في أعيننا، الجبال المغطاة بالأشجار الداكنة، والسهوب الصفراء. التي بدأ الخريف يعريها ويكسبها لوناً برتقالياً جذاباً.

عربتنا كانت أشبه بمجلس قرويٍّ، ممزوج ببعض من حضارة المدن، استعاد الحوار حيويته شيئاً فشيئاً. بلهجةٍ حادةٍ بين ركاب العربة ، وبدأت لفائف التبغ الجزائرية تشتعل واحدة وراء الأخرى فتشكل جواً ضبابياً له رحيقٌ خاصٌ. وطعمٌ خاصٌّ. يطيب الحديث فيه. ولكن اللهجة المحكاة بقيت سداً بيننا وبين الآخرين، فما زالت أسماعنا بحاجة للتدرب على تلقيها دون خوف من عدم الفهم ،ومع ذلك كنا نفهم أن الحديث يدور حول الحرب. وبلهجةٍ جادةً فيها الكثيرُ من الشتائم والسباب!

ناولني صديقي لفافةً من علبة (باصطوص) كان اشتراها من العاصمة، وأشعلها وأخذ واحدةً لنفسه، قلت وأنا أنظر إليه : ها نحن ندخن أول

لفافة جزائرية طيبة المذاق ! ولكن ألا ترى أننا جئنا إلى هنا ، وقد نسينا لباس وأعتدة الحرب في دمشق!؟ ألا ترى أن البدلات وأربطة العنق التي نلبسها غير مناسبة لهذه الحفلة، التي ترقص فيها السيوف والبنادق على أنغام طبول الحرب المقبلة !!

ألا تعني لك هذه المواقف شيئاً يا صديق؟

دفع نظارته إلى الوراء بطرف سبابته، وامتقع وجهه محركاً أرنبة أنفه بخفة.

– نعم. كنت في ا لسابعة عندما تركنا عكا إلى بيروت بقطار فلسطيني.

ولكن في مناخٍ مملوءٍ بالدمع والحسرات. كان مناخاً مهيناً لا يشبه ما نحن فيه، وكانت دموع والدتي الحارة تنهال على رؤوسنا وهي تخبؤنا تحت ذراعيها، وأخي الكبير يودع عكا بعيون فيها ثأر لم يؤخذ. ورفاة والدي طازجة مستريحة في تراب الوطن!

كان قطار فلسطين لعنة! وها هو قطار الجزائر محملاً بالحماس المتدفق المملوء بروح الثورة ونداء الدفاع عن حرمة الوطن وحرية أبنائه.

كان هناك شتاتٌ أيضاً وفي أرضٍ لم تهدأ لاستقبال لاجئين غرباء لا يُعرف مصيرهم بعد!

أنصت الشباب المجاورون للحديث الذي يدور بيننا. لم يقاطعنا أحد بل ظلت عيونهم معلقة على شفاهنا –وابتسامة لطيفة تنطبع على شفاههم ووجوهم التي أحرقتها شمس الخريف الغاضب هذا– عندما تتلاقى عيوننا.

بادرت أحدهم وكان يقابلني – بلغة أقرب للفهم – لماذا أنت هنا يا أخ؟ كان شاباً حاد التقاطيع يمسِّد شاربه الناعم بأصابع مصبوغة بلون

التبغ. شعر رأسه كثيفٌ. وغير مشذب تتدلى خُصلاً منه على جبهةٍ شابةٍ قوية التصميم. انحنى قليلاً وقال: جئت متطوعاً للذهاب إلى حرب الحدود! وانا من ولاية عنابة. من (تبسّة) هل تعرفها؟!

– لا اعرفها ولكني مع صديقي في طريقنا للعمل في عنابة.

– هل انتم من مصر!؟

– نحن من فلسطين ونسكن في سوريا.

– من فلسطين !!؟؟ رفع صوته منادياً أصحابه للتعرف علينا. تودد الجميع لنا حتى أذابنا الخجل.

– مرحبا بيكم. مرحبا بيكم يا شيخ! واللهِ ما نِعْرَف من قبل. أول مرة نشوف فيها ناس من فلسطين؟ كيف أحوالكم يا شيخ؟.

ما زلتم تقاتلون هناك يا شيخ !!؟؟

ارتفع الدم فجأة إلى رأسينا. وتململنا في جلستنا وتبادلنا نظراتٍ حائرة! ماذا نقول؟ أيُّ موقفٍ ندافع عنه؟ قضيتنا ما زلنا نعاود شرحها لبعضنا نحن العرب!

ولكننا نتقن فن التنظير الثوري. ونتقن فن الانتظار والادعاء ونعرف الطرق التي نالت بها الشعوب حريتها واستقلالها! ولكننا لم نتقن فن الانخراط في التجربة. وما زالت الظروف تعمل لغير صالحنا. فالرؤيا يكتنفها الضباب. والمستقبل تخفيه الأقدار. رد صديقي بعد أن حزم أمره: نعم نحن نقاتل ولكن بصمت!!؟

لكن الحرب يا أخ لا تخفي صوتها نحن قاتلنا بصوت مرتفع سبع سنوات حتى أسمعنا العالم كله.

-3-

كان المتكلم واقفاً وبلغة عربية فصيحة قال جملته، واستقر في مكان تركه أحد الجالسين -شابٌ في الثلاثينات من العمر- حليق الشارب وقليل من خيوط الشيب تزحف على شعره الفاحم، عيناه واسعتان بلون القهوة فيهما الكثير من البريق الذكي، والثقة بالنفس. عرّفنا على نفسه على أنه خريج مدرسة دينية عربية، تلقي علومها كلها باللغة العربية.

– أرى أنكم عائدون إلى أهلكم؟ هل يعني أن الحرب انتهت؟

– لا لم تنته الحرب، ولكن أعداد المتطوعين كانت كبيرة. وقد اكتفت القيادة بما عندها الآن، ومع ذلك فقد سجلنا أسماءنا للضرورة، لقد انتظرنا في العاصمة أسبوعاً، ولكن الجيش اعتذر لعدم قدرته على الاستيعاب.

– هل لك تجربة في القتال الميداني؟

تراجع قليلاً إلى الوراء واخذ نفساً عميقاً مشبعاً برائحة التبغ، واغلق عينيه قليلاً ثم قال:

– نعم كنت ثائراً في ولاية قسنطينة لمدة سنتين، بعد أن تلقيت تدريباً قاسياً على حرب الجبال، وقبلها رشحت نصيراً للعمل العسكري داخل المدن. وقد خضت قتالاً فعلياً في كثير من المناطق . ابتسم بعدها فكأنه تذكر شيئاً يود قوله

– دعني أقول شيئاً، ليس سراً بقدر ما هو شيء حصل معي. كنت أستمع كل يوم لبرنامج الجزائر من صوت العرب- كغيري من الناس - ولكن (أحمد سعيد) استطاع أن يقذفني إلى لهيب الثورة دون مقدمات. كان لهب حماسنا الوطني عنيفاً، وكان وقتها صادقاً مقنعاً، حتى قواعد

الثورة في كافة المناطق لم يكن يفوتها الاستماع لهذه النبرة القوية الأخاذة!؟ ثم عاود الابتسام ثانيةً وأشعل لنفسه لفافة لها مذاق خاص.

- ماذا تعمل الآن؟

إني (معلم متمرن) أدرّس اللغة العربيــة والتربيــة الاسـلامية في مدينــة (تبسّه).

- هل تعتقد بأن عملية التعريب ستسير دون عقبات؟ سأله صديقي

- اعتقد بـأنكم ستمرون بمرحلـةٍ صعبـةٍ في عملكم. من النـاحيتين الادارية والتربوية! فالإجحـاف والظلـم اللذيـن لحقـا بالإنسـان الجزائـري ولغته خلال مئة وثلاثين عاماً، لا يمكن إصلاحها بزمن قصـير، أعتقـد أن اللغة العربية وتدريسها ستكون احدى الإشكالات المقبلة للجزائر!..

امتدت إلينا كؤوساً من القهوة الساخنة مع عبـارة (تفضـل القـهوة يـا شيخ) تناولنا فنجاني القهوة شـاكرين مضيفنـا . والدهشـة تعلـو وجوهنـا، كيف استطاعت هذه الكؤوس الوصول إلى هنا من خلال الزحام وبُعْدِ عربة الاستراحة عن عربتنا!؟ وزاد الترحيب وضوحاً عندما ما أضيفت لفـائف التبغ مع القهوة فكان الوقت مناسـباً لذلـك السـرور الطبيعـي. لقـد انسـانا الحديث الطبيعة الممتعة التي نسـير فوقـها فلـم تـأخذ حقـها مـن التطلـع والنظر. ولكن نحس أحياناً توقف القطار في محطاتٍ لانعرفها فيقذف مـن جوفه ركاباً ويملأ آخرين بدلا منهم، وصافرته تملأ الجو شغباً وتحذيراً.

هل هناك استراحة على الطريق سأل صديقي؟

سنقف في (سطيف) فترةً طويلةً على مـا أعتقـد، ولكـن هـل يزعجـك شيء؟؟

- لا . أبداً. ولكن انشغلتم بنا، ونحن لا نستحق ذلك.

– يا شيخ أنتم ضيوف عندنا. وعلينا حق الضيافة. وبعد انتهاء الرحلة سيذهب كلٌّ إلى ما قدر الله له. فلربما لا نشاهد بعضنا ثانيةً. الرحلة جمعتنا. ونهايتها ستفرقنا!

تابعنا جميعا شرب القهوة، وشمل السكون العربة ثانيةً. والطبيعة تتحف أنظارنا. بصور لا تمحى من الذاكرة، مناظر على الأودية السحيقة ومياهٌ رقراقة لامعة. تخترقها مجار لأنهار صغيرةٍ، وفلاحين منهمكين في حراثة الأراضي الصغيرة والواسعة. وقرىً مزروعةٌ أسطْحها بقرميدٍ أحمر، وحيوانات تتابع رعيها دون التفات. ونسمات تعطر الجو بعطر مختلف.

طالت الرحلة. وبدأ التعب يخترق أجسادنا المسمرة على المقاعد الخشبية. وأخيراً وصلنا المحطة الرئيسية في (سطيف).

رافقنا (الشيخ التبسي) بالتجوال في المحطة من الداخل. أكشاكٌ لبيع المأكولات السريعة. وأكشاكٌ لبيع الصحف الأجنبية والجزائرية، ومجموعة من المقاهي المتتابعة وطاولاتها وكراسيها مرشومة على الطريق. حركةٌ ناشطةٌ وأصواتٌ مكبرات الصوت تعلن قدوم ومغادرة الرحلات. تركنا المحطة إلى ضوء المدينة وشوارعها وناسها.

– سطيف مدينة جميلة. لكنها باردة مثلجة شتاء. ولها تاريخ نضالي طويل. ومنها تخرجت أجيال مثقفة رفدت الحركة الوطنية بالكثير من الرجال (عباس فرحات، بن خدة...)

قال ذلك مرافقنا (الشيخ التبسّي).

قلت معقباً: على ما أعتقد يا أخي أنها دفعت ثمناً باهظاً عام 1945 عندما جرى فيها الاحتفال بيوم النصر الفرنسي على النازية. ومطالبةْ الوطنيين يومها بحق الجزائر الشرعي في تقرير المصير. وكانت وقتها

تظاهرة عارمة رُفعت فيها الأعلام الخضراء، واليافطات التي لطخت بدماء المتظاهرين من أبنائها الشرفاء؟ أليس كذلك؟

هز الشيخ التبسي رأسه موافقاً وأشار بيده نحو الشارع الذي ندخله قائلاً: هذا هو الشارع الذي جرت فيه التظاهرات. وهنا بدأت المجزرة الرهيبة وانتهت في الأرياف والضواحي حيث قتل الأبرياء بالآلاف. انها مدينة مجبولة بالدم!.

أجبرنا الهواء البارد الرطب إلى العودة نحو المحطة، فجلسنا حول طاولة صغيرة في أحد المقاهي، وشربنا شاياً ساخناً مشبعاً بالسكر. وانتظرنا صافرة قطارنا التي تأخرت. لكن الصمت والهدوء في الاستراحة. أراح أعصابنا وفكرنا من مناخ الحرب. والموت. الذي كنا نعيش فيه ونغرق!

نزل الكثير من الركاب في سطيف، وأصبح الحال مريحاً داخل العربات. أخذنا مقاعدنا مع بقية الركاب التي أصبحت وجوههم مألوفةً لدينا.

بدأ ضوء الشمس يذوي قليلاً. وازدادت نسمات الهواء برودة فأصابتنا قشعريرة المساء.

– 4 –

وتلونت الآفاق البعيدة بلونٍ ناري، وغيوم سوداء تجري مسرعة تلامس رؤوس الجبال ثم ازدادت سرعة القطار، وأضيئت أنوار العربات الحمراء، واستقر الركاب في أماكنهم فكأن سكينة الليل أصابتهم. الشيخ التبسي يتناول حقيبةً يدوية كبيرة من الرف. يفتحها، ويبحث عن شيءٍ فيها. ثم يفتح حقيبةً يدوية صغيرة ويخرج منها شيئاً له صوتٌ يشبه النقود! ينظر لكلينا ثم يغمض عينيه قليلاً ويقول:

– فلسطين عزيزة على قلوب أهل الجزائر. والمستقبل وحده كفيل بتقدير هذه المحبة. انها قيمة تاريخية مقدسة لا يستطيع أي مؤمن التنازل عنها! ولكن أرجو أن تقبلوا مني هذه الذكرى عربوناً للقائنا وصداقتنا السريعة.

هذه أربع قطع نقدية يعود تاريخها للعصر الروماني وقد وجدتها في تربة تبسه منذ زمن. وهي من نصيبكما، فالتاريخُ يُهدى لأصحاب التاريخ وأنتم أهله وأصحابه!؟ ثم مد يده وأنقدني قطعتين، وكذلك صديقي.

وفي قسنطينة كان فراقنا حزيناً ومؤثراً إلى حد البكاء وها أنا بعد خمس وعشرين عاماً. ما زلت احتفظ بالذكرى. مرسوماً عليها صورة أحد أباطرة الرومان مع كتابة باللغة الرومانية . أهديتهما لولدي الوحيد.

وكتبت تحت الأولى: هدية من تربة الشيخ العربي التبسي!؟

وتحت الثانية: هدية من تربة المربي مالك بن نبي!؟

التدوينات الثانية

سنوات عنابة المدللة
حمامة بيضاء بين الحرب والسلام

1 – فندق الشرق : استراحة المقاتلين
2 – فلسطين : مشهد على مسرح عنابة
3 – ثورة بلا بنادق .
4 – سيده فرنسية علمتني العمل .
5 – نجمة الإسكندرية : جحيم في عنابة
6 – حلبي : علمني موسيقى الحزن والفرح .
7 – نيكول : الحب الشجاع الدامع .
8 – عنابي : بين الثورة والحياة
9 – قرية : توقظ شاعر .
10– تعليم بلا جذور

فندق الشرق:
استراحة المقاتلين

- 1 -

فندق الشرق في مدينة عنابة الساحلية، رغم تواضع عدد طبقاته، وطراز معماره الفرنسي القديم، إلاّ أنه كان مقرّاً حقيقياً لكل المشاهير الذين مروا على المدينة أو زاروها، فسجله الذهبي مليءٌ بأسماءٍ هامةٍ من الرجال والنساء زمن الاستعمار الطويل للجزائر، وخاصة زمن الحربين الأولى والثانية. انه قلب المدينة الهادئة المتزنة، وفؤادها النابض بحيوية الناس الذين يرتادون الشارع العريض، بأشجاره المشذبة، والدائمة الخضرة والظلال، المقابل له.

وتستطيع من خلال موقعه اختيار المكان الذي تريد رؤيته حين تجلس في بهوه الرحب الهادئ. وتنتقي الزاوية من الشارع التي تفضلها لقضاء فترة من الوقت مع شيءٍ من المشروب على الطريقة الحديثة المتقنة. رصيفُ الفندق ذاته، والفسحة المقابلة له وعلى امتدادٍ طويل

وعريض. مرصوفةٌ عليها طاولاتٌ وكراسٍ تَتْبَعُ الفندق، والنّادل بحركته الناشطة. يقطع الشارع لإيصال طلبات الزبائن تحت ظلال الأشجار. أو تحت مظلات الأمطار. إذا كان الوقت شتاءَ. في الجلسة الداخلية يخيم الهدوء. فتشعر بالسكينة الروحية، والانضباط الاجتماعي. ورصانة الأحاديث. فكأن الأمكنة تفرض شخصيتها على من يرتادها - وإذا أحببت الجلوس على طاولة الرصيف فكأنك فضلت الحياة في الشارع بكل ضجيج سياراته. وعرباته التي تجرها الخيول، وناسه من كافة النماذج التي لا تخطر على بال (عرب. أفارقة. أوربيون. صينيون وآخرون كثر).

لا يفصلك المسرح البلدي عن الفندق سوى بضعة أمتار فما عليك إلاّ أن تقطع الشارع لتكون أمام درجهِ العريض، ومعماره المسرحي الاوروبي، والميناء لا يبعد عنك سوى دقائق معدوداتٍ. لتكون أمام شِباكِ الصيادين ورافعاتِ تحميل البضائع للسفن الراسية. هذا المعمار الفرنسي يجذبك ويشدك لاختباره. والدخول في عالمه الساحر المليء بأنفاس. وحياة البشر. والانخراط في التفرج. أو المشاركة في الأحداث! كنت مُغرماً بالجلوس في مقهى هذا الفندق. وكان الاختيار محض صدفة لا أكثر. لأني أستطيع اختيار الجو الذي يتلائم مع حالتي النفسية. ومدى استعدادي للمشاهدة أو للحديث. إضافةً لأني تعرّفت على مديره الذي لا يتوانى في كل جلسة (يصطادني) فيها. من حبسي في مقعدي لأكثر من ساعة أو ساعتين أحياناً. وهو يحدثني عن النظرية الثورية المسلحة. التي تحررت بها الجزائر من ألفها إلى يائها - كان يحب القيام بدور الأستاذ الثوري المحترف والعارف بقضايا العصر - متدفقاً. تتوارد

الذكريات إلى ذهنه كشريط سينمائي، فيحكيها منتشياً بالإنجاز الذي حققه شخصياً. وأحياناً بنبرة خافتةٍ وآسفةٍ، وفيها نوعٌ من النقد اللاذع للوضع العام الذي تسيِّر به البلاد!

كان يحدثني كخباز أتقن عمله واحترفه طيلة العمر!

لا مجال للتعقيب أو الاعتراض - بغرض المناقشة فقط - في حديثه، فهو ابن الثورة منذ طفولته، واليوم هو ابن السلطة!؟ وكذلك ابن الريف العفوي الفطري. الذي تنقصه أحياناً (أدب ولباقة الحوار مع الآخر).

وعندما تخطر فلسطين في ذاكرته فإنه يمسكني من يدي بقوة ويدفعني من كتفي بقبضة يده قائلاً: - لا تدع فرصة الانخراط في تنظيمكم الثوري الجديد. انخرط به مهما كان سيئاً! سيصلح من الداخل إذا داهمه الخراب. فلا قيمة للإنسان إلا بالانتماء، ومقارعة المخاطر والصعاب. والانتظار ضارٌّ بالعمل الثوري الخلّاق، وكل ثورة لها عوامل لظهورها وعوامل لقتلها. ولو كان ماخوراً!؟سبابته وإبهامه لا يكفان عن مسد شاربيه في كل لحظة، وارتفاع عقيرته أثناء الكلام لا تغني عن كثرة الإشارات من يديه. عيناه صغيرتان فيهما نوع من الإصرار على المثابرة في الحياة، يتناول لفافة تبغٍ، دون أن يخرج العلبة من جيبه. وفي كل مرة يشعل واحدة، يطلب من النادل تغيير فناجين القهوة بفناجين جديدية ساخنة. وعندما يعتذر عن البقاء فان خطيبته بالانتظار في الطرف المقابل من الفندق ساعتها يطلق سراحي، فأجول في بهو الفندق، قليلاً أو أستنشق هواء الشارع، لأرجع إلى قهوتي التي استبدلت عدة مرات.

أشيّعه بنظراتي حتى يصل إلى الطـرف الآخـر مصافحـاً خطيبتـه، فأحس بالعفوية الطلقة التي يمشي بها، مطوّحاً بيديه على طريقة أبنـاء القرية الذاهبين إلى الحقول والبراري، ثم أحول نظري نحو أبهاء الفندق وأقسـامه، وطاولاتـه، ومكـان صنـع القـهوة، والبـار الصغـير الأنيـق ذو الخشب اللامع البراق، ودرجه المرمري الوهاج، وهـدوء ونظافـة وخدمـة العاملين فيه. وأرى الكثير من الطاولات وقد احتلتها وجـوه لا أعرفـها، فرنسيون وفرنسيات بأناقتهم المعهودة يتبادلون الأحـاديث. أو يتـابعون قراءة الصحف دون أن أعرف مصدر رزقهم!؟.

وبعض أهل البلاد يشربون قهوتهم، ومشروباتهم الأخرى يتبـادلون الأحاديث بأصوات يمكن سماعها عن بعد، ثم يضيق المكان شيئاً فشـيئاً ويتكاثر المرتادون إليه، وتنشـط حركـة النـادلين، وتضج آلـة الصنـدوق بالقرقعة وهي تقطع فواتير الزبائن. بعد كل هـذا، أطلـب القـهوة ثانيـة وأدخن لأستطيع فتح ثغرة بسيطة في رأسي المملوء بالكثير من الأسئلة في غياب الصديق المدير! كأن الثورة حينما يُكْتَبُ لها النَّجاح تُـرْزَقُ بـأولادٍ جانحين. فلا تعرف كيـف ترضـي جنوحـهم هـذا، فتلجـأ إلـى أسـهل الطرق لاكتساب الديمومة والصمـت، فتكـافئ الجيـوب، وتسـد ثغـرات الغرور الفردي. بتوزيـع بطاقـات المنـاصب، والأعمـال دونمـا حسـاب؟ فتكون بذلك قد قتلت نفسها من الداخل، وتبدأ الأخطاء مع مرور الزمـن تبرز على السطح لتمتد بعد ذلـك بعيـداً، فيصبـح المستقبل دون تحديـد واضح، ودون صورة مكتملة المعالم وليس الخطأ أن يكافأ الإنسان. ولكـن الخطأ أن يكافأ في مكان لا يستحقه، ولا يستطيع تحمل مسؤولياته.

لم يكن صديقي المدير يعرف عن الادارة المدنية شيئاً. ولم يدرب يوماً على معرفة مبادئها الأولية.، انه ابن الريف. يصلح للفلاحة والزراعة ويتقنها. وهي بطبيعة الحال تختلف عن زراعة الفنادق، أو المسارح أو المدارس. الثورة ذاتها لم تكن يوماً تدرب مناضليها على إدارة الفنادق الفخمة أو غيرها!؟ ولولا وجود العاملين السابقين في الفندق على رأس عملهم وهم ممن يمتلكون الخبرة الفندقية اللازمة لإدارة العمل، لكانت مكانة فندق الشرق قد أطيح بها مُنْذُ رُفِعَ العلم الوطني فوق سارية الفندق! ولبقيت غُرَفَهْ وأجنحته خاليةً من الزوار. أو هي في حدودها الدنيا. الإدارة علم وفن. ومن الممكن اكتسابهما بقليل من العقل والجهد. واكتساب المعرفة لم يكن يوماً حكراً على أحد. سواء أكان مدنياً أو فلاحياً. في كل مرة أتحدث مع الصديق المدير، تراودني هذه الأفكار فأشرف على الدوار. لأني أبقى صامتاً. والصمت في مثل هذه الحالات ضار بالصحة النفسية.

فأغري نفسي بجملةٍ داخلية تقول: ها هو فندق الشرق يدار بجدارة العلم وفن الخبرة. وليس بالكلمات الثورية المعبأة في بندقيةٍ سريعة الطلقات!؟

فلسطين:
مشهد على مسرح عنابة

((إذا كنت تريدُ أن تكسب أحـدا لقضيتك،
عليك أولا، أن تُقْنعهُ بأنك صديقهُ.))

ابراهام لنكولن

-1-

كانت المرة الأولى في حياتي التي أدعى فيها من قبل جهاز رسمي في دولة لألقي محاضرة! رغم تواضع تجربتي الثقافية والأكاديمية. وتجربتي الحياتية أيضاً. ولم تشفع لي الأسباب السابقة. بل لم تكن كافيةَ لاقناع الآخرين بمدى قصوري على أداء عمل ذي أهميةٍ خاصة ألا وهو الحديث عن أهم قضايا العصر إطلاقاً، -قضية فلسطين- كان كافياً كوني فلسطينياً. يتحدث عن وطنه أمام الجزائريين المستمتعين بلذة الانتصار! وقد دفعني حديث مجموعة من الأصدقاء الجزائريين -وأغلبهم قياديون في حزب جبهة التحرير الحاكم- وكان الحديث مفعماً بالعواطف. والقيم الثورية. التي ما زالت ساخنة وصادقة، في فكر هؤلاء

الأصدقاء. إنـهم يريـدون إدخـال الموضـوع الفلسـطيني في قلـب الحـدث الجزائري. ويريدون سماع القصة من أبطالها وشخوصها -كمـا يقولـون- وبالتالي سيكون أثرها فاعلاً وصادقاً. فليس أجدر من ابـن القضيـة علـى شرحها. وتوصيفها. وتفصيلها، وتحديد عوامل نجاحها وسقوطها. وقد أعلموني بأنهم قد رتبوا المكان والزمان المناسبين لذلك. ومـا علـيَّ سـوى الإنجاز!.

ولكن من جهتي بقيت أسئلةٌ تدور في ذهني. ليس عنـدي إجابـات واضحة عليها؟

مضامين المحاضرة لم تكن واضحة في ذهني لأننـا لا نملـك منـهاجاً نظريا نرجع إليه. فماذا أقول إذن؟ أين هي المراجـع التـي أسـتعين بـها لتوثيق تواريخ الأحداث التــي تعـود إلـى غـور التـاريخ القديـم. وحتـى أحداث العصر الحديث – فلا بد مـن التـاريخ لتوضيـح الحـاضر. وهـذا عمل توثيقي لا يجوز فيه التلاعـب بالكلمـات والصيـغ الإنشـائية التـي تهرب من الحقائق. والأهم هو أنني أواجه أناسـاً صاغوا نظريتهم الثورية بدقة تامة. واستطاعوا النيل من أعظم بلد في حلف الأطلسـي. وحصلـوا على استقلالهم بثمـن قَلّمـا دفعتـه شـعوب مناضلـة أخـرى! فـلا تجـوز المزايدة بقيـم الشـجاعة. والبطولـة. والتضحيـة. والشـهادة. في حضـرة رجال كانوا أسطورة عربية وعالمية في مواجهة الظلم والضعف (الإنساني) البشع.

-2-

بعد جهد شاق وجــدت طبيبـاً سـورياً مثقفـاً يعمـل في المدينـة منـذ سنتين. وقد حمل معه من فرنسا مجموعة كبيرة من الكتب العربية التي

كانت تصدر في باريس. فاخترت مرجعين هامين عن القضية من مجموعته. وقد زودني بملاحظات هامة أعانتني في العمل الكتابي.

قرأت بِنَهَمٍ، وفي كل الأوقات، ودونت أفكاراً وتواريخ على مُسَوَّدَاتٍ صغيرةٍ. ثم استرحت يوماً، بعدها كتبت في أوقات مختلفة، وأيامٍ متباعدة، كتبت كما أعرف، وكما هو الواقع. وكيف يمكن أن يكون عليه المستقبل. وَثَّقْتُ كل حَدَثٍ بدقة، واستعنت بأقوال وآراء مفكرين أجانب وعرب. وقارنت بوضوحٍ بين الحلقتين: فلسطين والجزائر، ومدى الاختلاف في ظروفهما، والأهم أني جعلت من لغتي تعتمد على البساطة والسلاسة في التعبير دون الاتكاء على جدران المحاضر الأكاديمي!.

وقد أخبرني مسؤول الثقافة في الحزب قبل المحاضرة بيومٍ واحدٍ، عن الموعد. وحدد لي المسرح البلدي مكاناً للإلقاء، وقد زودني بصحيفة محلية تصدر بالفرنسية وفيها دعوة عامة لحضور المحاضرة، وقد أَبْرَزَتِ الصحيفة الدعوة بشكلٍ واضحٍ تحت عنوان (فلسطيني يتحدث عن قضيته) ثم شاهدت ملصقات مكتوبة بالفرنسية والعربية، تتصدر الواجهة الأمامية لباب المسرح الواسع. فقد زادتني الاجراءات المتخذة دهشةً وأثقلت مسؤوليتي، والأخوة الجزائريون متلهفون، لأن ذلكم لم يحدث في تاريخهم منذ احتلت فرنسا أرضهم. واعتبروا ذلك انتصاراً لهم وقريباً من المكافأة!؟

وضعت آخر اللمسات على الورق في الليلة السابقة للمحاضرة، وأعدت القراءة. والتثبت من الأحداث والتواريخ، ونمت مسترخياً مطمئناً على ما أنجزت. أتممت عملي المدرسي حتى ساعات المساء، وجلست في المقهى وحيدا، دون أن أراجع شيئاً مما كتبت، الأوراق في جيب

سترتي. وفنجان من القهوة ينشط ذاكرتي، ولفافة تبغ تـهدأ مـن روعـي الداخلي. الذي كنت أخفيه بعيداً عن الناس. وأنا أنتظر لحظة اللقـاء، وها أنا على خشبة المسرح. وراء طاولـةٍ وبجـانبي مديـر المسـرح بأناقتـه المترفة. وبلغتيه العربيــة والفرنسـية يقدمنـي إلـى جمـهور مشـدود إلـى المشهد الثقافي المجهول! ينفذ الضوء قوياً على الأوراق أمـامي. وأرى مـا كنت أخشاه! الامتلاء. والكثافة البشـرية. والصمـت القـاتل!؟ وأنـا مـا زلت طفلا يحبو نحو الثقافة والمثقفين. وطفلاً يحبو نحو وطن من أخطـر الأوطان وأشدها ألغاماً. واشدها تأثيراً على مستقبل السلام في المنطقة.!

- 3 -

مضت الثواني والدقائق الأولى متأنيةً بطيئةً. واتبعت آدب مواجهة الجمهور بلباقة فرضها الجو. وفرضتـها الأفكـار المكتوبـة علـى الـورق. وارتكزت على وضوح الفكرة. وتركيزها، دون الدخول في تفاصيل مملـة. لم أمثل دور الاستاذ. ولم ألعب دور الممثل القادر على التلاعب بمشـاعر وعواطف الجمهور ولم استخدم أسلوب الخطابة المباشرة. وهو المهم الذي استطعت من خلاله تقديم أفكار قابلة للمناقشة والحوار. وقابلة للاستماع إلى وجهة النظر الآخرى.

وجاءت الخاتمة هادئة ومتزنة ومليئة بالتسـاؤلات!؟ وشـعرت بـأن لديّ القدرة على المتابعة، والاغناء دونما قراءة، ولكني ختمت متوقفاً عند سؤالٍ مُحَرِّض. وهو كيف ينظر الجزائريون إلى الموضوع؟ وما هي وجهة نظرهم فيه؟ بعدها أجبرني التصفيـق المتواصـل علـى الوقـوف. وعينـاي مرطبتان بالدموع. تحت تأثير هذه المشاعر الحادة.

لقد جعل الموقف المسرح الذي أقف عليه، وبجانبي مديره محراباً يلتقي فيه فضلاء البشر. لم يكن التصفيق وقتها سوى مهمازاً يدفع عقلي نحو الاتزان. دون أن يكون هدفاً لإشباع غرور أو صلف. مدير المسرح يصافحني بحرارة تشبه حرارة الحضور الذي ربما أشبع الكلام جوعه للمعرفة!؟

ويدخل بعدها الحوار الدافئ دائرة الضوء، مع رغبة عميقة لدى الحضور، لمعرفة أدق التفاصيل عن قضيةٍ لم توضع ملفاتها أمام العالم، بل هي محفوظة في أرشيف الأمم المتحدة منذ عام 1947. لقد استعنت بالأرقام التي كنت قد دونتها على هوامش أوراق المحاضرة (المساحة، الحدود، اللاجئون. المنظمات، الانتماءات....)

ولقد أغنى الحوار. الزملاء السوريون بمداخلاتهم القيمة، مما عزز ثقة الحضور بمصداقية ما سمعوا، وقد تأكد لهم صدق التوجه الفلسطيني والعربي نحو قضيته. وعرفوا مقدار الاختلاف والتلاقي بين ثورتي الجزائر وفلسطين. من حيث الظرف الجغرافي والظرف العربي والعالمي.

وَدَّعَنا الجمهورُ بعاصفةٍ أخرى من التصفيق، بعد أن عانقني هذه المرة مدير المسرح. انه المشهد الحقيقي الذي يثير الاعتزاز بالنفس. والثقة بالوعي الجماعي للشعب الجزائري، الذي يحتم على الإنسان التواضع في المواقف الكبرى.

لقد أظهر اللقاء مدى استعداد الآخر للانخراط في دعم القضية، بكافة الوسائل المكنة والمتاحة، لأنها إحدى قضايا التحرر الوطني والقومي. والأكثر قداسة لدى شعب الجزائر، وحتى هذا الوقت بقيت

القضية الفلسطينية على جدول دول العالم كلها. وستظل كذلك. لأن الصراع العرب الإسرائيلي صراع تساؤلي (من الذي يملك التاريخ الحقيقي للمنطقة؟؟). وقد ظلت الأسئلة التي طرحها الجزائريون في ذلك الوقت مطروحة على الساحة حتى الآن، وتحتاج إلى وقت طويل للإجابة عنها. ولكنها أسئلة مشروعة تدل على ذكاء ثوري ورؤيا ثاقبة تسبق زمانها!؟...

ثورة بلا بنادق

- 1 -

سيارة من طراز فرنسي حديث يترجل منها شخصان، وقفت جانب الرصيف المقابل للمقهى، حيث كنت أطالع الصحف المصرية. التي كانت تصل متأخرة إلى عنابة ثلاثة أو أربعة أيام، ولكنني كنت أجدها كَنزاً آتياً من الشرق، وَصِلَتُنا الوحيدة بالأحداث البعيدة عنا، الأول مسؤولٌ رفيعٌ في جبهة التحرير الجزائرية، التقيته عدةَ مراتٍ، وأعرفه عن قرب، والآخر شَرقيُّ الملامح آراه للمرة الأولى، لمحتهما للحظات، وبعدها عدت لمتابعة ما قرأ، ولكن المسؤول الجزائري أشار بأصبعه نحوي فأتجه الاثنان نحو طاولتي وابتسامة ودودة منطبعة على وجه الأخ الجزائري، طويت الصحيفة، ونهضت مستقبلاً الضيفين، تصافحنا بحرارة، وتبادلنا بعض عبارات المجاملة، قدمني بعدها السي مصطفى للضيف، الذي ظل ممسكاً بيدي وشاداً عليها، وجملٌ من الاطراءِ تَنْصَبُّ فوق رأسي دون أن أفهم سبباً لذلك، ثم تولى السي مصطفى ثانيةً تقديم الضيف (أبو مروان) المسؤول الثقافي في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية،

الذي أفتتح مؤخراً في الجزائر، فأردف السي مصطفى قائلاً : هانحن نعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية قبل ولادتها، ونفتح لها مكتباً تمثيلياً في الجزائر. كان سروراً مفاجئاً لا حدود لوصفه بالنسبة لي.

-2-

جلسنا ثلاثتنا حول طاولة واحدة. ينتظر كل واحد منا أن يقول شيئاً للآخر. وأبو مروان بعينيه الثابتتين في محجريهما ينظر إلي وكأنه يود أن يكتشف شيئاً جاء من أجله، كان طويل القامة متناسقاً يأخذ شارباه الكثيفان جزءاً كبيراً من أسفل وجهه، شعر أبيض يغزو رأسه بقوة. وبعد أن قدم النادل القهوة للضيوف وتذوقوها. كسر (أبو مروان) الصمت المخيم على الجلسة، مشيداً بموقف الجزائر، ومبادرتها الشجاعة لفتح المكتب. بعدها عَرَّجَ على المحاضرة التي كنت قد ألقيتها قبل أسبوعين. مستخدماً لهجة أهل الجنوب الفلسطيني في الحديث، كأن منطلقا في حديثه يُدْخِلُ جُمَلاً ذات دلالات ثورية حماسية بشكل متقن. ويوظف عبارات الاشادة الشخصية، للدخول إلى شخصية الأخرين المقابلين له. لم يتدخل السي مصطفى في مجريات الحديث ولكني أحسست أن الموضع يتعلق بي شخصياً، فأضطررت معتذراً للمقاطعة بجملة اعتراضية واحدة : ماذا تريد مني بالضبط!؟

– يريد منك متابعة نشاطك على هذا الصعيد لأنك خلقت جوا جديداً في المدينة، ويريد أن يمتد بصورة أعرض، يريد مشاركة شعبية في مثل هذا العمل. قال السي مصطفى.

– يا سيدي أنا والآخرون على أتم استعداد لتقديم كل الحقائق اللازمة، وشرح كافة الأحداث، والصعوبات، والمعطيات الجديدة، التي

تمر بـهـا القضيـة الفلسطينية. ولكـن دون أن يتعـارض هـذا مـع عملنـا التربوي الذي نحن هنا من أجله.

هزّ (أبو مروان) رأسه علامة الموافقة وبدى منشـرحاً وتـابع بعـد أن استأذن السيد مصطفى.

– جبهة التحرير الجزائري دعت لاجتماع شعبي عام مـع كوادرهـا الحزبية لتشرح قضيتنا أمامها ولتبارك افتتاح المكتب الأول في العاصمـة. وافق السي مصطفى على ما قاله (أبو مروان) وأضاف معقباً.

– ثورتكم تحتاج إلى الكثير من الفهم أولا، والكثير من الدعم ثانياً، ونحن من واجبنا أن نقدم الحقائق لأبناء شعبنا وكوادرنـا. والدعـم ليـس صعباً أو مستحيلاً على أبناء الجزائر. باختصار ياسي محمد ستكون غـداً جـاهزاً في المسـرح البلـدي، وستلقي كلمـة في الحضور فوجـهك أصبـح مألوفاً!؟

قلت واجماً: أخواني حقاً أنا لا أجيد الخطابة فماذا أفعل؟

– أنا متأكد يا أخ محمد بأنك لست عبد النـاصر! ولكنـك ستشـيع جواً حاراً في الجماهير، لأنك ستتكلم بصدق وعفويةٍ، والشعب الجزائري لا تنقصـه صـدق قضايـا التحـرر ومتطلباتـهـا، دون صياغـات رنانـة، وشعارات براقة. كن طبيعياً وتكلم من القلب، وهذا يكفي!

– 3 –

استهلكنا الكثير من فناجين القـهوة، والكثـير مـن لفافـات التبـغ، وتحدثنـا بـأمور عامـة، ولكنـي ركـزت بطبيعـة عملـي، علـى الوضـع التعليمي. وقد تقبل السي مصطفى كل الملاحظـات، والانتقـادات، التـي

قيلت خلال الحديث بل أضاف شرحاً وافياً لتاريخية الأشكال التربوي، مدعماً حديثه بالكثير من الاحصاءات مما أضفى على الجلسة الكثير من الموضوعية والاتزان.

استأذنت بالرحيل عند الحادية عشرة ليلاً. لأن التأخير سيقطع علي ركوب الحافلة. تصافحنا وخرجت. تاركاً (أبو مروان) ضيفاً على فندق الشرق لأنه ملك الدولة. اليوم التالي كان حقاً (يوم فلسطين) حشود غفيرة من المواطنين تتوافد على مسرح المدينة المزدان بأعلام فلسطين والجزائر – وتلك هي المرة الأولى – وحشود أخرى من البعثات التعليمية المشرقية تتزاحم على الأبواب المشرعة، وكانت جامعة الدول العربية قد افتتحت في هذا المكان. وفي هذه الليلة الصاخبة، دون دعوات رسمية!.

عاصفة التصفيق المتتالية والتي تصم الآذان أجبرتنا على الوقوف لبضع دقائق كنت وأبو مروان محاطين بمسؤولي الحزب وأحد الفرنسيين! وُضِعْنا في وسط المعمعة –كما يقال– وجلسنا. ثم أُلْقِيَت الكلمات بالتتالي. وكانت تهز مشاعر الحضور من الأعماق. فتعالت الهتافات لفلسطين الوليدة. فلسطين موطن القدس الشريف. الذي يحب الجزائريون تأكيدها في كل كلماتهم. لقد خاطب المسؤولون شعباً يعرف كل عبارة. وكل كلمة مما يقال. فهو أستاذ في فن حب الحرية والاستقلال.

– 4 –

كنت المتكلم الأخير. ولاحظت أني كنت المشاغب الأكثر انفعالاً وتفاعلاً مع الحضور وكانت بعض آيات القرآن الكريم جاهزة في ذهني وقد استطعت استخدامها في موقعها من الكلام، دونما تكلفٍ أو اكتسابٍ

لرضى الحضور. ودغدغة مشاعره الدينيةَ، كان السِّياقُ مفـهوماً وواضحـاً فهللت الجماهير. وكبرت، لتعظيمها وتقديسها لكلمات الكتاب المبين.

التي سارت على هديـه في مسـيرة نضالـها الثوريـة. ونـالت بذلـك حريتها ومساواتها أمام شعوب الأرض.

كان اللقاء عرساً فلسطينياً جزائرياً سيعمد مستقبلاً بالكثير من الدماء الطاهرة من الشعبين. لقد بقيت الجمـاهير خـارج المسـرح تـهتف بحيـاة فلسطين و(ثورتها) حتـى فرقـها الـهزيع الأخـير مـن الليـل، صـافحني مرافقنا الفرنسي ذي المشية العرجاء بقوة وتحدث بأدب جمّ وبالفرنســية قائلاً:

– أنا متأكد بأنكم ستنتصرون في نهاية المطـاف ! فـالحق القـانوني إلى جانبكم. قضيتكم مشروعة ولكنها مخبـأة، فمـا عليكـم إلا إظـهارها على الملأ وستأخذون حقكم من تأييد شعوب كثيرة في العالم.

شكرته على كلماته. وعرفت من السي مصطفى بأنه أحد الفرنسيين المناضلين في صفوف الثورة الجزائرية وعضو الحزب الشيوعي الفرنسـي، أصيب خلال الثورة بطلقات نارية أدت إلى بتر ساقه!؟

إنه إحدى الحالات الإنسانية والعقلية التي أفرزتـها ثـورة الجزائـر فجعلته واحداً منها!

وفي اليوم التالي كانت المفاجأة ! فقد أعلمنــي الســي مصطفـى بـأن آلاف الجزائريـين اصطفـوا أمـام مكـاتب الحـزب، وسَــجّلوا أســماءهم كمتطوعين للقتال في فلسطين. لقد خلقتم حالةً من الهياج الثوري، كـان خامداً ومستريحاً. وقد اضطررنا إلى فتح سجلات بذلك. قالـها بضحكـة هادئة ودودة.

طفرت دموع حارة من عيني - كحرارة إيمان الناس بقضية فلسطين. فنحن لم نطلب منهم شيئاً. شرحنا لهم فقط واقعنا واهدافنا. ولكن الحس النضالي الثوري والشعور الديني العميق تجاه المقدسات دفعهم لمثل هذا العمل. لقد اعتبروا أن ثورتهم تبقى بلى معنىً، إذا بقيت أرض عربية واحدة. دون تحرير واستقلال. وأضاف السي مصطفى وكان متأثراً مثلي : كما قلت لكم سابقاً فإن شعبنا لا يعرف الحلول الوسطى في العمل الثوري - فأما أن تكون ثائراً حقيقياً دون زيف. وأما أن لا تكون رجلاً : بعدها لا تستحق الحياة، ولا تعرف طعم الموت.

تمتمت في داخلي متسائلاً : كم هي سهلةٌ الخطابات الثورية النارية !؟.

وكم هو صعب أن تكون ضمن الخطاب وتحققه !.

سيدة فرنسية علمتني حب العمل

(لمْ أتجرّأْ على التّطلّع إليـها، لأنـها جميلـة وفارعة، وأنا لسْتُ وسيما، ولا طويل القامة)

الفنان الفرنسي تولوز لوتريك

- ١ -

سيدة فرنسية في الخمسين من عمرها تقريباً، باسقة القامة، ممتلئـة الجسد. بشرتها بيضـاء مشربة بحمرة وردية، تربط شعرها المصبوغ بالحناء. بمنديل صغير أسودَ اللون. يضفي على وجهها – بعد أن تعقد شعرها إلى الوراء – شكلاً مضيئاً، تلبس مئزراً مدرسياً، سماويّ اللون يغطي ركبتيها الجميلتين! وتنتعل حذاءاً نسائياً قصير الكعب، لا يُسْمَعُ له صوت أثناء المشي. إنها كتلة بشرية متحركـة، عابسة حين تفكر، وباسمة حين تتكلم. منضبطة كساعة جدارية في باريس أو لندن، لا تعرف أثناء العمل الحلول الوسطى، العمل بالنسبة لها شيء مقدس

يجب احترامه، ويجب ضبط مواعيده. إنها مديرة المدرسة الابتدائية للإناث في غرب عنابة. والتي تحوي في صفوفها أكثر من خمسمائة تلميذة. من السادسة حتى سن البلوغ، والمدرسة ذات بناء على النمط الفرنسي القديم. صفوفها رحبة، وعالية، نوافذها متعددة وواطئة، تجعل الصف كأنه في ضوء الشمس، مهما أظلمت الدنيا في الخارج أثناء فصل الشتاء المتجهم.

كنا أربعة معلمين، ثلاثة من الشرق، والآخر جزائري في سن متقدمة، يبدو عليه وقار المدارس الدينية يلبس (كلبكاً) على طريقة أهل الهند. وكانت الفتيات في المدرسة يقبّلن يده في الصباح وينادونه بـ (سيدي). اضافة إلى ست معلمات. غالبيتهم من الفرنسيات، عدا شابتين جزائريتين غاية في الحداثة، والنشاط المدرسي، بينما الفرنسيات قد تجاوزن العقد الثالث من العمر، ولهن تجارب طويلة في الميدان التربوي سواء في فرنسا أو الجزائر نفسها، والحق يقال بأن الفرنسيات كن الأكثر احتشاماً وانضباطاً فالسن يفرض نفسه في مثل هذه الحالات.

وخلال عامين دراسيين من العمل. لم تقع حوادث تذكر في المدرسة، سوى بعض المشاغبات من الفتيات الكبار ذوات المراهقة المبكرة. واللواتي يعتبرن الاستقلال الشخصي، حالة يجب الاعتراف بها. من قبل معلم أو معلمة، ولكن الحادث يسّوى داخل الصف دوماً. عندما تأتي (مدام سانس) – المديرة – يكون كل شيء على طبيعته، فشخصيتها ومدى عمق تجاربها في مثل هذه الأمور تجعل الحل في متناولها سريعاً.

- 2 -

كانت (مدام سانس) رقيقةً معنا - نحن الشرقيين - وصبورةً إلى أبعد الحدود، تتكلم العربية الدارجة وزوجها أيضاً، لأنهما من رعايا الجزائر. فهم من الذين لم يتركوا أرضها نظراً لانتمائهم اليساري المناصر للقضية الجزائرية في أواخر أعوامها، وهي بالتالي وليدة الجزائر وزوجها أيضاً.

والحق يقال: رغم خبرتنا في التعليم. وقد تكون قليلة عند بعضنا - فإننا وجدنا أنفسنا أمام جو تعليمي جديد وحديث وفعّال إلى أقصى الحدود. لا توجد فيه ميوعة الملل واللامبالاة، ولا تنقصه الأدوات اللازمة لكي يكون ناجحاً!.

في مطلع العام الدراسي دعتنا لاجتماع في غرفة الادارة، وتحدثت بمعرفة وعمق. عن الصعوبات التي ستعترض طريقة عملنا. ومع ذلك لا بد من تجاوزها. إذاً تعاونا معها بشكلٍ منطقي ومنظم، وأوجزت طريقة العمل كالتالي: فالوقت في المدرسة شيءٌ لا يمكن التلاعب أو المس به.

الحضور الصباحي، والانصراف، والاستراحات بين الحصص الطويلة من مهمتها هي فقط!. وتحضير الدروس برأيها لا يتم، بهذه الطريقة التقليدية التي نسير عليها، فليس هناك ما يسمى دفتراً للتحضير تسوّد فيه كل يوم صفحة أو صفحتان، هناك طريقة دقيقة لكل مادة. تضاف إليها بطاقات متفردة للمادة الواحدة مشبعة بروح المضمون وتفصيلاته. هذه البطاقة المفصلة، هي دليل المعلم أثناء العمل الصفي. محددة بالدقائق، ومرفقاً بها الوسائل الايضاحية المتوفرة في المدرسة

-سمعية أو بصرية- وعلينا أن نكتب ما نريد منها كل يوم حسب المنهاج لليوم التالي. لتعمد على توفيرها لنا، وتضعها في فصل كل معلم وعلى طاولته في بداية دخوله للصف.

وكانت تصر وتؤكد دائماً، بأن المرحلة الابتدائية ليست مرحلة الالقاء، والاصغاء، والكتابة فقط، أنها مرحلة الحوار، والمشاهدة العيانية. والتجربة. وتدوين النتائج على الكراسات، وتقويم العمل كل نصف ساعة، بشكل كتابي لا مشافهة فيه، وبناء على ذلك فالخروج من الفصل أثناء العمل سلوكٌ مُحَرَّمٌ، لا يجوز التساهل فيه.

-3-

في السابعة صباحاً من كل يوم تكون (مدام سانس) على رأس عملها. كل شيء لطيف ومرتب في المدرسة، وسائل الإيضاح، موضوعة على طاولات المعلمين والمعلمات في صفوفهم. تستقبلنا صباحاً مصافحةً. وعندما تطمئن على وجود النصاب الكامل، تنصرف إلى أعمالها في غرفة الادارة، التي نادراً ما يحتاج المعلم أو المعلمة للدخول إليها -إلاّ لسبب قاهر وشخصي- إنها سيدة الموقف، والمرجع الأول والأخير في مجال إدارة العمل المدرسي. ولكنها لم تتدخل في العمل الصفي لأي معلمة أو معلم إطلاقاً -إلا حين يطلب منها ذلك- ولم تكن تسمح لأي زائر للمدرسة -حتى ولو كان موجهاً تربوياً- أن يقاطع معلماً أو معلمة في سياق الحصة والعمل. وكانت تعمد في أكثر الأحيان، إلى أخبار المعلمة أو المعلم بحضور الموجه، مع تحديد المادة، وتحديد الزمن. وكان الموجه بعد الانتهاء، من حضور الحصة والتدقيق الفاحص إلى أبعد الحدود في أوراق العمل الصفية للمعلم (التحضير) ومراقبة دفاتر التلاميذ الصفية

والمنزلية. مسجلاً ملاحظاته على دفتره، يضطر إلى انتظار الاستراحة. وحضور مدام سانس لمناقشة المعلم أو المعلمة أمامها، ومناقشة الملاحظات التي دونها في دفتره مع المعلم أو المعلمة. وكانت بدورها تدون بعضاً منها. كي تستطيع متابعة توجيه المعلم أو المعلمة، بالاتجاه الأسلم للعمل تفادياً للوقوع في الأشكال التربوي نفسه في مرة قادمة.

لقد علمتني مدامس سانس جدية العمل التربوي وخطورته وقدسيته. وقدمت لي نموذجاً للإداري المتصف بالنزاهة والانضباط، وتفسير التعليمات دون مواربة، أو تهرب من المسؤولية.

كانت مؤمنة بشكل دائم بأن المدرسة الجزائرية تحتاج إلى المزيد من الجهد والعرق. والكثير من الأطر التربوية، المتمكنة والمؤهلة، كي تستطيع النهوض. واحياء الهوية والشخصية التربوية الجزائرية، وإدخالها في المعترك الحضاري العالمي ذو الاتجاه العملي. وبرايها أن النهج التربوي الحالي هو: وليد مدرستين متصارعتين. المدرسة الفرنسية بتراثها التربوي الحديث القائم على العلوم التطبيقية، وعلوم النفس والاجتماع. والذي أثبت جدواه في تكوين الأمة الفرنسية بأسلوبها المتميز. والمدرسة العربية الإسلامية بتراثها التربوي الغني. ولكنه تقليدي في مسلكه ومضمونه. فهو بحاجة إلى الإحياء من سبات القرون الماضية التي كان مدفونا في تربتها وظلامها.

لقد ظللت طيلة حياتي العملية على الساحة التربوية، سواء أكنت في الجزائر. أو في مدارس اللاجئين الفلسطينيين العرب في سوريا (أونروا) أميناً على تلك المبادئ التي تعلمتها من تلك المرأة النموذج، التي تعتبر العمل المتقن هو: جوهر الإنسان المتحضر. ولا يكون العمل متقناً إلا إذا

كان الإنسان انضباطياً. يحترم القوانين، والأنظمة، ومتابعاً نشطاً لكل ما يجري من تطوير في ميدان التربية. فالمدارس التربوية متعددة الأساليب والمضامين والنتائج. فلا بد والحال كذلك من البحث الدائم عن الأسلوب الأكثر اتساقاً مع ظروف، وطبيعة التراث الثقافي والاجتماعي لكل بلد وأمة. فالمدارس هي مصانع الأمم والشعوب، وكلما كان رواد المصانع مشبعين بروح العصر المغامرة والمبدعة كلما ارتقت الأمم والشعوب.

حيال ذلك أقبلت على إعداد تكوين مفهوم حسّي التربوي من جديد. وتحديث مفاهيمي التربوية، وأساليبي التقليدية، التي كنت و- كل المشرقيين أمثالي- نتبعها في مسلكنا التربوي. شعرت كم كنا كسولين وخاطئين. ومحترفي مهنة لا يمكن الامساك بها من كل جوانبها: إلا إذا أحسست بالعشق والهواية لهذا النوع من العمل الخطير. لأنه يمس حياة،وسلوك. وعقل الآخرين، وهو أخطر ما يمكن القيام به!

- 4 -

استأذنت (مدام سانس) يوماً وكان لدى حصتان للاستراحة بالدخول إلى صف مدام (مارلين) التي تعلم الصف الأول فسمحت لي بالدخول (كزميل) وكنت أرى مدام مارلين - رغم هدوء مظهرها الخارجي واتزانها. مثالاً للمربية القلقة حسب تصنيف فيلسوف التربية الفرنسي (رونيه أوبين) وكنت أعجب، وأنا أرى صفها المقابل لصفي بمدى الحيوية والنشاط، وكثرة العمل وتنوعه، الذي تمارسه مع طالباتها الصغيرات.

رَحَّبَتْ بي (مدام مارلين)، واستأذنتها الجلوس في نهاية الفصل، بجانب صغيرتين جدا (وردة وفاطمة) وبعدها تجاهلت وجودي كلياً

واستطاعت خلال 120 دقيقة أن تعطي ثلاث مواد مقررة – وهذه طريقة المنهج الفرنسي – ابتدأت بالرياضيات الحديثة – كما كانوا يطلقون عليها في ذلك الوقت – وكان الجمع أو ضم المجموعات بالمصطلح الحديث هو موضوع درسها، فالرياضيات الحديثة كانت قد أدخلت المدارس الفرنسية منذ ذلك الوقت لأن بانيها ومؤسسها هو رياضي فرنسي. ونحن في بلادنا لم نكن قد سمعنا بها إلا بعد عشر سنين من تطبيقها في تلك الدول. كانت التلميذات الصغيرات متفاعلات في درس اعتمد على المحسوسات. والرسومات. والبيانات، التي قدمتها المعلمة وفي خلال ثلاثين دقيقة. كانت أهداف المعلمة قد حققت وأنجزت من خلال تدريبات جماعية على الألواح الحجرية على طريقة المربي (لامارتينيير) فلم تكن حاجة المعلمة متابعة كل تلميذة بصورة منفردة عند حل التمرين. ولكنها بهذه الطريقة استطاعت مشاهدة النتائج جماعياً وبدفعةٍ واحدة، وبقليل من التشجيع. والحل، كانت التلميذات يعدن الحل بطريقة سليمة.

ثم نقلت العمل التطبيقي إلى دفاتر العمل اليومية الصفية. التي وزعت على الصف خلال ثوان بطريقة المناولة. رفعت المعلمة لوحة كبيرة تحوي عشر تدريبات. مكتوبة بأساليب مختلفة وطلبت حلها على الدفاتر بمدة لا تتجاوز الخمس دقائق جمعت بعدها الكراسات للتقويم البعدي.

وزعت مدام مارلين الورق المقوى بأحجام صغيرة مع علبة ألوان الباستيل وعلبة من المعجون الطري وطلبت من التلميذات كتابة الأرقام والإشارات التي عرفوها على الورق وإعطاء لون مختلف، حتى دون

ترتيب أفقياً أو عمودياً ولهم حرية إعتماد طرق أخرى للوصول إلى المطلوب.

كانت مدام مارلين تتحرك بين الصفوف تخاطب الصغيرات بكلمات متقنة، وبعبارات تشجيعية. استعادت الصغيرات الضحكات والابتسامات الهادئة عندما بدأن يشكلن تمارين من المعجون

وهو المادة الأكثر التصاقاً بملمس الإنسان– أشكالاً من الأعداد الرياضية، وتمارين لم توجد في الكتب المدرسية بعد، ومدام مارلين لا تملك إلا الابتسام، والتشجيع. لكل ما تراه عارضة أحيانا على الصف عملاً خلاّقاً ذو قيمة ! ولا يمكن وصف مثل ذلك العمل إلا أنه عمل جماعي يرقى بالإحساس للجمال!

تركت مارلين الرسومات للأطفال للاحتفاظ بها في الدفاتر، وانتقت عدة أعمال عرضتها على لوحة الصف، كأعمال جيدة ومبدعة. كان فرح التلميذات غامراً ودون ضجيج أو انفعال زائد.

وبسرعة ساد الهدوء الصف ثانية، عندما بدأت مارلين تروي قصة قصيرة لم تتجاوز مدتها الخمس دقائق، بلغة سهلة وبديعة، وجسدها كله يتحرك معبراً عن المواقف كممثلة محترفة للمسرح. أتْبَعَتْ ذلك بأسئلة تقويمية، لتتعرف من خلالها مدى استيعاب التلميذات لمضمونها وأشخاصها، وأحداثها. ثم طلبت وضع كتب القراءة وفتحها على صفحة الدرس الجديد. ثم أتاحت للتلميذات فرصة النظر، والتعمق في صور الدرس وملاحظة التفاصيل بدقة، ثم ثُبّتَتْ نفس لوحة الكتاب مكبرة وبنفس الألوان على السبورة الخضراء، وبدأت تحاور التلميذات بأسئلة قصيرة ومحددة، مركزةً على الأشخاص، وحركاتهم، والأشياء، ومواضعها وفائدتها. وربطت الإجابات بالقصة التي سردتها في البداية

وتوصلت أخيراً إلى الطلب من التلميذات قراءة الجمل القصيرة الملاصقة لكل صورة. وقد استطاعت أكثر التلميذات من القراءة بشكل متقن.

كانت (مارلين) تعلم حرفاً جديداً للتلميذات من خلال (الطريقة الجملية) المناسبة للقراءة الفرنسية ثم حللت الجمل إلى كلمات، واستخرجت من الكلمات الحروف الجديدة، بعد مشاهدته ولفظه وطريقة كتابته. بعدها بدأت الألواح ترتفع وتنخفض، بناء على تعليمات المعلمة. والتلميذات في غاية الحركة والنشاط، ثم استطاعت من خلال الاستنباط أن تجد كل تلميذة كلمة تحوي الحرف الجديد. وكان ذلك ممكناً. وأخيراً انتقلت إلى تقويم النتائج كتابياً على دفتر العمل الصفي الذي وزع بطريقة آلية محببة.

لقد مضت المائة والعشرون دقيقة دون ملل واضح على عناصر الصف. وقرع جرس الاستراحة فخرجت التلميذات بحرية منظمة رغم كثرة الأعداد للاستراحة. ولكن مارلين قالت لي : لن أستطيع تقويم ما قمت به إلا في البيت. عندما آخذ الدفاتر الصفية وأعمل على إصلاحها، ساعتها تظهر نتائج العمل بشكل أدق. وعلى ضوئها أقوم بالإعداد ليوم جديد مراعية أي ضعف أو خلل ظهر أثناء التقويم. كان صف مارلين محترفاً لرسام أو مَثّال أكثر من كونه قاعة للتعليم. وكل ذلك من صنع الأطفال أنفسهم مع لمسة جمالية من ذوق مارلين في ترتيب الأعمال وتوظيفها. كان مكاناً محبوباً للأطفال يغريهم للبقاء فيه. والاستمتاع بالقصص واللعب والشعور بالأمان دون ضغط أو إكراه. كان صفاً حديثاً ذو فعالية عالية الإنتاج التعليمي الهادف والناجح بكل مقاييس ذلك الزمن ولقد كررت الزيارات لدى الكثير من الزميلات مركزاً على الصفوف الدنيا. لأنها برأيي أساس العمل التربوي كله. لم أشعر

بالخجل وأنا أرى نفسي أحاول إعادة التكوين، والممارسة، والتطبيق فأنا أعتقد من خلال ممارستي: أن إدارة الصف فن يعتمد على الأسلوب وعلى المقدار الثقافي الذي يملكه وعلى اتزان شخصيته ومرونتها مع الملائمة الكاملة والقابلية لتطبيق المنهاج، ويبقى في النهاية عامل الأسلوب هو الحكم الفصل في الوصول إلى نتائج أفضل. ومعلومات أكثر عمقاً ونفعاً.

-5-

كانت مدام سانس أول من يأتي وآخر من يخرج من المدرسة برفقة زوجها الذي يعمل مديراً لمدرسةٍ ثانويةٍ في عنابة أيضاً يحملها بسيارة (الستيروين) الصغيرة ذات الحصانين. في نهاية الدوام المسائي.

ولكنها تبقى في المدرسة عند الظهيرة فلا تغادرها، لتتناول بعض الشطائر المحضرة في المنزل مكتفيةً بها. وبكوبٍ من القهوة تصنعه بنفسها في مخبر المدرسة.

صار العمل بالنسبة لي ممتعاً، رغم صعوبته، وأصبح التحضير لليوم التالي يأخذ مني وقتاً وتركيزاً شديدين، وفي كثير من الأحيان كنت أضطر للبقاء في المدرسة مع حارسها الليلي، كي أنجز تصحيح كراسات العمل اليومي للتلميذات، لأنه ليس ممكناً حملها للبيت كل يوم وإعادتها دون وسيلة تنقلني، وأنا لا أملكها. كنت أحاول أن أتعلم شيئاً جديداً -ولو بسيطاً- من الغير في ميدان العمل وأتابع بعض الدورات التي تقام للمعلمين الجدد لتأهيلهم كمعلمين دائمين -دون أن أكون مجبراً على ذلك- وأيقنت كما أيقن غيري من المعلمين الشرقيين، أننا بحاجةٍ ماسة لإعادة التأهيل، من الوجهتين المسلكية، والتطبيقية.

والتعرف على التربية الحديثة وطرقها، وأننا كذلك بأشد الحاجة إلى إتقان لغة أجنبية واحدة على الأقل – ليس فقط – من اجل التحدث بها في الشؤون اليومية العادية، بل لمتابعة ما يصدر من الكتب، والنشرات والدراسات. والمقالات. وقر ائتها من مصادرها الأصلية، فالكتب التربوية المترجمة غالباً ما تأتي متأخرة سنوات عديدة من بدء صدروها وفي أحيان كثيرة كانت كتباً تربوية غاية الأهمية يغفل عنها المربون والمترجمون العرب. فتبقى في طي النسيان.

إن الكتب التربوية المترجمة في العالم العربي والتي كنا نتخذها مراجع هامة كانت تترجم وتطبع في القاهرة وعلى أيدي مثقفين مصريين ومربين مصريين خريجي الكليات الإنكليزية. فكانت المدرسة التربوية الإنكليزية. هي السائدة في ذلك الحين علماً بأن التربية لا تخص بلد بعينه فالمدرسة الفرنسية والألمانية والسويسرية وحتى الأمريكية لم نكن نعلم عنا إلا تعريفاً بمدارسها. وتاريخ حياة فلاسفتها.

وعلى الرغم من زحمة السنوات التي باعدت بيني وبين (مؤدبتي) (مدام سانس) فلا زلت اذكر قول الأسكندر عندما سؤل: ما بالك تعظم مؤدبيك أكثر من تعظيمك لأبيك؟ فقال: (إن أبي سبب حياتي الفانية، ومؤدبي سبب حياتي الباقية!) لقد علمتني – وانا اعترف بذلك – بأن الحياة التي لا يتوافق فيها السلوك مع المبادئ بطريقة عادلة. إنما هي حياة غبية.

نجمة الإسكندرية:
جحيم في عنابة

(إنّ مأساة الحروب ... أنها تستخدمُ أفضل
ما في الإنسان لإحْداث أسْوأ ما يُصيبُ الإنسانْ!)

إيمرسون

-1-

رواد المقاهي يعتادون على رؤية وجوه بعضهم البعض. يُكَوّنونَ صداقاتٍ عفويةٍ، ويحيون بعضهم دون أن تتلامس أياديهم. ودون أن يعرفوا الأسماء. ولكن الأشكال تظل في الذاكرة كالظل، فتحفظ التصرفات أيضاً. ومع مرور الوقت، يصهر هذا المكان الضيق في العالم. الأشخاص في بوتقةٍ، ومناخٍ واحد، موقع الجلسات يبقى محجوزاً لأصحابه! إلاّ ما ندر. حين يزور المقهى زائر عابر، فانه يختار المكان الذي يريده ويراه مناسباً له. وبذلك تختلط العقائد والجلسات، ثم لا تلبث أن تعود لحالها حينما يغادر الزائر الجديد.

ورغم كثرة الأجانب في عنابة، ورغم ارتيادهم لهذا المقهى، إلا أنهم لا يطيلون الجلوس فيه. ولكن زائراً أجنبياً واحداً. اعتاد مساء كل يومٍ أن يحييني بلغة فرنسية ممزوجة برطانة أميركية. وكان نزيل فندق الشرق ومقهاه الذي نرتاده –متابطاً دفتراً كبير الحجم، ومحفظةً جلديةً صغيرة، ورائحة التبغ الفواحة اللذيذة تنبعث من غليونه ذو المبسم المعكوف– الذي لا يفارق أسنانه! – ليأخذ الطاولة المجاورة لي، حيث ينوء الكرسي تحت وطأة جسده الثقيل، يمسد بكفه. لحيةً كثيفةً مائلةً إلى الحمرة والتي يتخللها شيب فضي واضح. رأس ضخم مقدمته صلعاء. وعيناه زرقاوان صافيتان، لا تتوقفان عن الحركة بكل اتجاه، وتصفو بشكل واضح عندما يستعين بنظارة طبية بيضاء. يرتب أوراق الكتابة. أمامه قلمان من الرصاص، ومبرأة حديدة بلون الفضة. وأدوات التدخين اللازمة للغيلون، مع كيس مملوءٍ بتبغ هولندي. وفي كثير من الأحيان كان يميل بجذعه الضخم نحوي ويسألني عن الصحة. والعمل وغالباً عما أقرأ سواء أكان صحيفةً أم كتاب؟.

كان يبدي اهتماماً واضحاً بالكتب. ويستغرب كيف اقرأ لِكُتّاب الغرب المترجمين للعربية. وكان يتصفح جريدة (الأهرام) المصرية ويطلب مني ترجمة عناوين صفحاتها، لم اكن استهجن ذلك بعد أن عرفني على نفسه كاتباً روائياً من هولنداً !؟ لأنه كان يكتب بالإنكليزية الصرفة وبكل بساطة؟ فقط أصبح (صديق مقهى) كما يقال ويناديني باسمي الأول! وبعد أن تقدم له القهوة الممزوجة بالكونياك الفرنسي الأصيل. يترك العالم المحيط به، ويحلق في عالمه الخاص بعيداً عن عالم الناس والمقاهي. لا يستخدم إلا قلم الرصاص في الكتابة.

وعندما يبدأ العمل فإنه لا يرفع رأسه إطلاقاً. إلاّ عند الحاجة لبري القلم. أو لتنظيف الغليون وحشوه وإشعاله. أو لرشف شفة من المشروب الساخن. وعندما كان موقعي يقابله كنت ألحظ دفق الكتابة، وتوالي السطر ببراءة المحترف دون شطب أو حذف. كانت كتابةً أنيقةً ونظيفةً، لا تحتاج لإعادة القراءة -وأظن هذا ما يفعل- ويظل على حاله هذه لفترة طويلة دون أن توقظه حركة المقهى الداخلية، وكنت أحياناً أغادر المقهى للعودة إلى المنزل في ساعة متأخرة وهو ما يزال منخرطاً في عالمه الخاص. ولكن ماذا يكتب!؟ وما هو مضمون الرواية!؟ وعن ماذا يكتب !؟ فهذا ما لم أعرفه حتى هذا الوقت !!؟؟..

وهكذا أمام طاولته وعلى كرسيه، وهو يمارس الكتابة كأنه ينهل من البحر وأنا أمارس القراءة الجادة فما زال القلم بعيداً عن متناول اليد! لم تذهب صورة (أرنست همنغواي) عن مخيلتي وأنا أتطلع إلى سحنة هذا الرجل الماثل أمامي. والذي أصبح لغزاً في حياتي.

- 2 -

في إحدى ليال الصيف الحارة، كنت وصديقي الشاعر نبحث عن نسمة باردة ترطب أجسادنا، فنقطع الطريق الرئيسي الطويل. جيئة وذهاباً. تحت الأشجار الكثيفة الخضراء، وتحت أضواء أعمدة الكهرباء المرصوفة على جانبي الطريق، والحشرات تتراقص على أضوائها، كان البحر القريب لا يبخل- على رواد مقاهي الأرصفة المكتظة- بنسمات ناعمة- بين الحين والآخر. تتسلل عبر الشوارع فتحرك أوراق الشجر الدائم الخضرة.

كنا نبدأ التجوال من درج الكنيسة الجميلة، مخترقين الطريق حتى رصيف الميناء فنعب قليلاً من رائحته المنعشة. ونعود ثانيةً للجلوس على درج الكنيسة الرطب. كان الطريق الرحب مزدحماً بالمارة. ووجوه كثيرة نعرفها (روس. وعرب. وفرنسيون)، وللمرة الأولى نرى بحارة مصريون يتجولون بلباسهم المميز يرتادون بعض المحلات المفتوحة لشراء ما يلزمهم. السهر باد على وجوهم، وبعض علامات الانبهار بالمدينة الجميلة كنا نسمعها بصوت مرتفع. وكان البعض منهم يشارك رواد المقاهي في تناول ما يروي الظمأ في حمأة هذه الليلة الغريبة!

عندما دقت ساعة الكنيسة معلنة التاسعة. جلسنا للاستراحة على رصيف فندق الشرق. مستندين إلى واجهته الزجاجية العريضة. وقد أصبحت النسمات أكثر برودة. طلبنا عصيراً، فعب صديقي الكأس دفعة واحدة. وأخلد إلى النوم مباشرة. كان متعباً فقد قضى سحابة نهاره على شاطئ البحر يمارس السباحة، ويبهر الجزائريين بلعبة تنس الطاولة التي كان أحد أبطالها في دمشق. أشعلت لفافة. ورحت أراقب المارة والرواد الجالسين في الطرف المقابل. بعد وقت قصير بدأ الرواد يغادرون المقاهي. تاركين ورائهم آلافاً. من زجاجات المرطبات، حتى البحارة المصريون غادروا باتجاه الميناء، وبقايا من الفكاهة المزوجة بالضحكات العالية تلاحقهم. ساد الصمت الشارع، بل ساد الصمت المدينة كلها. فكأنها هجعت إلى النوم، ولم يعكر السكون سوى ساعة الكنيسة وهي تدق معلنة العاشرة.

فجأة! . أضاءت السماء كتلة حمراء من اللهب، تبعها بثوانٍ، انفجارٌ يعادل البركان؟!! مالت جدران الفندق، وارتجفت الأرض تحت

الأقدام، وسقط كـل شـيء علـى الأرض، زجـاج الواجهـة التـي نجلـس تحتها سقط على رؤوسنا، والجالسين بجانبنا، انتبـهنا وذعرنـا، كأنـها القيامة، أمسكت بيد صديقي وبدأ يركض باتجاه الكنيسة، والانفجارات تلاحق الجميع، وتدوي في كل مكان. ظل صديقـي ممسـكاً بيـدي، ولـم يسأل عـن شـيء! استيقظت المدينـة بكاملـها، وبـدأ الحشـر، الرجـال والنساء والأطفال يـتراكضون في الشـوارع والأزقـة، مبتعديـن عـن مصـدر الانفجارات، الجموع المتراكمة لا تعـرف مـا حصـل! مـالكي السـيارات فتحوا أبواق عرباتهم مع عائلاتهم صاعدين تجـاه الجبـال! لـم تتوقـف الانفجارات، ولكنـها صارت أقل عنفاً، حتى سـكنت مـرة واحـدة وبـدأ السكون المخيف يعود من جديد إلى مدينة غلفها الظـلام والحـر والمـوت والدمار. ولكن صافرات الانذار لم تتوقف عن الزعيـق المرعـب، شيئاً لا يصدق كأنها برلين، أو لندن تتعرض للقصف الجوي في الحرب العالميــة الثانية!؟ أوصلـت صديقـي لمنزلـه وكـانت رقبتـه تـنزف قليـلاً، فضمـد جراحه بسرعة، بعد أن وضع رأسه تحت صنبور من الماء البارد، ولكنــه ظل صامتاً لا يلوى على شيء، ما زالت صدمة النـوم، تمنعـه حتـى مـن الكلام، والاستفسار عما حدث!

- 3 -

وعدت راجعاً لأرى ما حدث في طرقاتٍ امتلأت بالحجـارة، وبقايـا الخشب والحديد وكتلاً ما تزال تآكلها النيران وسحباً من الدخان الأسود المشبع برائحة البارود، تمر من فـوق المدينـة، ملامسةً أسطحَ المنـازل، والأبنية تاركة وراءها سخاماً أسوداً لا يمكن استنشـاقه. وكلمـا اقـتربت من الميناء. ومن الحاضرة التي أحب الجلوس فيها، كلما ازداد الخـراب

والدمار لقد أضحى الميناء الهادئ الأنيق، ركاماً، والنيران تأكل بقية الأبنية المجاورة والسفن الراسية فيه، كانت هناك أجهزة الدفاع المدني والإطفاء. والإسعاف فعملت المستحيل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

استوقفني المدير الليلي لفندق الشرق الذي احْتَفَظَ بنوعٍ من رباطة الجأش. طالباً مني مساعدة جموع البحارة المصريين الذين أمرتهم السلطات بالاحتماء داخل بهو الفندق، وتحت حراسة مشددة من الشرطة. كانوا في حالةٍ لا يُحْسَدون عليها. لا يمكن تمييز وجوهم وأجسادهم وألبستهم التي أثخنتها الكارثة. كان (الكابتن) أكثرهم شجاعةً واتزاناً وبقي يحصي الأعداد، ويسأل عن الغائبين كلُ واحدٍ باسمه الكامل! ولكن حزناً عميقاً وطاغياً يبدو في عينيه، وقد نقلت وصفه للحادث إلى ضابط جزائري برتبة كبيرة، كانت (نجمة الإسكندرية) وهذ اسم باخرته تنقل سلاحاً وذخيرة جزائرية من ميناء طرابلس الليبي لتفريغها في عنابة. تحت حراسة الجيش الجزائري، وكان من المفترض أن تفرغ الحمولة صباح الغد، لأن الباخرة وصلت متأخرة إلى عنابة. فأعطى قسماً من البحارة إجازات للاستراحة في المدينة. كان في كبينة القيادة يدون يوميات الباخرة عندما حصل الانفجار فطار مع كبينته في الجو مسافة بعيدة في عمق البحر، وعاد سباحة. بعد أن أنتهى كل شيء، كان يعيد إحصاء البحارة ويستفهم عن المفقودين والجرحى الذين نقلوا إلى المستشفيات، كان المشهد في الداخل مروّعاً. وفي الخارج دامياً، مشهدٌ من حربٍ شرسةٍ، توقفت لتوها. والعدوُّ فيها يسرح في الظلام، وقد لخص المحقق الجزائري

الموقف بجملة واحدة: عمل تخريبي مخطط له بعناية ودقة من قبل أجهزة تعمل على نطاق واسع.

توجه المواطنون المروعون للتبرع بالدم في كل مستشفيات المدينة، واستمرت عمليات الإنقاذ حتى الفجر، خسائر عديدة في الأرواح، وخسائر جسيمة في الممتلكات، ليلةٌ سوداء لم يعرف الناس فيها المضاجع! ترك حطام نجمة الاسكندرية في أعماق ميناء عنابة كما ترك المفقودون، بينما حملت نعوش الشهداء إلى مصر. ساد الحزن والأسى أرجاء التراب الجزائري وقد عرف الجزائريون ليلتها بأنهم ما زالوا مستهدفين!

- 4 -

في اليوم التالي تفقد الرئيس (بن بيلا) مع جميع أعضاء الحكومة، والكوادر العليا في الحزب، الدمار الرهيب، وعاينوا الأضرار الشديدة، ثم زاروا جرحى المستشفيات، وتحدثوا مع كابيتن السفينة والبحارة الذين بقوا على قيد الحياة وقد صافحهم الرئيس فرداً فرداً وواساهم بكلمات شجاعة. والحزن المزوج بالغضب بادٍ على وجهه، ثم توجّه إلى المسرح البلدي، واعتلى شرفته المواجهة لمئات الألوف من البشر الغاضبين، وبقدرته الخطابية العفوية ذات النبرة العالية تحدّى كل قوى الاستعمار الشريرة أن تجرح شرف التراب الجزائري، وذكّرهم بأن الشعب الجزائري سيبني مئة عنابة أخرى. بعد أيام من الحادث وبعد عمل شاق، وجهدٍ جبار استطاعت السلطات المسؤولة أن تعيد شيئاً فشيئاً الحياة من جديد، وأصبحت إجرءات الأمن أكثر صرامة في كل مكان من المدينة.

وبدت عنابة وقتها مدينة تداوي جراحها لتعيد الصيغة الجمالية التي كانت تتصف بها! عروساً مدللة لشاطئ المتوسط.

كانت السلطات تبحث وتستقصي وتتفحص كل شيء، وفي كل مكان وأنا أبحث عن الكاتب ذو الشخصية الغامضة. الذي كان يجاورني في طاولة المقهى. مضى أسبوعاً كاملاً دون أن أراه. سألت مدير الفندق عنه. فبحث في سجل الفندق ثم حدق في عيني قائلاً: لقد غادر الفندق إلى فرنسا من مطار عنابة مساء حادثة الباخرة!! ؟ ثم أردف : لماذا تسأل عنه. هل ترك لديك شيئاً؟؟ أم لديك شيئاً معه؟

أسرعت الصور في مخيلتي حتى جعلتني أحدق في عيني المدير لفترة. لا أعلم مقدارها، ولكني استدرت نحو طاولتي وقهوتي وقلت شيئاً ربما سمعه: لا لم يترك شيئاً شكراً لك.

بقي السؤال يدور في عقلي حتى هذا الوقت دون، أن أجد جواباً! من هو حقاً!؟ ما عمله! وأي هدفٍ يرسم لتحطيمه!!؟

وهل الكتابة قاطعة كالسيف؟!

تقتل البشر الآمنين في مطارح نومهم؟!

ونحطم المدن الفاضلة فوق بنّائيها؟!

نيكول:
الحب الشجاع الدامع

(يا للشباب – المرء لا يملكه إلاّ زمنا – وباقي الزمن يُذكّرُهُ به)

أندريه جيد

- 1 -

كما قلت بأني أحببت مقهى الشرق، لا برونقه الحضاري الأصيل، ورائحته المطيبة بالقهوة والورود البرية، ومشروباته الغربية الفاخرة. ولا لأني أصبحتَ واحداً من الرواد المدمنين عليه، ولكن، لأني تركت فيه شيئاً من قلبي، ووجداني، وعقلي! فالأماكن لا تُعْشَقُ لذاتها مهما غلت موجوداتها. ولكن تُحَبُّ بالبشر الذين يُضْفون عليها حركة الحياة وفعالية الروح. حتى يصبح هؤلاءً الناس جزءاً منك، ومن حياتك ومن ذاكرتك.

وبغض النظر. كَوْنَ هذا المقهى مكاناً، يجمع بين جدرانــه، عـدداً من علية القوم. وقادة الدولة، وجمعاً من المثقفين، والمنظِّرين. ومناهضي نهج الحكومة أيضاً. ومحبي الفن بكافة أشكاله وأساليبه. بغـض النظر عـن كـل ذلـك فانـه المكـان الأقـرب إلـى عقليتـي، وتكوينـــي النفســي الوجداني. فطبيعتي تفضل الجمـال الـهادئ والثقافـة المتزنـة. وعذوبـة الرومانسية. والعقـل المتفتـح الموضوعـي، وتـهرب مـن القبـح، والجـهل المخجل. والعقلية المتزمتة المصبوبة في قوالب جـاهزة، والمشـاعر المنافقـة للطبيعة الإنسانية الحقة. في هذا المقهى – ولول مرة في حياتي – عشت تجربة حياتية مع امـرأة أجنبيـةٍ. لـم اكـن افكـر يومـاً أن أحادثـها، أو اتقرب منها، رغم فتنتها الغربية، وأنوثتها الطاغيـة، الملفتـة للأنظـار، ولكنها استطاعت يوماً. أن تكسـر قواعـد الاتـزان الوجدانـي. والخـداع الذاتي. فتطيعُ نبضات قلبها، وتحسن تصديق مشاعرها

الداخلية. دون خوف أو وَجَل. واستطاعت كذلك أن تجعل منــي رجلاً. وإنساناً. لا قلماً وكتاباً فقط! فأظهرت بذلـك مشـاعري الداخليـة الدفينة. وصقلت المعدن الذي يتركب منه جسدي، والذرات التي تشكل عقلي. فبدت لي الحياة، أكثر:وفتنةً، واتخذت من الخير صنعـةً أبديـةً في البشر. وبدت لي الأشياء والطبيعة، مسرحاً للحـب الإلـهي. وجمـال الخلق. علِماً بأنني لم اكن وقتها، مـهيئاً لإظـهار دخيلتـي، ومشـاعري المخبأة في ثنايـا الـدور القديمـة المحافظـة، لـم تَكُـنْ بَعْـدُ مـن النضـج، لتكتشف مشاعر امرأةٍ تضج بالحب، والتجارب الحارة، ووسائل العيـش المترفة.

كان والدي قد أوصاني خيراً بأهل الجزائر ووالدتي أوصتني خيراً بنساءها! فظللت زمناً، مخلصاً للوصية، واعتبرت ذلك أمانةً في عنقي!؟

ولكن الحياة على حقيقتها وفي كثير من الأحيان، كانت، وما زالت، أكبر من الوصايا العشر! وأكبر مما دُوِّنَ في الكتبِ والقراطيس! ومن المؤكد، أني حاولت جاهداً، أن أصون روحي من الانغماس في الملذات الأرضية، ولكني وجدت روحي هي التي دفعتني إلى الكشف والتجربة، فأثْرتِ الحادثة حياتي كلها، فأصبحت أكثر اقتناعاً بالوصايا، واكثر بحثاً عن جوانب الخير والحب عند الإنسان، ولم تكن مجالا لتعكير الروح، بل ذهاباً إلى أكثر النهارات إضاءةً.

-2-

قد يقول البعض، إن معاشرة نساء الغرب، أمر سهلٌ لا يحتاج المعانة والشقاء، فالروح والجسد في الغرب مهيئان للاستجابة اللمّاحةِ السريعةِ، ويظنون أن المرأة الغربية، تبيح جسدها ومشاعرها وروحها من المرة الأولى!؟ إن هذا الفهم الخاطئ للمظاهر الخارجية المرئية، يُفْسِدُ الحب الحقيقي بين شعوب العالم كلها؟ (إنه كَمَنْ يعلق ثيابه على المشجب الخطأ) والفرق واضحٌ، لا لبس فيه، سواء في الحب الشرقي أو الغربي، هو الصدق في العلاقة، دون شعور بالإثم والذنب، وهو الفرق بين شراء الجسد بالمال لإشباع نزوةٍ طائشةٍ عابرةٍ، وبين التضحية الحقة ضمن موقف حياتي شجاع ووفي. كان موقفي محتاجاً إلى الكثير من العقلانية، والكثير من العواطف الملتهبة، شديدة الخصوصية، كان أكثر عمقاً من وجود شخصين في مكان آمن ومنعزل. يزول الخجل بينهما، وتنطق الأحاسيس الجسدية بكل رغباتها، رغم الكبت الموروث، والتقاليد العقائدية لا تبيح المصافحة والكلام وجها لوجه؟! لم أكن

اعلم- كوني شاباً طرياً، متحفظاً، أن هناك حبٌّ من طرف واحد! حب مستتر لا يبدو للعيان، -لكنه موجود- ومن هنا كان شقائي، وألمي الذي ما زلت حتى اليوم أحمله في داخلي، فلم أكن (انتظر ساعات الصبا فوق الدروب، وأنا ظمئ، ملتهبٌ لكل ما يسمى : خطيئة).

كانت (اللذة تقرع بابي والرغبة تستجيب لها في قلبي، ولكنني بقيت راكعاً دون أن أفتح)؟ بعدها. أصبحت من خلال هذه التجربة، أحترم عزاء المحبين، وأرغب في مساعدتهم، وأحاول التقريب بينهم، وأرى الحياة من خلالهم، فتجارب الحب الصادقة شيءٌ من صُلْبِ الحياةِ. ومن صميم الموت!؟

-3-

الريح والمطر، يتسابقان على انتزاع مظلات المارة، وأرديتهم الواقية، وهم يهرولون في الطرقات المشبعة بالسيول الرقيقة السريعة تجاه دورهم، أو أعمالهم المسائية، وماسحات زجاج السيارات المتباطئة، لا تعرف التوقف والدوران، وقليلٌ من رواد المقهى الذين أنهوا أعمالهم، يقبعون في الراحة والدفء، يحتسون مشروبات ساخنة بلذة واضحة، وأنا في جلستي، جانب الباب الزجاجي للمقهى، أشرب فنجاناً من الشاي الأحمر، وأدخن لفافة تبغ دسمة، تاركاً جريدة الأهرام المصرية على الطاولة، بعد ان قرأت ينَهم المقال الأسبوعي (بصراحة) لمحمد حسنين هيكل. وهاهو صديقي الشاعر (عمر) يدخل مسرعاً، ينزع معطفه المبلل، ويعلقه على مشجب خلف الباب، يصافحني فرحاً بالمطر والريح، رغم شحوب وجهه وازرقاق شفتيه، وبرودة أصابع يديه، يطلب شاياً، ويحمل الكأس بكلتا راحتيه سارقاً الدفء من جوانبه المترع بالحرارة والرائحة المشتهاة، يرشف الشاي الساخن على دفعات متتالية!

ثـم يستسـلم للجلسـة مـاداً بصـره عـبر الزجـاج نحـو الطبيعـة المغتسـلة بالطهارة.

بدأ الظلام يحبـو نحـو طرقـات المدينـة المغسـولة، فَـأنيرت أعمـدة الكهرباء على جوانب الطرق، وأشْعَلَ النادلُ قنـاديل المقـهى الجداريـة، فبدى العالمُ الداخليُّ للمقهى هادئاً ملوناً كلوحةِ رسّامٍ من القرن الماضي! وبـدت المدينـة كواحـدةٍ مـن مـدن الغـرب، لا تميزهـا إلا بأشـخاصها، ولغتها.

وفي هذا الجو الحالم، قرأ (عمر) قصيدةً جديـدة، كتبـها في أعقـاب زيارته لبلدة (القالة) الساحلية الوادعة مع صديقةٍ له.

وفي كل مرة يلقي فيها كان يجـد وفي هـذا الجـو الحـالم، مـا يؤثـر بالاخرين، كـانت طريقـة إلقائـه الرائعـة – تتضمـن إحساسـه الشـعري بالكلمات – ولو قُدِّر (لعمر) هجران الشعر، لأصبحَ ثائراً مبدعـاً، يـهرب بكلماتـه النثريـة بعيـداً، ثـم يفـاجئك بتفعيلـةٍ واحـدةٍ، تضبـحُ بجـرسٍ موسيقيٍّ أصيل يشدك إليه!

(عمر) خلق ليكتب، شعراً، أو نثراً، وخلق ليتعلم من كرة الطاولة، طريقة الحوار الجدليِّ مع الآخر، ومعرفـة معنـى النصـر أو الهزيمـة، في مواقف صعبة،

فأستطاع مسـتقبلاً –مـن خـلال هـذا التكويـن– أن يصبـح سـفيراً لفلسطين في أكثر الدول، ثقافةً وجدليـةً، ومـازال يمـارس عملـه، كـأحد العاملين في الخارجية الذي لا يُسْتَبْدَلون؟.

- 4 -

عمر ينبهني، بأن امرأة فرنسية بالباب الخلفي الصغير تشير علي، وتعاود الإشارة ثانيةً وعندما التفت، لم أصدق بأن شخصاً لا أعرفه يطلبني، وخاصة إذا كانت امرأة أجنبية.!

يتلاقى نظري المحتار بعيونها اللامعة، من وراء الزجاج، فَتَحْتُ الباب الصغير، ودنوت قليلاً منها فطلبت مني مرافقتها، لأنها تود محادثتي؟!!

كانت وحيدةً – على غير عادتها – تحمل ممطرة انيقة مخططة بالسواد، وترتدي معطفاً رمادياً، يتدلى حتى قدميها، وتلتف حول رقبتها لفحةً صوفيةً بيضاء، كانت في كامل زينتها الطبيعية البعيدة عن التكلف والألوان الصارخة، فبدت كتمثال اغريقيٍ مرمريِّ اللون تحت شعرٍ كستنائيٍ لامعٍ ومقصوصٍ، وعينان تفيضان بالشهوة، وفمٌ قرمزي مملوءٍ بالكلام والبوح!

اعتذرت من (عمر) وأنا خَجِلٌ من الموقف، ارتديت معطفي، وسوّيتُ شعري بأصابع يدي، وتلمست ربطة عنقي تركت الجريدة على الطاولة، آملاً بالعودة السريعة فلربما أرادت شيئاً أستطيع مساعدتها به كنت غارقاً في التخمين فقدت أثناءها شيئاً من اتزاني وسائراً نحو المجهول! فقد لاحظ عمر ذلك قائلاً : سأنتظرك. هي المرأةُ يا صديقي!؟

قطعنا الشارع الخلفي متباعدين، باتجاه طريقٍ فرعيٍ يدورُ حول المسرح، اقتربتْ منّي، وأمسكت يدي، ثم تأبطت ذراعي، وشدتني نحو

صدرها، لتحميني من المطر، وأنا أشعر في غمرة هذا الموقف أن الطريق يضيع من قدمي، وأنوار الأزقة تبدو باهتةً، وعقلي يفقد الكثير من تركيزه، فها أنا الهارب، عاشقُ الوَحْدة والسكينة، وفي لحظة أصبح عاشقاً شرقياً، مع امرأة يفوح جمالها وعطرها وانفاسها على جنبات روحي، وهي تسير بي نحو أزقةٍ أجهلها، ونحو هدفٍ لا أدريه، تحت المطر، وبين أناس ضاعت ملامحهم، في زحمة الليل والبرد، وأسمع أولى كلماتها.

– نيكول يا محمد. أنا نيكول. تعذبني وتشقيني منذ زمن بعيد! !؟؟ إلا ترى بقلبك ؟ دعني أرى عينيك. توقفت قليلاً، ودفنت عيناي على بلاط الزقاق، كطفلٍ خجل من خطيئة.

– أنا يا سيدتي غريب هنا، لا أعرف أحداً، ولا أريد عذابَ وشقاءَ أحدٍ، أرى ما هو لي فقط، ولا انظر إلى أملاك الآخرين.

– هكذا توضح الأمور إذن فليكن ... ولكن عليك أن تعرف أني ... وصمتت، وبدأت الدموع تنساب من عينيها حارة على وجهي ونحن نحضن بعضنا دون احساس بالمكان والزمان، تقبلني من كل مكان في وجهي، فأحس بالدموع أكثر انهماراً، ثم تعاود ثانية، نسير قليلاً، ونقفُ ونحن تائهين لا نعرف ماذا نفعل وماذا نقول وأين ستصل بنا أقدامنا؟

جلسنا مبللين على كرسيٍ في حديقةٍ عامةٍ، في أطراف المدينة، وصوتُ لبكاءٍ لا يصمت، فاقبل يديها الباردتين، واخبأ شعرها ووجهها في صدري، حتى تصمت قليلاً.

- أنت متزوجة يا نيكول!؟ وزوجك كامل الرجولة، وكنت أحسبه عربياً!

- نعم أنا متزوجة. ولكن السعادة مطلب آخر، لم أجده في أحضان زوجي وأملاكه. فقد آثرت الخيال على الحقيقة وتزوجته، والحقيقة التي لن أعرض عنها هي: أنت! إن المخازن الكبرى المقابلة للمقهى. مُلْكَهْ وكنت أراك من هناك!؟ اعرف متى تأتي، ومتى تغادر، اعرف أصدقاؤك، ولكن ...كيف تحتمل الوحدة هكذا؟ ألا تحس بالآخرين!؟

ألم تكن تحسُّ بي. وأنا أنجذب إليك كل ليلةٍ في المقهى؟!

- إحساسي المرهف بالآخرين يا نيكول، هو الذي يجعلني بعيداً عن الجرح والإيذاء. فأنا هنا اسند جبيني على شرفاتٍ بعيدةٍ، وأخاف ألاّ أُحْسِنَ الاحتفاظ بالفرح والغبطة! لهذا كنتِ لي كثمرةٍ تنضجُ في ظِلّ زوجها وحديقته. والآن يا نيكول قولي لي: ما العمل؟؟

توقف المطر. ولكنها لم تتوقف عن البكاء. وارتمت على كتفي ترجو ألاّ اتركها، ولو كان لها زوج!؟

- نعم. لن أتركك هكذا. ولكن ألا يكفي أن نشاهد بعضنا كلّ مساءٍ في المقهى؟ فأنا كما تعرفين لا أملك بيتاً خاصّاً. وقدرتي المادية لا تسمح لي بالهرب بك إلى أمكنةٍ بعيدة، أرجو أن تفهمي ذلك.

فأنا يا نيكول لا املك سوى ذاتي، والآن فقط بدأت تصبحين جزءاً منها.

رفعت رأسها. ونظرن إليَّ بعيونٍ طاهرةٍ كعيون الأمهات. فبدى وجهها كأنقى ما يكون.

– كما تحب يا محمد، وسنشاهد بعضنا كل مساءٍ ولتكن جلستنا متقابلةً. أودُّ أن أراك أمامي مباشرةً. وإلاَ سأكره المكان الذي تحبه،ثم أمسكت بكلتا يدي، وأسندت وجهها على كفّي، فامتزجت القبلات بالدموع والسكينة، فشعرتُ بالحاجة إلى ا لبكاء بكامل صوتي! ولكني أنهضتها. وشبكت يدي حول خصرها، وبدأنا العودة من حيث أتينا.

– دون كلامٍ. أو حديث. ثم ودعتني في منعطف المسرح، نحو مخازن زوجها. وأنا إلى (عمر) الذي مازال ينتظر.

ورائحتها مضمخةً كياني له.

قرأ (عمر) التغيير على وجهي عندما وصلت، لم اكن أرتجف من البرد فقط! كنت أرتجف من الجولة الجديدة الطارئة على العمر، والحياة. والمستقبل! نظرت مباشرةً بعين (عمر) المتسائلين.

– ياعمر: أصبحنا صُوراً عن رومانسية الشرق الجميل! ولكن يا صديقي. عرفت الآن كم هي رومانسيةُ الحبِّ إنسانية! لا تخضُّ شعباً من الشعوب! اكتشفت حقيقتها، ودلالاتها، ليست هوائيةً ترقد على الحلم والقلق. وتستيقظ على الأمل والاقتراب. سأتعذب يا عمر لأننا لا نعرف كيف نطارحْ الأرواحَ مباشرةً. سأحتاج إلى صلواتٍ صعبةٍ، ولن أعرف المصير يا صديقي؟!.

– إنها تستحق شاعراً مثلك يَدَفأُ قلبها، ويكتب لها مثل (بايرون) و (هوجو) و(لامارتين). فأنا لا أجيد الكلام مع المرأة! ابتسم (عمر) بعذوبةٍ. وبدى الخجل في عينيه وقال:

– كان المشهد شاعرياً، وأنت تستحق أن تعيش حياتك، فلربما انضممت إلى صفوف الشعراء مستقبلاً؟!

– لا أظن ذلك يا عمر، فليس بالخبز، أو بالشعر يحيا الإنسان. سترى ذلك بنفسك، والنفس البشرية تتجاوز الكثير من العبارات، والكلمات البرّاقة. إنها تكشف شيئاً لا تعرفه عن ذاتك، وتود امتلاكه دون أن تدري؛ وأنت مغمض العينين. (هناك شيئاً مخبوءاً. ما وراء لذة الجسد)

– 5 –

أصبحت بدوري أراقب وصولها كلَّ مساءٍ –والانتظار يعذبني– وعندما تلتقي نظراتنا قلوبنا. ويطمأن كلُّ واحدٍ مِنَا على وجود الآخر في دائرته. كان وصولها يحتشد بالرِّفقة إضافة لزوجها. تجاراً أو سماسرة ومتعاملين. عرباً وأجانب،وحالاً يقدم لها النادل لها الكرسيَّ المخمليَّ الأخضر ويمسح الطاولة أمام الآخرين، ثم يسمع طلبات الجميع مصطنعاً أدباً وقوراً! ثم يسرع بإشعال لفافة التبغ لنيكول، منسحباً إلى الوراء بخفة اللص المحترف، تبتسم لضيوفها، ولكن، قلَّما تحادثهم. بل تترك الحوار لزوجها والآخرين، كنا مربوطين بحبلٍ روحيٍ يوصل أحاسيسنا، دون أن نلفت نظر الجالسين. واعرف أن كلانا يتمزق من الداخل. فما زالت شفاهنا صالحة للقُبلِ! وما زالت أرواحنا شَرِهَةً للقاء! فبعد ساعة

أو أكثر سنأخذ كأسين من (المارتيني) وستملأ عيناها بدموعٍ خجلةٍ، ونفترق ليعيش كلٌّ عذاباته المدفونة!

كانت (نيكول) تبدو في كل ليلة، امرأةً لا تفقد طعمها مطلقاً، نَضِرَةً كوردة، لباسها الأنيق. ومشيتها الأنثوية، وثقتها المطلقة بذاتها، وجمالها. تجعل الروّاد في المقهى -من الرجال والنسوةِ على حدٍّ سواء- يديرون رؤوسهم نحوها، بشيءٍ من دهشة الرؤيا الإلهيةِ البديعة، وعندما كانت تسرق النظر إليّ باسمةً -تاركةً الآخرين يعبثون بحساباتهم- كنت أرى الحزن الدفين، والحرمان العاطفي، والرغبة، وحتى استخفافاً دامعاً على الحياة. كما تفعل (الجوكنده) في أرواح المشاهدين لها في باريس! كنا لا نستطيع فعل شيءٍ، فتبقى يدانا مضمومتان للصلاة! والصبر يبدأ بالنفاد. ولم يعد قيمةً أخلاقيةً لها ما يبررها!

في اليوم الخامس رَنَّ الهاتف في كبين المقهى وطلبني النادل: هاتفٌ لك يا سي محمد!؟

نيكول كانت المتحدثة: محمد سأراك في السادسة. أمام محطة القطار، سأنتظرك. أنا مشتاقة، ولك عندي مفاجأة!؟

وضعت السّماعة. وتركت الكبين ورائي، وأنا أحترق، الساعة تشير للرابعة والنصف. فما زال الوقت مبكراً، طلبت كأساً من (الكريستال) لعله يهدأ أعصابي المتحفزة، ويجعلني أكثر هدوءاً، ثم احتسيت الآخر، ودخنت الكثير من اللفائف. وأنا أحدث نفسي!

آهٍ! يا محطة القطار في عنابة! كم أنت عزيزة على قلبي. فأنت أدخلتني إلى قلب عنابة، وأنت التي أخرجتني منها مقاتلاً في عام

الحزن العربي عام 1967. وها أنت الآن تظلّلي حبيبتي تحت شرفاتك الأمامية!.

تعانقنا طويلاً، وتجاوزنا قليلاً أخلاق المارة، ثم أمسكت يدي، وأطبقتها على سلسلة مفاتيح!، وتأبطت ذراعي، ونحن نقطع الشارع، إلى مدخل بناءٍ فرنسيٍ أنيق، من الطراز القديم، صعدنا بعدها حتى الطابق الثاني. أدارت المفتاح في ثقب الباب الخشبي المحروس بتمثالين من المرمر. ثمن أغلقته جيداً، وعانقتني طويلاً ثم ارتدت قائلةً:

هذا بيتنا! سيعجبك! فيه مدفأ قديمة نحتاجها. والغرف الثلاث مُلكنا وحدنا!؟ وهذه شُرفَةٌ تطل على الميناء. لقد استأجرته من صديقةٍ سافرت إلى فرنسا. ها. أليس جميلاً؟؟ كانت كطفلة تدور حول نفسها فرحةً بثوبٍ جديد.وكنت أصغي إلى عناقها الذي لا ينتهي. وأتنشق عبير جسدها. ورائحة ثيابها. وكلماته المعبِّرة عن الرغبة الطاغية، وكنت بدوري أشعل شفتيها بعطشٍ جديد، ثم أقدم لها جسدي مملوءاً بنشوة الحب والرغبة والحياة. ثم نستفيق على الحديث.

متى سترجعين لزوجك!؟ هل يعرف ما تقومين به؟؟

سأرجع في الثامنة. لاصطحابه إلى المقهى، ثم للبيت. وأنت هذا بيتك الأول. تستطيع أن تنام هنا، وإذا تأخرت ليلاً في السهر!! تغادرني. والنشوة تجعلها أفضل حالاً، وارفع نُبْلاً، وأكثر جمالاً، أتابع وقع أقدامها على درج البناء وألاحقها بنظراتي من النافذة المطلة على الشارع. حتى تنعطف وتتوارى. وأبقى وحيداً في صحراءٍ مزدانةٍ بالسراب. فكأن (بهجات حواسنا كانت كلها ناقصة كأنها – أكاذيب).

من الصعب على الشاب أن يعشق امرأةً متزوجةً، في بداية حياتــه، لأنها تقفز به إلى مرحلة الطيش. والعبـث الـذي يلازمـه طيلـة عمـره، فالرغبات التي يتشبع بها. لا تجعله يحبُّ بـهدوءٍ مـرةً أخـرى، ولكـن (نيكول) كانت عاشِقةً من طراز آخر. تعرف كيف تجعلك رجــلاً يعشـق الحياة. ويستعيد الروح المدفونة في داخله. ويعبد المرأة التــي يعاشـرها، كانت تكبرني بخمس سنين طويلة! طويلة!؟ نيكول أزالـت مـن داخلـي الخوف الميت. من الحياة. ومن البشر، وجعلت مني جريئاً وإلى حـد المغامرة! ومع ذلك بقيت بعيداً عـن العبـث. والحِـذر يلازمنـي خوفـاً" عليها من الآخرين فقط.

مضت شهور. وكلانا يحتكر جسد الآخر، وروحه، دون اشكالات. تنغص علينا لقاءنــا. وبـهجتنا، ونشـوتنا. وازداد حـس الكبريـاء لـدى نيكول. فلم تتصور أنني سأمنح نفسي لأحدٍ بعدهــا. وقَـرَّرَتْ أن تمتلـك أشيائيَ الخاصة. وتشكلها حسب ذوقها الذي لا يُداني. فاشترت كلَّ ما ألبس. ورجتني أن أكون كما تحلم. ولكننــي رفضـت مـراراً. ثـم قبلـت تحت كثافة توسلاتها. فكدت أصبح مانيكاناً رجالياً، يتجول في شــوارع عنابة. ويجلس في نواديها. ومقاهيها. ويعمل في مدارسها. صرت أشعر أنــي بكـامل رجولتــي. وبكـامل أنـاقتي، وازداد– احساسي بــالآخرين فصرت أكثر تسامحاً. وتخلَّصَ عقلي من سلاسلَ كانت تُعيقــه، وأصبح أكثر اتصالاً بالعصر. وازدادت عاطفتي تشبعاً، وفـهما لمشـاعر الحرمـان الذي يعيشه انسان هذا الزمن، وازداد تعلقي بالعمل المدرســي. وإن بـدا مرهقاً في بعض الأحيان.

كنا كلما ازددنا اقتراباً مـن بعضنـا، كلمـا ازددات نيكـول شـروداً، فأخاف أن يكون حدسي صادقاً دون أن أبوح به، لقد أصبح لقاء المقـهى المسائي بالنسبة لنا قراءةً لِلَحَظاتٍ كنا نعيشها في ضوء الشمس. فكان من حق نيكـول أن تفكـر في طريقـة حياتنـا، بـدوري كنـت أحضـن رأسـها واشجعها ملازمة زوجها!؟ والانطلاق معه بنزهـاتٍ بعيـدةٍ عـن عنابـة، وعني. فهذا عملٌ يُسَلّيها، ويبعدها عن علاقتنا، ولو إلى حين، وكانت توافق على افكاري. وتعتبر ذلك تنازلاً مني لإكرامها، وعندما تقدم على ذلك. كانت رغباتي تستقيظ ثانيـة، فـأتحرق لرؤيتـها. وعندمـا تقبـل نحوي بعد فراق لا يدوم أكثر من يومـين أو ثلاثـة، نبكـي كلانـا فرحـاً باللقاء ثانية. نعود بعدها للغوص في الفرح والحزن كما يفعل الآخـرون في هذه الحياة!

- 7 -

يوماً طلبتني على هاتف المدرسة، دون عادتها، واصرت أن نجتمـع في منزل المحطة قبل عودتي للعمـل فـترة بعـد الظـهيرة. سـبقتني إلـى البيـت، فوجدتـها متجهمـة – علـى غـير عادتـها – وجهـــها يكســوه الشـحوب والغضـب، وعيناهـا مملوءتـان بـالدمع! جلســت بجانبــها، فأمسكت يديّ.

– محمد. لقد عرف زوجي، كل شيء. من الآخرين!؟ ولم أنكر مـا سمعه. بل قلت الحقيقة ثار بغضب، ولكنه أكد أنه يحبنـي، ويريدنـي أن أبقى معه. على أن أنهي علاقتي بك، واعتبر تصرفاتي خروجاً علـى قواعد الأخلاق العائلية!؟ ونزوة عابرة، سـيصفح عنـي إذا وافقـت علـى الانجاب.

– ولماذا أنت غاضبة إذا ؟ كان زوجك واقعياً متطرفاً، بل أخلاقياً! أليس كذلك يا نيكول؟

– نعم. ولكنه لن يتركك تعيش بسلام، سيحاول خلال علاقاته القوية، مع الادرارات، أن يلغي عقدك، أو نقلك إلى أبعد مكانٍ في الجزائر!

هذا ما لا أحتمله. انني لا أصدق ما سيحصل!

– نيكول باستطاعتي الذهاب إلى أيٍّ مكانٍ، لتبقي بعيدة عن غضبه، أو شكوكه ولن أسمح لأحد أن يؤذيك، فهذا شيء فوق طاقتي واحتمالي. نيكول. لقد حان دوري كي أتعذب!؟ لا تفكري أنا معتاد على ذلك! فالشرقي يولد وفي فمه ملعقة مملوءة بالعلقم!؟

– محمد. لا أقدر على الفراق، يمكن أن نتخلى عن النشوة والغبطة. ولكن لا بد أن أراك كل يوم، فهذا من حقي لا يمكنني أن أتخلى عن أحاسيسي تجاهك، بذلك أسحق نفسي. وأمزق حياتي.

بدأ الموقف يقتل التفكير، ويشل الأعصاب، ويجلب الدوار، ولكن نيكول أغرقتني في بحر من (آلام النشوة الأخيرة)، لا تريد– سوى المزيد من الغرق. والمزيد من الألم والدموع.

–نيكول عَلَيَّ الرجوع إلى العمل، وأنت إلى المنزل، لا اريد مزيداً من القلق والتوتر. سأراك مساء.

– محمد. سأسوي الأمر بحدود طاقتي، وسأضحي برغبات ثمينة، كي نبقى معاً. ولكن القانون بجانبه يا محمد، وهو قادر على تحطيمي،

وأعرف أن هذا ضارٌ لك، أنا المبادرة في علاقتي معك؛ وأنا أتحمل مسؤولية ذلك.

لوحت أيدينا تلويحة الوداع، أمام محطة القطار، وسار كلُ واحدٍ منا بإتجاه حتفه!

ونوارس البحر تغتسل باسطة جناحيها، وصافرات البواخر تعلن عن الرحيل. (ولن تتعزى الروح أبداً وان ذاقت كثيراً من السعادة؟ ينهل المطر على طرقات المدينة وسطوحها، ويبقى مرقدنا، وموطن غبطتنا، موحشاً أبداً.)

- 3 -

غابت اللقاءات، وانطفأت تلكم الساعات المتوهجة بالذكرى في المقهى. وبدأت الظنون تفتك بعقلي، بعد أن شاهدت مخازن الزوج مغلقة. وبدى الانتظار عبثاً. وسهر الليالي في منزل المحطة على الشرفة البحرية انهياراً للجسد بكامله. هاجمتني كآبة مضنية، لم يمحوها الدواء. كنت أبحث في الماضي القريب عن مجموعةٍ من الذكريات. أبحث عن لقاء مفاجيء، وباشارةٍ جديدةٍ من خلف الزجاج فنسير تحت البلل، ونخترق الأزقة اللامعة، حيث نزهاتنا الخيالية المتأملة.

ولكنني لم أنل شيئاً. فما زلت منفرداً بنفسي، وحيداً. وأجلس على حطام السعادة!؟.

وفي يوم ربيعيٍ متجهم. فتِحَتِ المخازنُ فجأةً، قطعتُ الشارع من غير روية. داخلاً إلى حيث أجدها! تفحصت كل الوجوه، فلم أجد سوى وجهاً جزائرياً أعرفه، يجلس وراء طاولة مملوءة بالأوراق منهمكاً بالأرقام. صافحته بيد مرتعشة متوترة، وطلبت منه رؤية صاحب المخازن

لأمر خاص. هب من مكانه واقفاً، ونزع نظارة عينيه. متفحصاً في وجهي.

- لقد. ترك عنابة منذ يومين! وقد سبقته زوجته إلى فرنسا منذ أكثر من شهر!؟ وقد اشتريت المخازن مع شريكٍ لي، وها نحن نُصَفّي الحسابات النهائية!؟

صَعَدَ دخانٌ ضبابيٌّ كثيفٌ إلى رأسي، ودارت الدنيا، وصرت أرى الأشياء في المخزن، نقاطاً بيضاء، وسوداء. أمام عيني! ولم أفق من حالتي. إلا وصاحب المحل. يجلسني على كرسي، وبيده كأساً من الماء، يقربه من شفتي المتحجرة، فأذوق قليلاً منه، والعرق يبلل وجهي وصدري. أخذت نفساً عميقاً، صحوت بعدها، ووقفت ثابتاً على قدمي، والجزائري. يلح بالسؤال، وأنا أقول: لا شيء... مجرد ذكرى مرت بخاطري...

مرت الأيام بلا أمل، انتظاراً بعد انتظار. أيجب قتل الحب بحب أكبر دونما عبث أو مجون!؟.

كان (عمر) الوحيد الذي عَزّاني، وكتب لي قصائد- بكائية، ورافقني حيث الأماكن التي كان يستجيب لها قلبي.

ناولني نادل الفندق رسالة! دون عنوان! طوابعها فرنسية، ومصدرها مدينة ليون!

فإذا بروح نيكول تقترب مني، وجسدها يعانق جسدي، كانت العبارات القصيرة مكتوبة بروح الشعر، وطعم البكاء المر. روح (الشيرازي) الذي كانت تقرأ له كثيراً، وتوضح لي عبارات لا أستوعب معناها. ونحن نتذوق طعم الاقتراب، وخَتَمَتْ مُناشِدَةً روحي، السماح. والعفو،

والاعتذار. مؤكدةً أنها لن تعرف رجلاً أخر مدى العمر! وقولاً (لسعدي الشيرازي) (قالوا بعيداً: اني رهين الندامة. ولكن ماذا ينفعني الندم؟

وخلال ثلاثين سنة علمتني نيكول ألا أستريح أبداً من الحب. وكل شيء أحببته لاحقاً كانت هي جزءاً منه، وطرفاً فيه. لأن صورتها استقرت في ذرات ذاكرتي. فكانت تتأرجح بطرف شعاع واه، تسقط أمام عيني كلما شاهدت امرأة جميلة.

ويسقط معها بيتاً للشيرازي حفظته مترجماً:

صَرَفْتُ عقلي وديني في هواك وقد أَصْبَحْتِ فخاً لقلبيَ الطائرِ الخدر

وما زال مفتاح شقة المحطة راقداً بين صفحات ديوان (كُلُّستانْ) مع خصلة شعر لامرأة أحببتها. وعندما أحس كهولة العمر، أحضن (كلستان). فألمس. حديد المفتاح، وأشم خصلات الزمن المفرح، وابكي لاستنهاض روح الشباب. في زمن تخلت فيه الأرواح عن مزاولة قداسة العشق.

(إن الحبِ لا يوجدُ هكذا كالحجر. لا بُدَّ أن نَصْنَعَهُ. كما نضنعُ الخبزَ كل يومٍ. ليكونَ خُبزاً طازجاً)

أورسو لاغورين

حَلبيٌّ:
علمني موسيقا الحزن والفرح!

(الحياةُ ليستْ ضحكة، ولكنْ هلْ يمكنْ أن
تتصوَّر أن تعيش دون ضحك)

ليونيد سوطور كوف

- 1 -

كلما جالسته كنت أشعر، بـأني في حضـرة الوالـد! علـيَّ أن أكـون مؤدباً، ملتزماً بآداب الحوار الأبوي، وعلـى شـيء مـن الاسـتماع الوقـور والصمت. فكلام الأبوة فيه شيءٌ من النصح والارشاد، لأنه أعمق تجربة، وأكثر نضجاً منا - نحن الشباب- وأحياناً كثـيرة كـان ينتـابني الفـراغ عندما يغيب عني، فأشعر بأني تركت أبي دون السؤال عنه، فيرتاد ني الإحساس بالذنب!

وبكل بساطة هو الأستاذ عبد الفتاح (زميلـي) في البعثـة، قـد جـاوز الخمسين من العمر، وأحياناً السبعين! عندمـا ينتابـه عـارضٌ مرضـيٌّ أو نفسي، قصير القامة، هشاً إلى درجة التكسر، لم يترك له الزمن من شعر

رأسه، سوى فودين أشيبين قصيرين، وأنفاً طويلاً ولكنه دقيق، وذقناً تتعارك مع تجاعيد رقبته حين يتكلم، له عينان واسعتان سوداوان تشعان بومضاتٍ من بريق الشباب، وحكمة الشيخوخة، يداه يكسوهما شعر فضيٌّ. تتحركان بكل اتجاه عندما يود التعبير عما يفكر به، لازَمَتْهُ بَدْلَته الوحيدة. وقميصه، وربطة عنقه، وحذاؤه، وجواربه، من بداية العام الدراسي. حتى غادر أرض المطار في العاصمة، مضافاً إلى كل ذلك معطفاً إنكليزياً أكبر من مقاسه، وكان قد ابتاعه من سوق (البالة) في حلب بسعر زهيدٍ، ورغم ذلك، ظل محافظاً على نظافة مظهره العام. لا ينسى يوماً حلاقة ذقنه كل صباح، ليبدو بمظهرية الأستاذ، التي تفرض احترامها على الجميع. لم أسمعه يوماً يتحدث، إلا بلهجة أهل حلب، التي تشدد على الحروف وتفخمها، وتستخدم عبارات من حسن اللباقة وأدب الحديث. فهو من أحد بيوتات حلب العريقة. سكناه تحت أقدام قلعة حلب التاريخية، ومن حي (الخندق) فالتاريخ مسكونٌ بين جوانحه. وعندما يتحدث عن حلب يملأ جعبة السامع بكل ما هو مفيد وممتع. من تاريخ المدينة. ويُصِرُّ دائماً بأن حلب هي أقدم مدن العالم، التي ما زالت قائمة حتى اليوم، ويوثِّقُ ذلك بإيراده التاريخ المقارن للمدن الأخرى. فيضفي على حديثه صبغة المصداقية في القول، فليس ثمة خرافات تحكم تفكيره على الإطلاق.

وعندما كان يتحدث عن الحياة والقدر، كنت أكتشف أن خلف هذا الوجه الحليق، الذي تكسوه حمرة الكبرياء، إمارات التقوى والصلاح، والقناعة. تبعث الطمأنينة في النفس فـ(هذا الإنسان يشبه عشبة يدخنها الإنسان بلذة).

-2-

أَلِفَني الأستاذ عبد الفتاح، كما أَلِفَ مقهى (لوريان). فهو واحدٌ من النماذج البشرية الحقيقية، التي لا يمكن أن تعيش بمعزل عن الآخرين، ولكن برأيه – ليس كل الآخرين – لا يترك الأستاذ المدرسة. والمقهى، إلا عندما يحين وقت النوم. فمدرسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، قريبة من مكان سكناه، وهو مستمتعٌ بالعمل فيها، لأنها تدرس المواد بالعربية فقط، رغم طول الحصص الدراسية! ونظراً لضعف بنيانه الجسدي، فإنه يشكو من برودة حجراتها الواسعة، وأروقتها القديمة الظليلة. وإطلالتها على ميناء المدينة الرطبة، وخلوها من أية وسيلة – قديمة أو حديثة – تشع فيها الدفء! فكان المعطف الإنكليزي. الوسيلة الوحيدة. التي يملكها، في هذا العالم، كي تمد جسده الواهن بالقليل من الحرارة.

يغادر الأستاذ عبد الفتاح مساء، بإتجاه المقهى، باحثاً عن الدفء الحقيقي. ومتعة الجلوس، بعد أن يكون، قد ابتاع شطيرة، دس في داخلها نوعاً من الطعام!

ملفوفةً بورقةٍ من الصحف القديمة. يعلق الأستاذ معطفه – بعد وصوله للمقهى – على مشجبٍ خشبيٍّ قريبٍ من المدفأة الحديدية الملاصقة للجدار، حتى يجده في نهاية السهر، وقد أُشْبِعَ حرارةً تغذّي جسد الأستاذ. حتى وصوله إلى حجرته المستأجرة، التي ينقصها ضوء الشمس، ونقاء الهواء، لقد أُجِّرَتِ الحجرةُ للأستاذ إكراماً له. ولرقة حال أصحابها، وبعد أن يريحُ الأستاذ ظهره الجريح على مدفأة جدارية. يبدأ أكل الشطيرة، ببطء وتلذذ. دون أن يلتفت إلى أحد، فالظاهر أن خياله يسرح بطعام العائلة وبين الأولاد في حلب؟

يصب لنفسه بعدها كأساً من الماء، من الزجاجة الكبيرة أمامه. ثم يشعل لفافة التبغ. دون أن يترك العلبة أمامه، وإنما ينقلها إلى جيب سترته الداخلي. خوفاً من استدامة النظر إلى التبغ، وخوفاً من التهالك ثانية إلى النهم والتلذذ بنكهة التبغ بعد الطعام!؟ يمتص دخان اللفافة كاملاً. كنحلة أسرتها لذة الرحيق! كنت أتسائل، وأنا برفقته أحياناً، هل هذه هي الحياة: هي أفضل أنواع الحياة على وجه البسيطة!؟ كما يراها الأستاذ عبد الفتاح. فأنا أعرف أن أهل حلب هم أكثر سكان المدن السورية. اسرافاً على طعامهم، المتقن الصنع، والمتنوع، ولربما هم أيضاً الأكثر حرصاً على أناقة المظهر. وحسن الهندام. ولكني – مع الأسف – لا أرى الحقيقة المخبأة في قلب هذا الرجل (والدنيا لها طرق متعددة تتسرب بها من بين أصابعنا!) لا بد أن الاستاذ عبد الفتاح كان يقرأ أفكاري – دون أن أفصح عنها – ويجيب عن أسئلة خطرت لي. بكثير من الصراحة التي تطوي في داخلها. أفكاراً عن الحياة. ووظيفة الانسان في أرض الله، ودوره في هذا الكون، فالأنا بالنسبة له لا وجود لها. إذا وجد الآخر الذي هو بحاجة إليها!؟

كان الأستاذ يتلذذ شرب القهوة. ويطلب من النادل أن تكون أكثر ثافة. فهو يداعب فنجانه حتى نهاية الجلسة، رشفةً صغيرةً في كل رة. ولا ينسى مطلقاً، موعد إشعال لفافةٍ أخرى. ويتحرّى دائماً الأعداد المتبقية من اللفائف في العلبة!؟

أصبح الأستاذ عبد الفتاح مألوفاً من الناس. يقدمون له احتراماً خفياً، ولكنّ مسلكه. وطريقة حياته، ولباسه، ظلت مدار تساؤلات مستهجنة! فالحياة الرتيبة، الخالية من أي جديد، تجعل الآخرين في

حيرةٍ كاملةٍ بأمر هذا الرجل الشرقي، الذي يعيش في شرنقة فرضها على نفسه. ولم يخرج منها أبداً. وكان الكثير من الجزائريين – رواد المقهى – يحيّونه من بعيد. فيرد عليهم، بطريقته المشرقية، لامساً جبهته بأنامله. ثم ضارباً يده بصدره ضربا خفيفاً، ونهوضاً رقيقاً من مقعده.

والواقع أن الأستاذ عبد الفتاح، لم يكن بحاجة إلى أية مفاخرة، أو تغيير في سلوكه المحافظ، بقدر ما هو بحاجة إلى متابعة حياته كما هي، دونما تغيير، لتصل سفينة حياته إلى شاطئ الأمان.

وكان في ذهنه أن شاطئ الأمان، هو نهاية السنة الدراسية، والعودة إلى أسرته. لأنه كان يظن أن الحياة البعيدة عن الأهل، ستضيف إليه شيئاً جديداً، ولكن حدسه لم يكن صحيحاً! ورغم ذلك فللأستاذ سعادة خاصة غامرة. لا حد لها، عندما يكتمل اللقاء، مع زميلٍ آخر من حلب. يدعى (كمال) الشخصية الشابة، المكتملة العافية، المنطلقة، والباحثة. عن مغامرة عابثة كل يوم. وكان هذا، صاحبَ أحاديثَ لاذعة. مُشْبَعَةً بروح الفكاهة الحلبية، بل كان في نظر الأستاذ خير ممثل لشبابه الذي ولى. والذي يجد في كمال رديفاً مناسباً لروحه. التي استطاع الزمن أن يخبو من ضوؤها وتوقدها! كانا يتنادمان. بكل ماله صلة بحلب. ويستحضران صوراً اجتماعية جميلة من مدينتهما، والعيش المشترك في أحيائها، ونواديها، ومنتزهاتها، ومقاهيها ودور اللهو فيها، وأصالة تراثها الغنائي. وعراقة تاريخها، وكنت بدوري أشاركهما. نفس المشاعر لأني عملت في المدينة فترة كافية، كنت أحبها لسهولة العيش فيها، وتميزها الثقافي والاجتماعي.

وعندما يحين موعد مغادرة المقهى، كان الأستاذ يؤكد، بأن ظروف الغربة تقضي من كل واحد منا دفع ثمن مشروبه، دون كلفة ثقيلة على واحد فقط. فليس وجودنا هنا للنزهة، والكرم المفتعل، ليس من صالح أسرنا. وأطفالنا. فهو يمارس علينا قول (برنارد شو) على لسان الكابتين (شتوفر) في مسرحية (منزل القلوب المحطمة) – هل يملك أحدنا في رحلة الحياة أكثر من مصاريف السفر!؟ وكنا نوافقه على وجهة نظره هذه. ونذعن لها في كل مرة دونما نقاش.

في نهاية كل لقاء، وخاصة في الشتاء الموحش ليلاً، أرافقه حتى باب سكناه. كان يبدو لي في تلك الليالي شبحاً من أشباح قصص الأطفال – رغم صغر حجمه – ويسير بجانبي (كحصان عجوز ذكي، فوق طبقة رقيقة من الجليد) ويظل متحدثاً عن كل شيء – فالدفء ما زال يسري في عروقه وقلبه – وأحياناً يصارحني بإعجابه بنسوةٍ شاهدهن في الطرق العامة. أو المقهى، فأشجعه على قول ما يجول في صدره فتنتابه فرحة الرجوع الغائبة، ويستعيد قلب الشاب المتغزل. ورائحة الأنثى تشده نحوها. بطريقة لا يعرفها. ولكنه مع ذلك لا يستفيض بالكلام. فمقام الأعمار لا يتركه حراً أبداً.

– 4 –

أقلقني غيابه، يومين متتاليين، ولا أحَدَ أسأله عنه. والحي الشعبي الذي يقطنه ليس بعيداً، دخلت الحي تحت رذاذ خفيف من المطر الدافئ. وحجارة الأزقة الضيقة كانت قد غسلت. وتركت المياه مستنقعات صغيرة، بجانب الجدران، أو أمام الدكاكين الصغيرة، أطفالٌ صغارٌ هنا وهناك، يلعبون الكرة صارخين، شاتمين بعضهم، وبائعو

الخضار والفواكه بعرباتهم المغطاة بالخيم الملونة. يجولون في الأزقة، ينادون على بضاعتهم. والنسوة بأغطيتهن السوداء يبتعن، ويرتبن الأغراض بسلال من القش الناعم القوي. مع وقع حوافر الخيل التي تجر العربات المخصصة للنقل، تجعلك تتنحى جانباً ملتصقاً بجدار، أو مندسّاً في باب دكان.

حين وصلت دار الأستاذ، كان الباب مشرعاً على مصراعيه، سألت طفلاً كان يتأملني عن حجرة الأستاذ فقادني، نحو نسوةٍ يَقُمْنَ بغسل أكوامٍ من الملابس، ونشرها في الفناء السماوي، الذي يتوسط البناء. تصورت لحظتها كم كانت لغة الأديب الجزائري (محمد ديب) صادقة وكاملة حين كتب (الدار الكبيرة) وهي واحدة من ثلاثيته الرائعة؟! انها الدار التي دخلتها، وأنا أدقق في تفاصيلها، وحياة ساكنيها. سارت أمامي شابة صغيرة، وأصعدتني درجاً متصدعاً. ولما وصلنا الطابق الثاني. دلتني على الحجرة الراكنة في نهاية الممر الطويل. الذي يكشف ساحة الدار.

– تلك حجرته. ولكنه مريض، لا يخرج أبداً؟!

تحرك الأستاذ متأوها. فوق سرير يصر ويئن تحته. فلم أتبين معالم أي شيء. حتى وجهه. فالعتمة لا تسمح بالرؤيا.

سمعت بعدها صوت زر المصباح الكهربائي، لينداح بعدها الضوء على كل بقعة. في الغرفة الصغيرة الملومة. أشرقت عيناه لرؤيتي، فطلب مني الجلوس على حافة السرير المتهالك، ففعلت. لأرى الحياة البشرية المعرّاة، على حقيقة عذاباتها، وآلامها، مخلوق بشري يتدثر بلحاف

يكاد لا يغطي جسده الصغير. وقليلاً من الأدوية مبعثرة على طرف كرسي وحيد في (الغرفة). وحقيبة سفر متروكة تستند إلى الحائط، وثيابه المعتادة معلقةً على مسامير حديدة مثبتة في الجدار، والمعطف الإنكليزي يغطي اللحاف ليحميه من رطوبة الغرفة، ونافذة صغيرة قرب السقف مكسور زجاجها وإطارها.

- (كريب) يا أستاذ محمد. كنت أهرب منه حتى اصطادني، وطرحني. ولكني اليوم أشعر بتحسن، وصاحبة الغرفة سترها الله! تطبخ لي ما يفيدني. مع قليل من عصير الليمون والبرتقال. ثم استنهض قواه متابعاً.

- لا تخف سأعود إلى جلستنا باذن الله! لقد اشتقت اليها واليك، ولكني يا أستاذ مشتاق للأهل أكثر!؟ وبدأت عيناه تترطبان بالدموع الصامتة القاتلة! شعرت بالأسى يكهرب كياني، ويقتل روحي. وعرفت كم نحن بحاجة للحماية حتى لو كنا كباراً!

- قطعنا السنة يا أستاذ عبد الفتاح، ولم يتبق إلا القليل وهذا عارض يصيب كل الناس في هذا الفصل وسيرجع كل منا إلى أهله وداره سالماً بمشيئة الله.

سوى رأسه على المخدة حتى استقام. وطلب مني أن ندخن سوياً فأشعلت له لفافة. تذوقها بفرح كفرح الطفولة. وكنت اسأله عما يحتاج كولد مشاكس يريد إرضاء والده في ساعة عسيرة ولكنه لم يطلب سوى الشفاء من رب العالمين. بعد أن ودعته طلب متى ترك الباب مفتوحاً وعدته بزيارة قادمة ثم عرجت على صاحبة الغرفة أوصيها بالأستاذ ردت متسائلة: هذا شيخنا وبركتنا ونحن نحترمه ونحبه!؟

وبعد أسبوع عاد الأستاذ إلى مكانه المعتاد وان بدت على وجهه مسحة من الضعف والوهن، ورسمت هالة سوداء على عينيه المتعبتين الغائرتين. وصار يضفي على حديثه ملاحة من الظرف والفكاهة هو بأشد الحاجة إليها، يريد الابتعاد عن الألم والبكاء بمداعبة الحياة التي تعامله بقساوة وعنف!

(فالبرد الذي أصيب به ليس برداً جسدياً بل برداً معنوياً)!؟

-5-

رافقني مرةً لمشاهدة عروض الفرقة الصينية للفنون، على مسرح عنابة وقد راقه العرض إلى حد الإعجاب، وبقي أياماً طويلة يحدث الآخرين عمّا شاهد، كطفلٍ يصف لأقرانه أحد الأعياد بفرحٍ واضحٍ.

كان بذلك يريد قتل الوقت، وقهر الزمن وتجاوزه، وأعتقد أنه كان يخاف لقاء ربه قبل موعده!؟

هربت الأيام والأستاذ يبدو أكثر نضارة وحيوية وأملاً، فهو الآن يُصَلِّحْ أوراق الامتحانات النهائية، وبعدها عطلة العمر، والعودة إلى الشبابيك المضاءة التي تنتظر غائبيها.

لم يشتر الأستاذ أية هدية من الجزائر حتى –شفرة حلاقة كذكرى– وإنما قرر أن يرجع كما أتى حاملاً فقط نتاج عمله نقداً غير مسموح بحمله إلا عن طريق التحويل المصرفي. الذي لا يكفي لأصحاب الأسر– وأخر ليلةٍ سهرنا في المقهى ملأ الأسماع بضحكات عالية سمعها الرواد منه أول وآخر مرة! ثم ودعني كوالدٍ يوصي ولده. دامعاً. ومنتشياً بسعادةٍ أتت حينما بدأت الحياة تولي وتهرب، سعادة الخضوع للعيش في الغربة. كان أشَدُّنا فهماً لمعنى أن: يعيش الإنسان فقيراً محتاجاً للغير في غير مذلة، ورجاني أن أزوره في حلب متى عدت إلى الوطن.

غادر الأستاذ عبد الفتاح مطار العاصمة مكسور ا لجناح بعد أن استرعى انتباه رجال التفتيش في المطار، وهو يرتدى معطفه الإنكليزي في عز الصيف. فتش المعطف فوجدت نقودٌ فرنسيةٌ ورقيةٌ مُخاطاً عليها في حاشيته كانت (ثمرة الشر) التي يحملها لأهله بعد طول عناء، بكى الأستاذ بحرقة أمام الضابط راجياً أن يرحم شيخوخته، وينظر بقلبه لحال أطفاله. فتركه الضابط الشهم يرحل بسلام.

الأستاذ عبد الفتاح لم يكن فقيراً، ولا شحيحاً، ولا شريراً في بلده واكثر الزملاء الشرقيين لم يكونوا كذلك؟ فكل البلاد تحتضن أبناءها ويحسون فيها بالشجاعة وكبرياء المواطنة، و لكن دافعاً وجدانياً داخلياً جعل كل هؤلاء الناس يخاطرون بالمجيء إلى بلد، أحبوه عن بعد وحاولوا تقديم عونٍ له دون دعم من أية جهة، فمنهم من صبرَ وتجلد و خدم بشرف، ومنهم من انسحب لأنه ابتعد عن فهم طبيعة الانسان الجزائري وابتعد عن فهم قلقة الثقافي، واتجاهه الاجتماعي الغامض.

والجزائر وقتها كانت كما يقول الشاعر (بلوك):

مدينة تنتظر في القلق

وصول سفن غامضة

والآن بعد ثلاثين سنة. بدأت السفن الغامضة ترسو بالجزائر محملة بأسرار كبرى دموية وعنيفة وتحمل أختاماً متعددة الجنسيات؟؟!!.

عنابي:
بين الثورة والحياة

(الرجلُ الجيدُ كالشاي: لا تظهرُ قوته الحقيقية، إلا إذا وُضع في ماء ساخنٍ)

- ١ -

محمد شريف، رجل عنابي، يتسلق عمره جدار الأربعين، طويل القامة، في استقامة السرو، وسيماً وسامةَ غجريٍّ من الأندلس، قوي البنية دون بدانة، ذو شعر أسود فاحم سقطت ناصيته. له عينان سوداوان. واسعتان، تحت أهداب طويلة. سريع المشية، وتطأ قدماه الأرض بقوة وثبات، أنيق الحركة يداه تتحركان، بذوق رجل المدينة الأصيل.

كنت أراه في المقهى أحياناً، بصحبة الموظفين، والمستخدمين، متنقلاً بين جوانب الفندق، مصدراً بعض التعليمات، بهدوء ورقة، مشيراً بيده إلى اشياء، ومواقف، لا تروق له.

تعرفت عليه دون مقدمات، في الطريق العام، تقدم وصافحني، وقدم نفسه بتواضع بعيداً عن الكبرياء والألقاب (محمد شريف. مسؤول الخدمات السياحية المسيرة ذاتياً) ودعاني إلى بيته، وسط المدينة - القريب من السوق العام، لشرب القهوة.

كانت داره، ذات درج ملاصق للرصيف، وتصل على الشارع المزدحم نهاراً. شقة صغيرة لرجل أعزب، مليئة بالحياة. غرفة المكتبة، مع طاولة للكتابة والقراءة. تعلو رفوفها كتب مجلدة بأناقة، وبعض اللوحات الزيتية الصغيرة تتدلى من جدارنها، وغرفة أخرى للنوم، تحوي سريراً واحداً مجللاً. وسجادة جزائرية تفترش الأرض بكاملها، وصالةً للجلوس. لا تتسع لأكثر من بضعة أشخاص، مضيئةً. أثاثها مريح. وتطل نافذتها الكبيرة على رصيف المارة المقابل. تركني أتفقد البيت وحيدا. ثمن أخذت واحدة من مجلات (باري ماتش) المتراكمة، وتصفحتها وأنا أنتظر قدومه من المطبخ، رجع معتذراً، واضعاً أمامي فنجاناً من القهوة، ولفافة تبغ أشعلها بنفسه! وجلس قبالتي.

شعرت بالارتباك لهذا التعارف الحميمي، ولكنه سألني فوراً إن كان باستطاعته أن يقدم لي أية مساعدة، من جهة الاقامة والعمل، ثم - دون مقدمات - مشيداً بالمحاضرة التي ألقيتها قبل أسبوعين على مسرح عنابة. معيداً لي ترتيب كل الخطوط التي تكلمت عنها. بشكل يدل على دقة الاصغاء، وحسن الفهم والاستيعاب، وان بقي متحفظاً على بعض الأفكار، التي ما زالت غير مفهومة لدى البعض (كالحرب خارج الحدود. وتعدد الولاءات، ودعم الدول المحافظة للثورة!)، ولكنه كان مغتبطا لأنه يلتقي فلسطينياً للمرة الثانية في حياته!

وقد أدهشني. عندما استذكر لقاءه الأول. في مؤتمر الكشافة العالمي (في فرنسا) مع كشافي الوفد الفلسطيني ذوي الكوفيات الحمراء، الذين لفتوا انتباه الجميع وهو من بينهم، وأثاروا مشاعره، بثقافتهم، وحسن تنظيمهم. وشرحهم لقضية وطنهم، وكان هو ضمن وفد الكشافة الاسلامية الجزائرية! وذلك في مطلع الأربعينات قبل نكبة العام 1948، وكان يبدي اعجابه بصوت مرتفع كأن المشهد يجري أمامه الآن!

لقد أشعرني هذا الرجل الوحيد، كأني في بيتي، وكأني أعرفه منذ وقت بعيد. ولم ينقطع حديثه عن فلسطين. فبدى لي كأحد العارفين، بتاريخ القضية. وكأحد المتابعين لأحداثها البعيدة والغريبة ولم تخذله الذاكرة. عندما قارن الاستيطان الفرنسي للجزائر، بالاستيطان اليهودي في فلسطين. وقضية شراء الأراضي الوطنية، بالطرق المتعارف عليها في عالم الاستعمار. مستذكراً أرقام المساحات المباعة، والمستولى عليها من الحكومة البريطانية. مقارناً اياها بأملاك العرب ومن ضمنهم أملاك الفلاحين الذين استوطنوا فلسطين بعد ثورة الأمير عبد القادر في منتصف القرن الماضي!

- 2 -

بعد هذا اللقاء، أضحى محمد شريف قريباً من حياتي في عنابة، وقد ضمني حول طاولة المقهى مع اثنين من أصدقائه الخلص. (سي العربي) و(سي حمودة) وكانا يكبرانه سناً، فكنت القاعدة الشاذة، بين هذه المجموعة الوقورة! والنقاش اليومي الذي يدور بينها، كان غاية في الجد. وغاية في العمق والتأصيل، كحكومة مصغرة، تقلّب الأفكار، وتنظر إليها من كل الجوانب. فالمرحلة الوطنية، التي تمر بها البلاد،

والتغيرات المتسارعة. وانقلاب المفاهيم، وتغير القيم كل ذلك كان بحاجة ماسة إلى المزيد من الأفكار، والمزيد من الحوار الذي يفرض نفسه بقوة. فحياة الناس اليومية، وحاضر، ومستقبل الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، كان يتعين أن ينظر إليها، بمزيد من الاهتمام. وحسن المتابعة.

(فسي العربي). تاجر أغذية، وسي حمودة، يمتلك مصنعاً للمياه الغازية. فكلا الرجلين – بطبيعة الحال – يصنفان ضمن حلقة البرجوازية الوطنية، وكل قرار سياسي، أو اقتصادي، موجه من قبل حكومة تتبنى الحل الاشتراكي، والاقتصاد المركزي الموجه، يمس طبقتهما. و بالتالي يمس حياة البشر أيضاً. بينما محمد شريف أقرب إلى اليسار الديمقراطي. لذلك لا يتخذ من نفسه محامياً عن قرارات الحكومة. بل يعتبرها في كثير من الأحيان. غير متوازنة، ولا تتلائم مع طبيعة الوضع الجزائري، ويجب البحث عن بدائل وصيغ أخرى، لم يحاول تملق أصدقائه ويصطف بجانبهم. ولا انتهازياً، نظراً لكونه ابناً للحكومة! وكان الحوار يجري بصورة عقلانية، حتى يبدو شكلاً من أشكال التعبير الديمقراطي. رغم اختلاف المنطلقات الفكرية، لدى كل طرف من الأطراف، وفي نهاية المطاف، كانت قوة الاقناع، وكثافة الحجج. هي الحد– الفاصل بين الجميع.

كانت الظروف الجديدة. والمناخ العام المضطرب، وبدايات تكوين الدولة بكافة سلطاتها. ومؤسساتها قد خلق – بشكل عفوي وتلقائي – جواً من حرية التعبير. الذي لا يستند إلى نظريات سياسية، أو عقائدية. كان أشبه بحالة من النقد العشوائي مع افتقادِ وضوح الرؤيا الكاملة. صار الحديث بالسياسة والاقتصاد، كالحديث عن الخبز والعمل

والهجرة. هاجساً يومياً. للعامل، والفلاح والإداري، ورجل الشارع العادي. والطالب. والمثقف. ومع ذلك لم تستطع كل هذه الشرائح الاجتماعية ونقاشاتها. أن تُكَوِّنَ رأياً عاماً مؤثراً، يفرض سلطته على توجهات الحكومة. ويغير من طبيعة الأساليب، والأنماط التي تتبعها في إدارة الدولة. كان الحوار حاراً ومفيداً، والحكومة تضع الأفكار المطروحة في مياه باردة. وتدير رأسها عما يُقال، فشعارات الستينات التي كانت مرفوعة وقتها، في العالم الثالث، لا يمكن الارتياب في صحة توجهاتها وتطبيقاتها. كانت قيماً لا يمكن للمرء أن يتخطى قداستها. لذلك لا حديث عن البدائل.

كان رأي (سي العربي) و(سي حمودة)، بعد الكثير من اللقاءات، والنقاشات. وبالتالي رأي الكثير من المثقفين والمتعلمين، أن الدولة تتبنى نظرية غير واقعية. وان أمكن تطبيقها في مجتمعات أخرى – وقد أسموها نظرية (رد الجميل) تجاه الاتحاد السوفيتي ومعسكره. الذين قدموا كل مساعدة ممكنة، لثورة الجزائر في النطاق العسكري. وفي الساحة الدولية – ومن دون الأخذ بالاعتبارات الاقتصادية. والاجتماعية والثقافية (التراثية والدينية) لواقع الوطن الجزائري ومصلحته الحاضرة. ومصالح أجياله القادمة وحتى لو طبقت نظرية (رد الجميل) فإنها تسير وفق شعارات عقائدية براقة. دون قواعد متينة، ودون كوادر مؤهلة، تستطع القيام بدور صناعة الدولة، وبالتالي ربطت نفسها في فلك المعسكر الذي يتبنى مثل هذه العقائد، حتى لو طلبت عضوية معسكر عدم الانحياز. ذي المبادئ المشوشة، التي تحتاج إلى إعادة التقييم و الوضوح.

لم يكن سي العربي وسي حمـودة منظـران سياسـيان، بقـدر ماكانـا ينظروا إلى المصلحة الوطنية _ من و جهة نظرهما – مـن زاويـة تاريخيـة ضمن اقتصادٍ في طريقه إلى التبلـور و النضـوج، في فـترة كـانت تسـودها حرية السوق. وتنشيط حركة التجارة الداخليـة و الخارجيـة معـا، كـان وقتها السوق مفتوحاً وحيوياً وقابلاً للنمو والتطور– حتى في ظروف حرب التحرير– وكان ممكنا ايصاله الى الاستقرار لو بقي كذلك.

- 3 -

يضع (محمد شريف) نفسه ضمن الحـوار،يسـتمع. ويجـادل ولكـن علىطريقة اليسار الاروبي. غـير مُتَّخِذٍ مـن الاتحـاد السـوفيتي نموذجـاً للتطبيـق. ولا حتـى الصين الشـعبية، كـانت عينـه دائمـا علـى الـدول الأروبية التي تقودها أحزابٌ اشتراكيةٌ ديمقراطيةٌ لها عراقتها التاريخية، ويظل مع ذلك رافضاً تبعيـةَ الجزائـر للمعسـكر الرأسـمالي الاقتصـادي، ويتسائل أحياناً: عن الحاجة للثورة ؟دون التخلص من التبعية السياسية والاقتصادية ؟ وبرأيه أن التقرب من أي طرف دولـي يمكنــه مـن تقديـم العون التقني للجزائر، ليسير في طريـق الاسـتقلال الحقيقـي، والاعتمـاد على الذات،بغض النظر عن نظامه، شيء مقبول.

ولكن في الوقت الحاضر لم يكن الاتحاد السوفيتي مؤهلاً للقيام بمثل هذا الدور،فنحن بحاجةٍ إليه، لتكوين الجيش النظامي بكافة أسـلحته، للمحافظة على التراب الجزائري، الذي ما زال مستهدفاً.

فالغرب بطبيعة الحال لا يـود ذلـك، ودول العـالم الثـالث، ومنـها الدول العربية،هي في أمس الحاجة لمثل تلك التقنية العسكرية، فظـروف

الصراع بين المعسكرين، وتوجهات كل طرف وأهدافه، هي التي وضعت الجزائر تلقائياً في الطرف الشرقي، فطبيعة العلاقات الدولية لم تترك مجالا للدول المستقلة كي تختار أنظمتها.

هكذا يدور الحديث، من نقطة لأخرى، حول طاولة واحدة دون أن أشعر ولو للحظة واحدة بأن الأطراف المتحاورة، كان ينقصها الحب العميق اللامحدود لشعبها، وتبقى الآراء محتفظة بحرارتها وقوتها، إلى جولة أخرى من النقاش، الكل ينظر إلى العالم من موقعه. الكل يهندس العالم ضمن قناعاته. الكل باق في موضعه، دون أن يضمن الاستمرار. فلا رهان على المستقبل، لان القوى التي تحكم الجزائر قوى شابة تدير دفة الحكم بكثير من الاندفاع وروح المغامرة، وأحيانا كثيرة بنشوة الانتصار، وكان هؤلاء يتكلمون بحمية أشخاص ليس لديهم متسع من الوقت لسماع الرأي الآخر؟!

- 4 -

كان المسار الاقتصادي أكثر المسارات أهمية لأجهزة الدولة العليا، فهو يتعلق مباشرة بالحياة اليومية للناس ويؤثر بالتالي على مصداقية الأهداف التي خططت لها الدولة التي تريد أن تشعر المواطن بأنها تعمل. وبأنه يكسب أجراً. وَيُعَلِّمُ أولاده في مدارسها مجاناً. ويتلقى رعاية صحية مقبولة، مع إحتضانٍ لأسر الشهداء المكدسةِ بإنفاقٍ متواضع!

واستطاعت الدولة إملاء شواغر الإدارات المتروكة بملاكات من الموظفين غير المؤهلين!

وأدار العمال المصانع المهجورة من قبل أصحابها الفرنسيين الفارين وسيروها ذاتيا بكفاءة متدنية! وأمرت الدولة إنشاء التعاونيات الفلاحية على الأراضي الشاسعة والمزارع، التي كانت تتبع أساليب الفلاحة الحديثة، دون أن يستطيع الفلاحون الجدد تطوير أساليب العمل الفلاحي لنقص الخبرات والآلات!

ووزعت قسما كبيرا من الأراضي على الفلاحين لاستصلاحها، وجعلها إنتاجيةً، دون أن تقدم ما يكفي لتحقيق مثل هذا العمل الكبير.

رغم كل ذلك فأن أعداد الجزائريين، الذين اتجهوا نحو فرنسا، وغيرها من دول أوروبا الغربية للبحث عن فرص أفضل للعمل وللحياة أيضا. كانت تجري بأطراد مستمر نحو الزيادة، وكانت الموانىء الجزائرية والمطارات مزدحمة بالمغادرين الحالمين، أضف الى ذلك الهجرة المكثفة من الارياف نحو المدن الكبرى وخاصة العاصمة بحثاً عن موضع قدم في ميدان العمل والسكن، مما خلق بؤرا سكانية هامشية على أطراف المدن. زادت عما كانت عليه زمن الاستعمار، فاوجدت بذلك أزمة اجتماعية في غاية التعقيد.

لقد وضع المهاجرون أنفسهم ضمن دائرة النار مرة ثانية. في دولة لا تُكِنُّ لهم الاحترام، وتنظر إليهم بعين الريبة والشك، وتستطيع استغلال جهودهم بأجور زهيدة، وتستخدم ورقتهم في لعبة السياسة بين البلدين، لقد أضحى السكن العشوائي ظاهرةً من ظواهر المدن الجزائرية، فازدادت المأساة الاجتماعية عمقاً، يصعب حلها على المستويات المنظورة.

-5-

وتبعاً لسياق الحوارات التي سمعتها من مثقفي المقاهي. والملتزمين بأفكار الدولة،والناس البسطاء العاديون، لم أسمع حوارا يدور حول نظرية اسلامية. تدخل بأفكارها في سياق المعركة الدائرة، ولكن سمعت حواراً يفسر التوجه الاقتصادي تفسيراً دينياً، والدعوة للرجوع إلى المنبع !؟ وان كان الصوت ما زال خافتاً، لم يقرع أبواب الناس. وأبواب السلطة.

كانت الاشتراكية، في ذلك الوقت حدا فاصلا بين كونك انساناً مثقفاً واعياً لقضايا مجتمعة، وبين كونك نفعياً، طبقياً، لا تنتمي لثقافة الزمن. ولا تدرك حركة التاريخ فيه !

وبغض النظر عن الاهداف السامية التي تصطبغ بها النظرية الاشتراكية –وما زالت كذلك – فإنها برأي الكثيرين – ومن المنظور التطوري للمجتمعات– وبالتالي تطور العقل العلمي البشري، وفقدانها للروحانية الدينية المقدسة.، أفسدت عليها قابلية التطور والنمو، باتجاه حركة التاريخ الجديدة دون أن تفقد شيئاً من رصانتها،في البحث عن حلول واقعية. لتكوين مجتمعات قائمة على السلم الاجتماعي و العدالة في التوزيع !

وقد أثبت الواقع بعد ثلاثة عقود من الزمن –مصداقية الحس الجزائري الناصع. الذي كان يعي بعمق مصلحة وطنه. دون أن يفسر ذلك اعتمادا على نظرية متكاملة، فإن الاتحاد السوفيتي، ومنظومته الاشتراكية. وتراجع الحزب القائد الى مؤخرة الحياة السياسية، برغم

عظمة الانجازات المادية التي قام بها كـانت الظواهـر تـدل علـى صحـة وسلامة جسد النظرية. ولكم المرض بدأ يدب في عقله الاقتصادي – وهـو أساس الدول – مما أدى إلى سقوطه، واقترابه من الموت

-٥-

كـان يحـق لـي الاشـتراك في النقاشـات، وكـان مـن السـهل علـي التحـدث بفخـر عـن منـاصرة الجزائـر لقضيـة فلسـطين، ولكنـي آثـرت الاستماع. على الكلام، عندما يتعلق الأمر بخصوصيةٍ

من خصوصيات الجزائر، واعتبرت ذلك تدخلاً لا معنى لـه، ولكـن عقلي كـان يحتفـظ بحـرارة النقـاش، ويخـتزن الأفكـار المطروحـة علـى البحث. وقد ساعدني ذلك – فيما بعد – على إعادة ما كنت قد قرأت، والتمحيـص فيـه. دون أن أتبنـى فكـرة غـير قابلـة للدليـل والبرهـان والصلاح. ومع ذلك كنت. لا أخفي تعاطفي، لبعض الأفكار التـي كـان يتبناها السيد محمد شريف.

لقد جذبتني هذه الشخصيات الثـلاث – كمـا جذبتنـي غيرهـا مـن اتجاهـات أخـرى – لصراحتـها المطلقـة وانفتاحـها علـى قضايـا العصـر الراهنة. دون المساس بحياة الشعوب الأخرى، وكـان الثلاثـة يـودوا أن أتعرف عن قرب. على الواقع الجزائري، فكانوا يصحبوني أيام العطـل بسيارة أحدهم، في مطلع النهار، إلى خارج عنابة، ويقدمـوا لـي شـرحاً وافياً. عن كل مكان نتوقف فيـه، وخاصـةً الأراضـي والمـزارع والمصـانع لذهبية، التي كانت مُلْكاً للمعمرين الفرنسيين وكنا نجلس للحديث مـع لفلاحين في التعاونيات الزراعية، ونسـأل عـن الكيفيـة التـي يـدار بـها

العمل. وعن الصعوبات التي تعترض سيره، وكذلك كنا نقابل عمال المصانع التي أممتها الدولة وسيرتها ذاتياً، ونستمع منهم إلى قدرتهم اللامحدودة، في تمكين المصانع من الإنتاج بكفاءة عالية، رغم نقص الخبرة، ونقص القطع اللازمة التي تُسَيِّرُ المصانع.

وبعدها نقضي ساعاتٍ بالتجوال بين القرى الوادعة في السهول، والأدوية. ورؤوس الجبال والتي تنقصها الخدمات العامة. والتي يتناقص سكانها باطراد. مولين وجوههم شطر المدن، و البلدات تاركين الأرض للشيوخ والعجائز وأطفال المدارس، وقدر الطبيعة.

لم يكن محمد شريف شخصاً. لايكشف إلا عن عقله (فلم يكن قلبه مغلفاً بجلدٍ مراكشيٍ أحمر)يصعب اختراقه، ولكن أمثاله يحترمون كفاحهم. ظل عازباً حتى اعتاد ان يظل هكذا فليس هو الذي خط مجرى حياته وقدره، فقد تغلبت حياته النضالية على فتوته وشبابه فانصرف على تثقيف ذاته ثقافة عصرية معمقة وذاق مرارة فراق العائلة متخذاً من ألأقبية الرطبة القاتلة، والأزقة التي يصعب التعرف عليها والتنقل في جنح الظلام أسلوباً للحياة، فسجن نفسه دون حكم قضائي، وظل اميناً وفياً لثورته حتى لحظة النصر! هذه الثقافة الذاتية وذاك النضال الطويل. صقلا وجدانه وعواطفه، فسمت إلى محبة الآخرين حباً منزهاً عن الأغراض الزائلة، كان محباً للشعر والآدب، ويحفظ الكثير من الشعر الفرنسي الكلاسيكي والمعاصر ذو الاتجاه الانساني ويفضل قراءة الأدب الروسي القديم. لقيمتة الإبداعية وبعده الإنساني، على قراءة الأدب السوفيتي ذي الصبغة الإيديولوجية، والإيقاع الإعلامي، معتبراً ذلك ابتعاداً عن أصالة الفن وشروط الإبداع الأدبي وإن كان أحيانا

يستثني بعض المشاهير الذي ظلت جذوة الإبداع والخلق متقدة في كتاباتهم. وشجاعة النقد تفوح من اسطر ما دونوه فالفن برأيه ليس واقعاً فحسب ولكنه رؤيا ونبؤة لواقع جديد افضل واحسن.

ومع ذلك كان محمد شريف يحسن اختيار المرأة التي يجاذبها الحديث. أو تكون صديقة له أو حتى مع المرأة التي يود معاشرتها أكانت جزائرية أو فرنسية أم من جنسية أخرى، كان شخصاً يجذب المرأة نحوه. بأناقته الدائمة وطلعته الأندلسية المكتنزة بطغيان الحس والجنس، وذلك لنبالة أخلاقه. وشخصيه الرجل القادر على حماية المرأة ودفنها في قلبه من غير خديعةٍ أو رياء.

وكنت عندما انظر لمحمد شريف. (أتاكد بأن الرجل مهما كان موقعه ومهما كانت ظروفه وثقافته، لن يكون في وقت من الأوقات. فارغ القلب من الحب!؟.)

قرية توقظ شاعر

سعيدٌ المرءْ الذي لا ينْظُمْ الشعر
وإنما يقضي عمره في جو هادئ
بعيدا عن الهموم والأحزان

"بوشكين"

- 1 -

لم أكن وصديقي الشاعر (عمر) نعرف أحداً عندما حط الرحال بنا في عنابة. الناس غرباء والمدينة غريبة يلفها الهدوء وتستحق من يعاكسها، ويتغزل بها ويسبر روحها. كل يوم كنا نكتشف طَرَفاً من جسدها الأنيق الوادع، نتلمس حجارة دورها، ومساجدها، وكنائسها، ونسير في ثنايا أزقتها الضيقة، وشوارع أحيائها الراقية، ونتمدد على رمال شاطئها اللين النظيف. ونسمات الخريف الباردة النظيفة، تغرينا بالبقاء حتى مغيب الشمس!.

كانت الأحياء العربية القديمة، تشدنا إلى طراز بنائها وطراز معيشتها. تجذب أنظارنا إلى نوافذها، وأبوابها العتيقة. بخضرتها

المهترئة. وبياض جدرانها اللامع، مع الصخب المحبب في ازقتها الحجرية. وتحت أروقة أسواقها البديعة! وحركة الساكنين الأُصَلاءِ بين جدران دورها. كانت تذكرنا (بالمورو) الذين تركوا الأندلس الذبيحة. واحياناً تأخذنا أحياؤها الحديثة حيث العمارة الاستعمارية ذات الطوابق المتعددة، والشرفات الرحبة المتقنة البناء، والزخرفة الخارجية الوثنية بجانب الأبنية الثقافية. والمعابد الدينية، ومقاهي الأرصفة ذات الكسل المحبب. ودور اللهو. والحانات التي لا تُحْصى. والتي تسكنها روائح الخمور الجزائرية التي لا مثيل لها.

لقد ظهرت عنابة لنا كواحدة من مدن طريق الحرير في المشرق، يتلاقى فيها تيار مشرقي أصيل، وتيار غربي هجين. من ثقافات الغرب كله. فكما أنجبت عنابة الكثير من مفكري التيار الاسلامي كذلك أنجبت أعظم مرجع ومفكر وقديس في تاريخ الديانة المسيحية (القديس أوغسطين) وكنيسته القوطية البناء والنموذج الثري للعمارة المسيحية القائمة في كنف المدينة.

مرحلة اكتشاف المكان كانت متعة لنا. وأغناءً لمعارفنا فكنا ندخل المساجد والكنائس كدور لعبادةِ إلهٍ واحدٍ، ونحن معتادون على ذلك في دمشق دون حرج أو وجل – ونجلس في المقاهي والحانات.لمشاهدة الناس. والتمعن في سلوكيات المجتمع. وكان الجنود الفرنسيون الذين لم يحن الوقت لرحيلهم الأخير. يتناولون القهوة في مقاهي الأرصفة بجانب أعداء الأمس الذين إعتادوا على هذه النماذج! وبدورنا كنا نستغرب ذلك فما زال حسنا القومي طازجاً وعاطفياً.

-2-

يبدو أن عمر في أكثر الأوقات يود أن يقول شيئاً. أو يضيع شيئاً، وكنت ألحظ ذلك بصمت. وعندما تتعب أجسادنا من السير نستقر في إحدى الاستراحات. نطلب شيئاً نشربه، كان عمر يدخن بنهم، ويشربُ القهوة بإسرافٍ. ويتحدث عن الحياة المعاصرة بكثير من الشاعرية والشفافية، والرغبة السريعة، فكأنه كمن وجد ضالته في هذه المدينة التي يمكنها اشباع رغباته الفكرية والوجدانية وربما الحسية ! هذه الرغبات الغائبة أو البعيدة عنه في دمشق (فأَعْتَقِدَ أنه قد أمسك الحقيقة وحده) وكنت أعرف في قرارة نفسي بأنه سيتمكن من أن يُوجِدَ لنفسه الجَوَّ الملائمَ لشاعريته. وبالتالي ستخرج (اللعنة) من ذاته عاجلاً أم أجلاً.

فساحة الحياة الجديدة واسعة ورحبة ومملوءة بالدوافع. فخلال شهر واحد استطاع عمر أن يخلق لنفسه كثيراً من الأصدقاء. وكثيراً من المعجبين. وأن يقيم علاقات اجتماعية تظهر عليها المجاملة الشخصية، أكثر من الحب والمودة الصادقة. لم يكن يتعبْ أو يَمِلُ من التعرف على الناس. وقد عاملني الناس كَظِلٍ له، وأحياناً كصديق. وكان هذا الأسلوب (الدون كيشوتي) يُدْخِلُ الفرح والنشوة إلى قلبه. ويجعله يقبل على الحياة بدافعية لا حدود لها، وكنت بدوري أُبْرِزُ هذا السلوك، كونه شاعراً فهو بحاجة إلى معرفة البشر، واكتشاف عالمهم الداخلي، كان شخصية انسانية لا تمكنها الوحدة من البقاء في غياب الآخرين.

وبجانب كونه متحدثاً لبقاً ومجيداً للمزاح إلى حد الصراخ. مضافاً إليهما مهارتين حديثتين. مما أضفى على شخصه نوعاً من التحضر

الواضح إجادته الحديث بالانكليزية وبلهجة اكسفورد، وتفوقـه في لعبـة (كرة الطاولة).

وربما استطاع عمر بهذه الروح الجديدة وهذه المسلكية الحضارية من قبل مَشْرِقِيٍّ. أن يُغيِّرَ نظرة أهل المدينة مـن الجزائريـين الذيـن ينظـرون إلينا (كشيوخ) مهمتنا تعليم العربية، كمـا تعلمتـها الأجيـال السـابقة في الكتـاتيب ذات الأزقـة المظلمـة وجعلـهم يقـتربون مـن حقيقـة تعليمنـا، وثقافتنا المعاصرة وحقيقتنا الإنسانية أيضاً، وإننا نمتلك أدوات الحضـارة كغيرنا.

كنت أصطنع الصمت في حضرة الأصحـاب الكـثر اللذيـن يحيطـون بعمر، ولكن حواسي وعقلي كانا في يقظةٍ تامةٍ لكل ما يطرح من الأفكار، وأتابع الحوار الساخن أحياناً حين يدور حول حاضر ومسـتقبل الجزائـر (وكان ذلك خبزاً محمصاً نمضغه كل يوم بتلذذ) فتندفع الأفكـار القوميـة عند عمر بعفوية المشرقي الذي يؤمن بمسـلماتٍ لا تحتـاج إلـى براهـين، ليصطدم بأفكار واراء جديدة. يُداخلها نوعٌ مـن الأسـئلة المشـروعة التـي تحتاج إلى أجوبة في غاية الموضوعية والواقعية. كـانت القوميـة هاجسـاً مشرقيا قائما على التاريخ. ولكن التاريخ لا يقرأ من قِبَلِ عقـولٍ وعيـونٍ واحدة.

إن القومية المدرسية التي نعرفها ونؤمن بها، كانت تعوزهـا معرفـة الاختلاف. أكثر من معرفة عنـاصر التوحـد، وكـانت النقاشـات تنتـهي بأسئلة دون أجوبة وبطروحات جديدة تحتاج إلى البحث والتفكير وطرد العواطف الجماعية، ليحل محلها تحليـلات عقلانيـة لا لُبْسَ فيـها ولا غموض. ولقد قادني احساسي – بعد طـول الجلسـات المحمومـة – [ان

عمر يبحث عن (شُهْرَةٍ مُشَوَّهَةٍ) ولكنه يتلذذ بها لاثبات الذات الغائبة عن ترابها والتمسك بالأفكار التي حملتها هذه الذات. ودافعت عن صحتها سنين طويلة.

لم يعد يكتب شعراً في ظل العلاقات الجديدة المحمومة فهي تأخذ أكثر وقته المفتوح، ولا تترك له مجالاً للتأمل، والحياة بشكل عام صارت له رخوةً لينةً لا تحتاج إلى البحث والتفكير عن عوالمَ أفضلَ واحسنَ. لقد غرق الشاعر في حقائق عالمه الجديد، ولم تعد تهمه مجريات الأحداث في عوالم أكثر إغراقاً بالاشكالات، والأحزان صارت له أكثر من صديقة.

يقابل واحدة في مقهى عام، وأخرى في بار قديم تطل نوافذه الصغيرة على أمواج البحر. يشاطرها كؤوساً من الخمر. وثالثة رفيقةَ دَرْبٍ يعرفها على أصدقائه بشجاعة المحارب المنتصر. ويتناولون جميعاً مشروباً على رصيف مقهىً مملوءٍ بطبقةٍ عُليا من الناس.

ولكن قلبه استقر أخيراً على شابة تساكنه البناء، وتشاطره العمل في المدرسة كان دائم الحديث عنها – في فترة متأخرة جداً – إلى درجة الخوف بألا تسمح له الظروف من الاقتران في نهاية المطاف! وقد جالستها مرة برفقته فعرفت مدى حِرْصِهِ عليها. ومدى شاعريته، وعذوبة ذوقه في اختيارها. كانت خجولةً فيها لطفٌ وبراءة الطفل، ومسحةٌ من جمالٍ متوسطيٍ تختبئ في تقاطيع وجهها الواضحة (كانت هالة حب العذارى تحيط بها من كل جانب).

لقد بدأ عمر يخرج من ذاتــه شـيئاً فشـيئاً عندمـا اسـتقرت عاطفتـه الطافحة. وأصبحت جدولاً عذباً واحداً يتسرب في بستان وجدانه فعـاود اختيار صداقاته. ورجع إلـى مجالسـتي مفضـلاً وحدتنـا الدائمـة، يقـرأ أثناءها بعضاً من قصائده الغزلية القديمـة وبعضـاً مـن مختـاراتٍ شـعريةٍ عربيةٍ أخرى كان يحفظـها، فـأصبح أسـلوبه في الإلقـاء معـبراً، هادئـاً، متزناً، كأسلوب حياته الجديدة التي صبغته بلون الرجل المحافظ الـذي يحب امرأة من نفس طرازه، ولكنه يبدو حزيناً عندمـا يصـارحني بعـدم قدرته على كتابة سطر واحدٍ نثراً أو شعراً عندما سكن عنابة فكنت أوكد له : بأنه سيكتب يوماً ما. عندما تنضج ثمار التجربة في حياته ووجدانه فَلُغَةُ الشعر لا تتشكل على الورق، إلا إذا استقرت في الأعمـاق الداخليـة للإنسان.

- 3 -

ولكن مشكلة عمر الكبرى أنه لم يُخْلَقْ ليكـونَ معلمـاً، فقـد فرضـت المهنة نفسها عليه كسباً للعيش فقط، كان الطريـق إلـى المدرسـة صباحـاً كالطريق إلى المقصلة. والخروج مساءً من المدرسة طريقاً الحرية والانطلاق والانفتاح على الأخرين، ومشاهدة من يحب على طريقتـه الخاصـة، لـم يجد عمر مخرجاً من العمل ولم يجد مخرجاً من ضجيج المفتشـين الذيـن يحضرون صفه ويقدمون له تحذيرات كتابية لاذعة كان يتـألم منـها كـل مرة، وعندما جاء الصيف تنفس الصعداء وانطلق بفرح.

لقد قضينا بعضاً من الراحة الصيفيـة علـى شـواطئ عنابـة الذهبيـة ورغم أني كنت أعاني انكسارا نفسياً، دون أن أصرح بــه لأحـد إلا أننـا كنا كقراصنــة المتوسط لا نـترك موجـةً إلا نركبـها، ولاسـفينةً الا نفتـش

ركابها ونسرق نساءها،كنا لانترك استراحةً إلا ندخلـها، ولا نادياً ليـلاً إلا ونـترك فيـه آثـاراً لـهمومنا وغربتتنـا. كـان البحـر صديقنـا وعزاؤنـا الوحيد، والأجساد المكتوبة بأشعة الشمس، طريقنا للاسـتمتاع بالخليقـة الالهية.ولكن هذا المرح لم يدم طويلا لعمر، فقد تلقى اشعارا مـن مديريـة التربية يفيد بنقلة إلـى قريـة بعيـدة. نحـو جنـوب عنابـة (مونتسـكيو) فأصابه الذهول، وداهمته الكآبة والقلق، ولم يستطع رغم تورسيط البعض من معارفه، من الغاء هذا النقل، لم يكن ذلك تأديبـا علـى عمـل اقترفـه عمر، بقدر ما كان نفيا حقيقيا عن الحياة التي تأقلم في وسطها وجوهـا. والتي أراد أن يكون ذاته من خلالها، بعد أن نضجت عواطفه، واكتملت بعض تجاربه وأصبحت لديه القدرة على متابعة الكتابة، التي هي أصـل حياته، وفوق ذلك الابتعاد عمن يحب، وهو لا يسـطيع فراقـاً لـها! هـا هي الوحدة القاتلة، تعود من جديد إلى وجوده، وهو الخائف منها إلـى حد الارتعاش، لقد كان الشاعر الفرنسي (سـان جـون بـيرس) صادقـا في حال عمر عندما كتب في أحدى قصائده قائلا:

الوحدة في قلب الإنسان

ياله من إنسان غريب بلا شاطىء

بجوار امرأة تعيش على الشاطىء

اقتنـع عمـر مرغمـاً، بالذهـاب، بعـد أن حَدَّثَتْـهُ صديقتـه بـالأمر، ووعدته أن تلتقيه في نهايـة كـل أسـبوع، أمـام محطـة القطـار، ليقضيـا العطلة معاً . لم يكن لديه خيار آخر، إلا الوداع الأخير، وحالته النفسية لا تسمح له بذلك.

كان عمر في القرية النائية. وهو الذي اعتاد حياة المدن الكبرى، والصداقات للكبرى والأجواء الاحتفالية الكبرى، التي تؤكد الذات،ولو كانت مخادعة أحيانا،ولكن القرية لجمت قلقة، ودربته على الصبر والاحتمال. والعيش في مكان أضيق مما يحب ويعشق، ولكنها استطاعت أن تفجر فيه طاقة الكتابة من جديد!.

وكانت قصائده تصلني تباعاً إلى عنواني الدائم في المقهى الذي نحبه. وكانت بعض العطلات تسمح لنا بالبقاء معاً لفترة أطول، وهو مُحَمّلٌ بكل شيء كتبه. ليقرأه في مسامعي، ومسحةُ حُزْنٍ تظهر على وجهه. وعينيه المرطبتان بالدمع. وراء النظارات التي يلبسها. لقد جعلت منه الآلام الكبيرة. بين الريح والثلج والمطر. والجو المتجهم القاسي في القرية. رجلا كبيرا أيضاً وشاعراً إنسانياً دون يأس أو قنوط. وآنْسَتْهُ الكتابة بعضا من همومه القاتلة.

ومدينتي (تشتاقني)
فيشد أعصابي الرغيف
والحزن يجترح الجدار ويختفي خلف الجفون
عامٌ مضى. ويمر آخرُ. متعب قلقٌ
ودمشق ما مسحت أسىً عن الجبين

هكذا بدأ حزن الغربة عند الشاعر. حتى تقرحت العيون، وذبلت الجفون من الأسى. ولكنه لم يقدم على عامه الأول الذي قضاه في عنابة، واعتبره فاتحة العهد بالحياة. ذات المذاق الحلو، ولكنه ينصهر من التعب والقلق في عام النفي الآخر. مناشداً دمشق التي يحبها ويعشقها كي تمسح الأسى والاحتراق عن جبينه. الذي أضناه الشوق. فدمشق هي

الأم والحبيبة التي يناديها الشاعر في كثير منقصاً أنها مرتع والشباب والتهيؤ لمغامرة الحياة.

فدمشق لا تجر مشاعر محبيها وعشاقها وإنما تزيدهم وَلَهاً بحياتها وجمالها!

حتى الصحاب يذكرهم بحياته كي يذكروه رغم نفيه لذاته الخاصة وهي فضيلة اكتسبها من لهيب البعد عن حبه وذكرياته.

آهِ صِحابي ما لذكرى وجود.
رحلت أقاصيصي معي.
ما عاد لي غصن وكلمات وورق.
وحكاية عبرت وشوق.
ولهيب أنثى تستريح بمخدعي.
أه صحابي.. لا تلوموني فما زالت على ورقي حروف.

ويتصاعد أسى الشاعر كلما أوغل في الكتابة وكلما طالت غربته فيبدأ مناجاة الماضي لعله يقدم له عوناً الرؤى – البيت والأخوة – الأم – الحبيبة. ولكنه يعترف بأن ردحاً من عمر قد تمزق واحترق من قساوة البعد وجفاء الحياة.

لا تجرحيني يا رؤى.
لي غربتي تحنو علي إذا حزنت.
لي أخوتي جسر إلى الدنيا.. وبيت.
لي أمي (الثكلاء) تزحف نحو قبري.
لتضم في صدر الثرى المقهور عمري.
لي خلف صلبان المدى المجهول حب.

ولكن ألم هذا الشاعر المعذب صنع منه كائناً انسانياً جديداً بعــد أن أستطاع بإرادة طيبةٍ وعزيمة حديثة – من احتياز وتخطي الألم مخلفاً كل شيء وراءه دونما التفات. وتابع حياته في غربةٍ طويلة قادته إلى الغـرب حيث حصل على درجة الدكتوراه في الأخراج المسرحي.

وقد استضافته الجزائر عدة مـرات، في مؤتمـرات الأدبـاء والشـعراء العرب. فكان واحداً من المبرزين، في الأدب والشعر، وكان يعتـبر نفســه عندما يصل الجزائر واحداً من أبنائــها القدامـى، الذيـن قَسَـتْ عليـهم، ولكن ذكراها بقيت دافئة في قلبه وفكره فلم ينس ترابها وجمالها وحبـها وقساوتها أيضاً.

لقد احتضن عمر اسم (عنابــة) و(مونتيسـكو) كعلامتـين بـارزتين في حياته الخاصة وبقيتا في ذهنه رمزاً لحقيقة الإنسان،(وبقي الحب الذي جَرَّبَهُ في عنابة كإنسان. وسيطاً بـين كـل الأشـياء والتـاريخ) كمـا يقـول الشاعر بيرس.

تعليم بلا جذور

(التّحديثُ في التربية، هو مُمارسةٌ للْعقْل، في الدّولة. وفي الأأفْراد.)

آلان تورين

-١-

من الصعبِ اختصارَ بعض سنوات العمر في صفحات كتاب، دون أن يقفز الإنسان متجاوزاً الأحداث اليومية العادية. والأيام التي لم تُقَدِّمْ له تجربةَ جديدةَ أو معرفةً جديدةً. فالأحداث الهامة في الحياة هي التي تترك بصماتها بقوة، وبذلك تستحق التدوين، وعندما تأتي الأحداث متأنية وفاعلة فإنها تُحْفرُ في الذاكرة، وتستقر بها كنبات مزروعٍ، وأحياناَ يجري الحدث مُعَدِّلاً مجرى تيار الحياة كلها فيصبح بالتالي أسلوباً يتخذه الانسان مَسْلكاً، يمشي على ضوئه اذا ترسخت القناعة بجداوه وصدقه.

ليس صِدْقاً كاملاً اذا قلنا: إن وجدونا في الجزائر كان بدافعٍ قومي صرف رغم انه سبب قومي – ولكن الاقرب للصواب، أننا ذهبنا للعمل

في بلد يبعد آلاف الكيلو مترات لرفع سوية عيشنا، ورقينا المادي، فأكثرنا كان بأمس الحاجة لذلك، إضافةً لاكتشاف بلد عربي كان بالنسبة لنا حلماً! لا يمكن تحقيقه ضمن الظروف المادية المتدنية لطبقة المعلمين، أو المتعلمين. والكثيرون ممن عملوا في الحقل التربوي من زملائنا عادوا بعد سنوات من الخدمة، بحالة ماديةٍ جيدة، ولكنهم لم يبلغوا ذلك إلا بالكثير من المعاناة الجسدية والحرمان الذي وضعوا أنفسهم فيه. والابتعاد عن الحياة العامة، لقد عاشوا سنواتَ خدمتهم دون ان يترك فيهم أثراً إيجابياً في أنماط حياتهم وسلوكهم، أو منهج تفكيرهم. حتى في طرق وأساليب العمل الفعالة التي انغمسوا فيها، وعرفوا وقتها مدى أهميتها على حياتهم العملية القادمة،فقد تركوها على أرض المطار الذي رجعوا منه إلى بلادهم، والقليل ممن شاهدت بعد سنوات في الوطن، ظل أميناً على الخبرات المفيدة التي اكتسبها خلال غربته.

- 2 -

كانت الفرصة كبيرة ومؤاتية لجميع المعلمين العرب. ومن كافة الأقطار. كي يؤثروا ويتأثروا بالمجتمع الجديد الذي عاشوا في وسطه وعملوا في اخطر قطاعاته، وأكثرها حساسيةً، إنه قطاع التعامل من الجيل صاحب الجزائر القادمة، ولكنهم مع الأسف، ومع مرور السنوات. لم يستطيعوا أن يتركوا أثراً واضحاً وملموساً فبقي المعلم العربي ذو مهمات محدودة وتكميلية فقط. لقد حَجَّمَ النقص الهائل. في تكوينهم الثقافي والمهني وقدراتهم الفكرية النظرية التي لم تخضع للتجريب حَجَّمَ

ذلك من دروهم بل وجدوا أنفسهم عاجزين. امام طرائق وأساليب جديدة لم يعهدوها من قبل. وإن سمعوا بها فقط من خلال الكتب النظرية.

لقد دخلوا المدارس الجزائرية تاركين ورائهم تجاربهم الماضية ليخوضوا غمار تجربة متقدمة عليهم بسنوات طويلة، وبدؤوا يتلقون تعليمات تربوية كانت تدهشهم أحياناً، وتحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ كي تُفَسَّرْ، ومع ذلك ومن خلال الواقع عمدوا إلى تطبيق ما مروا به بكثير من الجهد والعَناء. وغالباً دون فهم واضح للأهداف التي وضعت من أجلها تلك التعليمات.

كان من الصعب على معلمين تقليديين – أمثالنا – اختراق بنية الحياة المدرسية الجديدة ومحاولة الاقتراب منها، ودراسة أسسها وبنيتها التربوية التي قامت عليها. جئنا لنعمل كما نَعرْفُ. ولم نتوصل إلى حقيقة: (أن الجزائر وقد أقضَّ مضجعها الصراع الدموي الرهيب الذي عاشت فيه آخذة بالبحث عن خلاصها لدى المدرسة الحديثة التي هي عماد أمانها ومستقبلها فلا بد في هذه الحالة من ايجاد المدرسة النموذج والمعلم النموذج أيضاً).

فاحتارت الإدارة التربوية، وأصابها بعض الاضطراب. ولكنها قررت أخيرا أن تدمج معلميها غير المؤهلين مع الكثير من المعلمين القادمين في دورات للتأهيل التربوي. ليصبح العمل التربوي موحداً في طرائقه وأساليبه ورغم الجهد فقد بقي الوضع التربوي خليط من كل الاتجاهات. تقليدية أو مجددةً وسارت الأمور بطريقة عرجاء دون عصاً تتكأ عليها خوفاً من السقوط.

لقد واجـهنا نقـداً عـاليَ النَّـبَراتِ مـن مديـري المـدارس. ومفتشـي التعليم. وكان نقداً مبرراً من كافة الوجوه. فالميدان التربوي الجزائري لا يحتاج إلى الوقوع بالخطأ المستمر وإعادة الإصلاح. بل هـو بحاجـةٍ إلـى الجلوس من أول الطريق على أسس متينة وصالحة وعصرية أيضاً للنظـام الاجتماعي والعقائدي وهـذه الأساسـيات الصالحـة لا يمكـن بناؤهـا دون كَوادِرَ متخصصةً وقادرةً على قيـادة العمـل الـتربوي بـأفق رحـبٍ واسـعٍ ومرنٍ. يراعي الأساليب والطرائق الحديثة دون إبطاء، وينفذ إلى تطويـر العملِ واتقانه مـن أجـل المسـتقبل. لـهذا كـانت التقـارير مليئـةً بـالنقد اللاذع. للأساليب القديمـة الباليـة التـي نسـتخدمها في تدريـس اللغـة، ولتدني مستوى العمل وعدم تجويده، وانخفاض ناتجه، وكان القليل من معلمي المشرق ينالون استحقاقات جيدة، في ميدان العمل الصفي، وَتُجَدَّدُ بذلك عقودهم تلقائياً. ولقد استطاع هـذا النفـر مـن المعلمـين أن يفرضـوا احترامهم على الجهاز التربوي لأنهم تمكنوا من خلال تجاربهم التعليمية السابقة، ومتابعتهم لفصـول التـأهيل الحديثـة، مـن اسـتيعاب المضمـون العملـي للتربيـة الفعَّالـة والمبدعـة. وخاصـة مـن كـان منـهم يتقـن لغـةً أخرى!؟.

كانت مهمتنا في الجزائر، أعقد مما كنـا نتصـور. كأنـاس واجبنـا التعليم المدرسي فقط. موازياً لهدف السـلطة في التعريـب كـهدف وطنـي وعقائدي، ولكن الواقع الذي لمسناه لم يكن سـوى تحـدٍ بين شـريحتين واضحتين ومحددتين تحديـداً دقيقـاً، شـريحة المدافعـين عـن التعريـب كهدف نهائي. وجعل المؤسسات والإدارات معربةً كلياً، والدفاع بالتالي

عن هوية الجزائر العربيــة مـن خـلال إعـادة الاعتبـار للغتـها الأصليـة، وشريحة المدافعين عن اللغة الفرنسية، كلغة دولية حضارية. تدرس بها أدوات المعرفة العلمية والتطبيقية المعاصرة، وهي لغة سائدة بين السـكان ومتداولة، ويمتلكها المثقفون، ويكتبون بها أيضاً، وهم يفضلون أن تكون العربية في المدارس. مـادةً لغويـةً فقـط، يمكـن الحديـث بـها في الحيـاة اليومية. والحياة الدينية، ولكنها ليست لغةً للتفكـير العلمـي. والإداري الحديث. ويعتبرون التعريب كهدف استراتيجي للدولة تراجعـاً لا مـبرر له.

وقد وقعنا نحن معلمي المشرق بين رحـى العـراك الفكـري، دون أن ندري. وجُررْنا نحو المجابهة مُجبرين، وأصبحنـا مُسْتَهْدفين. ويُشـار إلينا بأصابع الاتهام، ويُنظر لعملنا بالريبة والشك!، دون أن نكون على استعداد لذلك الصدام. وفي كثير من الأحيـان. كـان المعلـم يقـع ضحيـة مشرفين وإداريـين. لـم يسـتطع تحديـد هويتـهم واتجاهاتـهم الفكريـة، يَقْبَلونَ منه كلّ شيءٍ يعمله مسجلين عليه نقاطاً لغير صالحه، ويعتبرونه مكافـأة علـى صلاحيـة أفكـارهم. يتـهكمون بـها علـى منفـذي عمليـة التعريب. ومفاهيمهم الفاسدة، ولغتهم الجاهلية!.

وكان في الجانب الآخر من الصـورة، التـي لـم نكـن نعيـها جيـداً، صورةً استعمارية مرسومةً بطريقة دقيقةٍ وذكية، ويمكن رؤيتها مـن كافـة الزوايا هي: أن فرنسـا لا تريـد أن تخسـر كـل شـيء في الجزائـر دفعـة واحدة. فالتراب والثروات لـم تعـد ملكـها. ولكنـها تـود تـأكيد بقائـها ووجودها بمتابعة (فَرْنَسَةِ) العقـل الجزائـري، وجعلـه مرتبطـاً بثقافتـها العصرية الواسعة الانتشار.

(فالغرانكوفونية) هي فلسفة فرنسية حوارية، بعيـدة عـن الصـدام، تدخل من النوافذ بدلاً مـن الأبـواب المغلقـة، والأدوات الحضاريـة التـي تملكها الـدول التـي استقلت عنـها. لتكويـن اقتصادهـا وتطويـره، مـن الأفضل أن تكـون فرنسـية، لأن التـاريخ يدعـو إلـى ذلـك!؟، مـن هـذا المنطلق. كان الفريق الفرنسي في الجزائر، أكثر قوة، وأكثر عملاً، وأشـد تداخلاً في تكوين الإدارات الحديثة وتطويرها، من الفريق العربـي الـذي كان اهتمامه منصباً حول تأكيد الهوية والعودة إلى التراث الثقـافي، دون البرهـان عـن الكيفيـة، التـي يـدار بـها الاقتصـاد الحديـث، والإدارة الحديثة. ودون الاعتماد على الذات الوطنية، والعلوم الوطنيـة التـي لـم تنجز بعد.

لقد كان مدير مدرسة (أناتول فرانس) الجزائري في عنابة على حق، عندما حدثني باستغراب يشوبه الغضب على معلمٍ مشرقي. قَدَّمَ لتلاميـذ الأول الابتدائي كل حروف الهجاء العربية في حصة واحدة. وفي الحصـة الثانية علمهم جملاً تحوي أسماءَ لمدن وبلـدان عربيـة لـم يسـمعوا بـها، مضيفاً بأن أي كتاب مدرسي في العالم لا يصلٍ إلى مثل هذه المهارات إلا في نهاية العام الدراسي!!؟.

ومـن الممكـن ملاحظـة مـا يجـري في العـالم الآن – لشـيوع وسـائل الاتصال السريعة والفعالة – لنعرف مـدى الصـراع القـائم بـين الثقـافتين الانجلوسكسونية (الانكليزية) والغرانكوفونيـة (الفرنسـية) علـى مسـتوى العالم كله فكل واحدة من اللغتين تحتضن (كومونولثا) خاصاً بها تشجعه وتقدم له كل الوسائل الممكنة لا شاعة لغتها وثقافتها، وبالتالي أسـاليب حياتها وأنماط تفكيرها، ثم تبعيتها بشكل أو بـآخر لمنظورهـا السياسـي

عن العالم. وبمزيد من الصدق وطرح الحقائق والنـأي عـن أيـة حماسـة انفعالية لم تكن مؤهلاتنا بمستوى التحدي الذي واجهناه فكنا كمن يلقي موعظة في الصحراء، ويطلق صيحاته في الأدويـة، وإن يكـن الكثـير منـا أجادوا أعمالهم بكثير من الشجاعة والإخلاص.

وبعد ثلاثة عقود من الجهد ما زالت اللغة العربية في الجزائر قاصرةً على المواد النظرية والعلوم الإنسانية، وما زالت العلـوم التقنيـة المعـاصرة بكافة فروعها واشكالها – وهي المعيار الحقيقي للتقـدم – تحضنـها لغـة اخرى. يعمد خريجوها إلى النزوح نحـو الدولـة التـي أبـرزت كفاءاتـهم المعاصرة ومناهجها التطبيقية العملية والفعالة تاركين وطنهم الذي حضن عقولهم بكثير من الحب والأمل وقد ملأ أيديهم بالحقائق وهـم يمتنعـون عن فتحها له. وليس عيباً إذا استعنا بقول (اللـورد هيلشـام) البريطـاني عندما دشن مدرسة قائلاً (لا يمكن صنع رجال ونساء من الدرجة الأولـى بدون نظام تعليمي من الدرجة الأولى).

التدوينات الثالثة

في قالمة بين أحضان السيف والقلم

1- قالمة : بلدة تحب الحياة
2- إسماعيل : دعابة الحياة يمزقها الحزن .
3- مصري يداعب الحقيقة
4- ام كلثوم تغني قالمة
5- جان كلود : حكيم يداوي الفقراء
6- رمضان قالمة : (عودة الروح)
7- قالمة : فريق كروي مغرور
8- قالمة : انتحار في النبيذ
9- قالمة / عنابه : القاضي وشباب الكهولة
10- قالمة : شخصيات لا تنسى .
11- السي صالح : حقا رجل جزائري .
12- الاستاذ محمد : حلم ساذج .
13- كاتب ياسين يهديني (نجمة)
14- العم بو جمعة .
15- جميلة .
16- بين بيلا : يسقط في قالمة .
17- الجزائر لا تودع السلاح .

قالمة بلدة تحب الحياة

(منْ لمْ يشهد الطريق عند الفجـر. بيـن هذين الصّفين من الأشجار. شـديدة الانتعاش. شـديدة الحيوية. لا يدْري ما هو الأملْ)

جاك دولاكروتيل

- 1 -

كثيرة هي المدن والبلدات. والقرى الجزائرية. التي تـترك انطباعاً مميزاً لدى زائرها. أو العامل بها. وخاصة من زوار بلدان المشرق البعيدة عنـها. والتـي لـم تكـن تعـرف بأسمائها إلا علـى الخارطـة الجغرافيـة الجافة. ولكن من يعايش هذه الأماكن بسكانها. وعاداتهم. وتقـاليدهم. ولهجاتهم الخاصة بهم. فإنــه يـزداد تعلقـاً بمعرفـة شـؤونها الخاصـة. ونكهتها الحقيقية على نطاق أوسع وأرحـب. لقـد عاشـت هـذه الأرض الذهبية. طيلة القرن الماضي. ومنتصف قرننا هـذا. تحـت تـأثير ثقافـةٍ وافدةٍ غربيةٍ واستعماريةٍ. وتركت بصماتها في كـلّ مكـان. تحـت تـأثير القوة الضاغطة بعنف على حياة المجتمع. وثقافته الخاصة.

ولكن هذه الأماكن، تُشعِرُكَ بالدهشة والاستغراب، حيث تعرف بأن أهلها ما زالت لديهم القدرة العظيمة للتمسك بأساليب حياتهم الخاصة المميزة، النابعة من تراث الدين، وتراث اللغة، وقوانين العرف والعادة المتجذِّر عبر آلاف السنين، وتبدو لك تلك الشريحة السكانية التي وقعت تحت تأثير التيار الفرنسي الوافد، شريحةً ذاتَ مظاهر براقة، ولكنها خالية من المعنى والأصالة، جوفاء في حياتها، وأحياناً مرتبكةً في أساليب تفكيرها، فكأنها مصابة بفصام الشخصية الاجتماعي، لأنَّ حياتها المنزلية الخاصة تبدو أكثر محافظةً، ولما كُنْتُ واحداً من الشرقيين، الذين عملوا في هذه البلدة وقضيت شطراً من عمري فيها، فلا بد أنها تركت أثراً لا يمحى في حياتي، فما زالت هذه البلدة حتى هذا الوقت، جزءاً من الحنين العام إلى الجزائر كلها، هذه البلدة (المدينة) التابعة لولاية عنابة، والواقعة على السفوح المنحدرة الخضراء من جبل (دباغ) والتي تُسَوِّرُها السهول، والهضاب اللامحدودة، والتي تعيش وتشتهر بزراعة الحبوب والزيتون، حتى عُدَّت في زمن الرومان "مستودع القمح الروماني" واكتسبت اسمها منذ ذلك التاريخ، هذه البلدة ما زالت عظمتها التاريخية قائمة حتى الآن، مُمَثَّلةً بالمسرح الروماني، الذي يزين وسطها، والذي يتسع لعشرة آلاف متفرج، وقد بقي تقريباً على حالته السليمة دون أذى كبير، حتى مقصورة الحاكم الروماني للمنطقة، بقيت في أعلى المسرح تشدها الأعمدة القائمة، والتيجان المبهرة.

وإذا ما أدخلك الرجل العجوز المسؤول عن المسرح، حاملاً مفاتيح حديدية ثقيلة بين يديه، تسمع صريرها في كلِّ الأرجاء، فإنك تصبح قصير الهامة، أمام هذا الصرح الهندسي البديع، الذي يذكرك بالمسارح الرومانية في المشرق كبصرى الشام وغيرها. يدخلك هذا القيِّم العجوز إلى

فناء المتحف الداخلي القائم في ركن جانبي من المسرح. وقد كان قاعة للممثلين الذين يَتَحَضَّرون للدخول منه إلى المنصة. حتى تجِدَ نفسك أمام مجموعة كبيرة من الآثار الباقية، كالأسلحة، وأدوات الطعام والزينة، والألبسة الرومانية المزينة لجدران القاعة، وبعدها يَلْفِتُ انتباهَك إلى الأداة الوحيدة في العالم، والتي كان يحملها (نبتون) اله البحر، وهي عبارة عن رمح حديدي طويل، تعلوه شُعَبٌ ثلاث. تشبه شوكة الطعام، ثُمَّ يعرج بك (القيِّم) إلى دهاليز الأُسود المفترسة وحجراتها. التي كانت تصطاد العبيد. والمحكوم عليهم بالموتِ تحت سُدَّةِ المسرح. وعندما تقف على المنصة مواجهاً المدرج المتعالي. فكأنك تستدرج التاريخ كله نحوك، ونحو صوتك. الذي يُسْمَعُ من كل صوبٍ واتجاه.

وتتساءل في نفسك. كم من المسرحيات أقيمت هنا؟! وكم عبداً و محكوما نهشت الأسود جسده أمام تصفيق الحضور ومرحهم؟! وكم راقصة. أو مغنية. أشبعت وأججت عواطف البشر الجالسين على المقاعد الحجرية المتقنة الصنع إلى حد الكمال. وكم من زائرٍ جلس بجانب الحاكم يستمعُ إلى الشعراء المجيدين في ذلك العصر. وكل ما تراه وتحسه. لا يخفى عنك كونه جزائرياً صرفاً. فالأيدي الصانعة للحجارة والأعمدة والتيجان والأبواب والمقصورات هي أيدٍ وطنيةٍ. والدماءُ التي سالت على ساحة الأسود. وخارج نطاق أسوار المسرح كله، كانت دماء جزائرية والروح التي زَرَعَتْ وانبتت المحاصيل الوافرة كانت روحاً جزائرية استطاعت أن تستقل بأرضها وترابها دون الرومان وغيرهم من الغزاة.

- 2 -

الطريق الطويل من عنابة البحرية، نحو المرتفعات الصعبة الملتوية، ذات الخضرة الداكنة يترك وراءه كثيراً من القرى والدشرات الصغيرة، ليصل إلى قرية (هيليو بوليس) مسكن الرئيس الجزائري الراحل بومدين، وهي آخر قرية على الطريق بعدها صعوداً إلى وسط قالمة. حيث الفنادق الصغيرة، والمقاهي على الجانب الأيمن من الطريق، تتلاصق مع بعض المحلات التجارية الصغيرة، والمطاعم التي تعد وجبات الموظفين والزوار، وتستقبلك على الضفة الثانية محطة الوقود، تزود أرتال السيارات القادمة والمغادرة.

وحين تهبط وسط الشارع متعباً فما عليك إلا الاستراحة في أحد المقاهي، أو ترتاد حديقة البلدة الرصينة، على يسار الطريق هذه الحديقة التي تنبسط على مساحة واسعة من الأرض، والتي تخلو عادة من الشبان، تاركة مكانها للشيوخ والكبار، حيث يرتاحون ويدخنون ويثرثرون.

حديقة مملوءة بالتماثيل الرومانية المرمرية، والتي حُطِّمَ بعضها وما زال آثار الحطام على الأرض، لأن بعض سكان البلدة، اعتبروا ذلك رمزاً للكفر والوثنية، وهي مخلفات استعمارية، يجب محوها! دون إدراك لما يفعلون، كانوا كمن يحطم تاريخ بلده بيديه. ولكن العقول المستنيرة أوقفت هذا العمل المستهجن، وحافظت على رونقه وجماليته بعد إصلاح ما يمكن إصلاحه.

تستريح في الحديقة دون أن تشعر بالزمن. فالهدوء شامل والطيور والعصافير بكافة أنواعها. لا تغادرها، ومياه النوافير الصغيرة. المصطفة على جوانب الأحواض الوردية، تقدم للزوار ماءً زلالاً، وقد عودتني أيام قالمة. أن أقضي وقتاً مفيداً. وساكناً تحت الظلال الوارفة للأشجار المتشامخة الدائمة الخضرة، مع كتابٍ أو دفترٍ وقَلَمْ، هارباً من أدران العمل، ومعاشرة الناس، ولقد كانت السعادة تغمرني حقاً، في أيام الشتاء الباردة القاسية. حين أسير في داخلها إن كانت مفتوحة الأبواب، وأتأمل جمال الخليقة الطبيعية عندما تكسوها حلة الثلج الأبيض فتسكن النوافير وتهرب العصافير إلى حيث الدفء، كانت الحديقة. قلقة للطبيعة الصامتة الخلابة. ومرتعاً للحياة المشرقة بالأمل والضوء مع إشراقة الشمس نهاراً أو بزوغ القمر ليلاً.

- 3 -

الغرفة الوحيدة التي أسكنها، كانت ملكاً للبلدية. تقع خارج البلدة القديمة. حيث كان الفرنسيون يقطنون، في حي ملئ بالدور الخاصة المسورة بالحدائق الوردية، وكان القليل من سكان البلدة يجاورون سكن الفرنسيين. كانت غرفتي واحدة من الغرف الكثيرة المؤجرة. في البناء ذي الطابقين وكان الطابق الأول مخصصاً للمحلات، وبائعي الأغذية ومقهى صغير دافئ.

كنت أمتلك في الغرفة سريراً حديدياً يتسع لشخص واحد كأسرة الجنود. تُجاوره خزانةٌ صغيرةٌ لها باب لا تفيد إلا للأشياء البسيطة، ومغسلة عليها صنبور ماء واحدة، تُجاورُها نافذة تطل على الشارع مع شرفة صغيرة. تصلح للاتصال بالعالم الخارجي في ليالي الصيف

المحرقة. كان الجِوارُ كلهم يدخلون من باب خارجيٍّ واحدٍ. ويشتركون في حمام واحد.

كانت الغرفة بالنسبة لي عالماً صغيراً، استطعت تأثيثه بشكل متواضعٍ. فأضفت بضعة كراسي، وطاولة للطعام وللكتابة معاً. وبساطاً تحاشياً لبرد الشتاء القارص، وبضعة أغطية صوفية وشراشف بيضاء، ومناشف. وعلقت بعض اللوحات على الجدران، مع إنارة أرضية خافتة مما أضفى عليها جواً. يصلح للنوم والقراءة والتأمل واستقبال عدد محدود من الصحاب.

كانت الغرفة مجانية. تَقْدِمَةً من البلدية، والحقيقة أن رواتبنا، لا تسمح لنا إطلاقاً بالقدرة على الاستئجار. فكانت فرصةً لتوفير بعض النقود للحصول على متطلبات أخرى للحياة، أو ارسال ما يزيد باتجاه الأسرة والأهل. الذين هم بمسيس الحاجة لذلك، ولكن من النادر أن يزيد شيئاً!

في قالمة تريدك أن تعيش كما تعيش هي. وتشرب كما تشرب، وتأكل مما تأكل، وأن تظل أيضاً في لباسك. وترتاد الأماكن الجيدة، كلّ ذلك أنت محاسب عليه، في بلدة مدللة على أصحابها.

كنتُ في قالمة أشاهد كلّ الأفلام التي تعرض على شاشتها الوحيدة (دار الخيالة) والتي يفصلها شارعٌ للسيارات عن مسكني، وكان هذا الشارع يمتد نزولاً حتى المدرسة المهنية التي أعلم فيها (C.N.E.T) وكانت هذه الدار تعرض شريطين كلّ أسبوع. وغالباً ما تكون أشرطة فرنسية أو أمريكية. ولكنها أحياناً تقدم شريطاً مصرياً قديماً أو حديثاً، وكان الفيلم المصري السائد في ذلك الوقت بغياب الأفلام العربية،

والشريط المصري المعروض مهما كانت سويته الفنية، كان يعد مهرجاناً للعائلات في البلدة. ومهرجاناً للعاملين العرب في البلدة، فكنتَ تجد البعثة المصرية بكاملها تتصدر أماكن الجلوس فرحةً بالشريط الذي يذكرهم بعالمهم الخاص ووطنهم. وكان الازدحام يبقى مدة العرض بكاملها. كان الجزائريون وخاصة النساء منهم، يفضلون مثل هذه العروض ويشعرون أنها غير بعيدة عن قيمهم وعاداتهم، رغم صعوبة فهم

اللهجة المصرية على الجزائريين، ولكن الملفت للنظر هو الحب الشديد لمشاهدة كافة الأفلام من قبل البعثة الطبية الروسية العاملة في البلدة. كانت السينما إحدى متعهم المفضلة وكان ذلك بالنسبة لهم فرصة لا تعوض، لمشاهدة أفلام الغرب، التي كانت غير متداولة في بلدانهم، أو يُمنع عرضها. فالسلطة السوفيتية السابقة كانت تعتبر السينما الغربية إفساداً للروح العقائدية، وذات مضامينَ تفوحُ منها رائحة الرأسمالية العفنة. فهي بذلك تُزَيِّفُ عقل المجتمع السوفيتي النظيف!!

- 4 -

كم كان المسرح البلدي القابع في قلب المنطقة الفرنسية السابقة، يأخذ بلباي. فكأنه بناء مصغر لدار الأوبرا في دولة أوروبية! له طوابق متعددة وشرفات دائرية تطل على خشبة المسرح، مع زخارف جدارية وسقفية ذهبية اللون، في غاية الدقة والإتقان، وبالرغم من حاجته للإصلاح والتجديد.

إلا أن رائحة التاريخ المسرحي الفرنسي، الأكثر تنوعاً وتميزاً، كانت تفوح بين مقاعده وشرفاته، ولقد عَرَفَتْ خشبته، وفتحت ستارته المخملية الحمراء، على مسرحيات راسين وموليير وفولتير، وشكسبير

أيضاً، وغيرهم من العمالقة لعشراتٍ من السنين، وعشرات من النصـوص القديمة والحديثة.

وكلما أدخل هذا الصرح الثقافي المصغر. كنت أسـمع حـوار الإبـداع الإنساني وراء شعاراته المبهمة ولكنـي مـع الأسـف، لـم أشـاهد مسـرحاً جزائرياً جاداً. على خشبته، فالكتابة للمسرح كانت قليلـةً في الجزائـر، ولم تأخذ اهتماماً يليق بهذا الأدب الراقي، بينما استطاع كتاب الجزائــر أن يصلوا بمستوى الأنواع الأدبية الأخـرى إلـى مسـتويات عاليـة، مـن الجودة والحرفية، كالرواية مثلاً. ولم يستطع مدير المســرح، رغـم كونـه ممثلاً جيداً ومن المتأثرين بالمدرسة المصريــة، والـذي يفضـل الانفعـالات والتعابير الحادة، والإلقاء بصوت الشعراء، لم يستطع القيام باسـتنهاض النصوص. والترويج للعـروض بـين عامـة النـاس. وهـاهو يعمـل بصـورة جادة. على تكوين فرقةٍ مسرحيةٍ لبلدته وبطَريقةٍ ذاتيَّةٍ، تُعْوزُها الدراسة الأكاديمية. وعلم المسرح. وعرفت كـم كـانت تنقـص الفرقـة، المقومـات اللازمة لإنجاح عمل مسرحي ما.

عندما حضرت عملين من إخراجه، ومشاركته في التمثيل أيضاً كـان الأول كوميديـا مرتجلـة، والثـاني عمـلاً تاريخيـاً دراميـاً يعتمـد الإلقــاء والمباشرة والصراخ. كانت بدايةً متواضعة ولكنها جريئة. ككل البدايات في الجزائر الحديثة، وككل المحاولات التي تبدو كطفل يحاول الوقــوف والمشي لاكتشاف العالم. ومع ذلـك فقـد كـان المسـرح يسـتضيف الفـرق الغنائية من كافة مناطق الجزائر وبعض الفرق التونسية، وبعض الفرق من الكتلة الشرقية التي كانت تؤدي عملها الأول على مسرح عنابـة الفخـم،

وقد تمثلت قدرة مديره في أيام شهر رمضان حتى تغدو خشبة المسرح ملتقىً فكرياً وساحةً للتبادل الثقافيّ بكافة أنواعه، الدينية والاقتصادية، والأدبية والسياسية، وكان المسرح يستضيف مثقفي البلدة، وأساتذة من المدن المجاورة، وشخصياتٍ أدبيةٍ مرموقة، لطرح أفكارهم أمام الرواد المتزاحمين على كراسي المسرح بعد صلاة التروايح الرمضانية. وكان الحوار حول مضمون المحاضرات يَدومُ طويلاً حيث السَّهَرْ الذي لا ينتهي. وقد كان لي شرفٌ كبيرْ حين شاركت بإلقاء بعض المحاضرات عن القضية الفلسطينية. التي لاقت تجاوباً جماهيرياً جيداً، وقد حاورني الناس حواراً معمقاً حول كلّ فكرة طرحتها، ولكن المحاضرات التي تحمل طابعاً دينياً كانت تحمل في طياتها ـ وفي مثل هذا الشهر المقدس ـ أبلغ الأثر في نفوس المستمعين الخاشعين وكان الحضور أشد حماساً للنقاش والاستفسار ومحاولة الفهم في المضامين الدينية، التي كانت سابقا تتحدث عن الشعائر فقط دون المساس بروحانية الدين وتفسيره ومسايرته للحياة المعاصرة.

- 5 -

أغلب الأمسيات كنت أقضيها في مقهى (السي صالح)، الرجل العصامي المتميز بين أصحاب المقاهي مع (بو زيد) الصديق الجزائري المتزوج، وهو أحد أفراد طاقمنا المدرسي في المعهد المهني.

كان قصير القامة، ممتلئاً، جميل الطلعة، ذو ابتسامة عذبة، يحسن التحدث بلغة عربية سليمة إلى حد بعيد. وقد درسها في مدارس

بلدته. وحديثه مشبعٌ بروح الجدّ والعلم. فتكوينــه التقنـي أضفـى عليـه سمة الموضوعية. إلا أنه وقت المسامرة يبدو في منتهى البساطة والمرح.

(بو زيد) هو واحدٌ من الذين. أعرفُ داره، وأولاده وزوجته. بشكل عائليٍ طبيعي على طريقة أهل المشرق، وكان يعتبرني ضيفاً. بعيـداً عـن أهله. فمن الواجب مساعدته في أيُ حال من الأحوال، وكان هذا الموقف يتصف بأخلاق النبلاء. وكنت بدوري أعتبره بمنزلة الأخ الأكبر لأنه كان لصيقاً بي. إلى الحد الذي لم نكن نفترق فيه أبداً، إلا حين يـــزور أهلـه في مديقنة (تبسّه) أو يزور أهل زوجته في مدينة (سكيكدة) الساحلية، أو حين يمارس هواية الصيد أيام الآحاد مع مدير المدرسـة الفرنسـي، وقـد عْرفنا من قَبـل روّاد المقـهى كشـخصين توأمـين. وكـان المقـهى بالنسـبة لكلانا. مكاناً. للتُعلم، والملاحظة والقراءة، وعرض الأفكار وأحياناً مكاناً للنقاشات الهادئة والساخنة على حد سواء.

كان مقهى (سي صالح) مكاناً لاجتماع كـلّ الشـرائح الاجتماعيـة في البلدة. فتجد البنّاء. والعامل يجـالس رئيـس البلديـة. ومُوَجِّـهَ التعليـم يحاور المعلمين وخَدَمةَ المدارس، وتجد المثقف يستمع إلى بسطاء النـاس دون كبريـاء. خليـطٌ مـن البشـر تجمعـهم فنـاجين القـهوة والشـاي، أو المشروبات الروحية التي تُسْفحٌ بغزارةٍ في أجواف العطشى. ولكل طاولـةٍ حديثها وقضاياها الخاصة. إن التواضع والمســاواة صفتـان، مـن صفـات الجزائريين، وقد خبرت ذلك لسنوات طويلة، وكذلك مصداقية الحديث في القضايا العامة. دون خوفٍ أو رهبةٍ من أحد، لـم يكـن هنـاك صـراعٌ طبقي ـ كما كان يتردد، وإنما تبادلُ احترامٍ كمفـهومٍ أخلاقـيٍ، فـالثورة

بسنواتها الصعبة. وضعت الناس كلهم في أتون واحد. وقد وصلت في سنواتها الأخيرة إلى حدود الملحمة الأسطورية، فأشركت الكل في إنجاحها. واستعادة سيادة التراب والإنسان.

لقد كانت السنوات الأولى بعد الاستقلال، سنوات البحث عن الذات. بطريقة الحوار الهادئ الرصين، والنقد الذاتي البناء والانشغال في إرساء دعائم الدولة بوتائر عالية من الاندفاع.

ولم يكن أحدٌ يتصور أن كلّ ما قيل، وكل ما طُرِحَ من أفكار، كان مظهراً مخادعاً. كان نفخاً في الهواء. باتجاه موقد النار. الذي يضم تحت رماده جمراً لا تُصَدَّقُ قوة حرارته، وهاهم سكان الجزائر يقعون ثانية. في جحيم الموت والاقتتال، والشرذمة، والثأر المشبع بالحقد والكراهية. وأصبحت صورة الجزائر مُشَوَّهَةً أمام العالم كله، الأصدقاء والأعداء على حدٍ سواء، وهذه الصورة لا تستحقها الجزائر. صاحبة ميدالية النصر. المعلقة على صدر كلّ واحد من أبنائها وبناتها. وعلى صدر كلّ إنسان شريف يؤمن بالحرية والعدالة!؟

- ٥ -

العمل اليومي في المدرسة، يبدأ في الثامنة صباحاً. وينتهي وقت الظهيرة. كان وقتاً قصيراً وغير متعب، ولكن صعوبةً بالغةً ظهرت لي عندما بدأت أحضر دروسي. فالعمل المهني هو الوحيد بين كلّ مراحل التعليم، الذي لا يملك منهاجاً للغة العربية، مما أجبرني على بَرْمَجَةِ أهدافي، وأساليبي. بصورة شخصية منفردة، في بادئ الأمر. ولكن اجتماعي مع بعض الموجهين التربويين، ونقاشنا حول إيجاد برنامج

يتلائم مع التعليم المهني. دون أن يرهقه، أو يزيد من كثافة الجهد لدى الطلاب. أدى ذلك إلى مزج دروس اللغة مع لمحات من التاريخ، وتسريب بعض المصطلحات التقنية المعربة إلى لغة الدرس، وكان الطلاب - الشبان- قد تفاعلوا مع هذا الأسلوب، بطريقةٍ مُرْضِيَةٍ؛ حتى أن بعضهم كان يستزيد من تعريب بعض المصطلحات. ويدونها في دفتر خاص ويتحدثون بها خلال حصص اللغة العربية.

لقد شَعَرْتُ طيلةَ سنتين بمتعة العمل وجدواه في هذا المعهد، وقد شجعني إقبال الطلاب على التعلم، من زيادة نشاطي و فعاليتي، وصداقتي لهم طيلة مدة إقامتي.

لم أكن فقط معلماً في المعهد، بل كنت تلميذاً أيضاً. في أوقات استراحتي بين الحصص المتباعدة، فكنت أجلس فوق مقاعد الدرس، بين يدي معلم فرنسي أو جزائري، وأقف مع الطلاب في ورشات العمل التطبيقي. واستمع بصورة جدية إلى النقاشات والدروس. مما أكسبني مهارة الحديث بالفرنسية، وأكسبني بالتالي أساليب التعلم الصفي المختلفة. ومدى مسؤولية، وإدراك المعلم، والبحث عن نقاط قوتهم وضعفهم. وعرفت مدى أهمية متابعة المعلم لكل ما يجري حوله لتوسيع ثقافته المهنية. وبالتالي ثقافته العامة.

لقد تأكد إحساسي ـ من خلال عملي وملاحظتي ـ بأن التعليم ليس مهنة لشراء الخبز فقط وإنما هو: ارتقاء بالمستوى الفكري. والاجتماعي، و المعيشي والإنسان إذا كان صاحب أهداف مادية عليه ألا يلتحق بسلك التعليم!

كان بعض المعلمين الفرنسيين متميزين. نظراً لخبراتهم الطويلة وكان البعض منهم غير مؤهل تأهيلاً كاملاً. فَعَمَدَتْ وزارة بلادهم إلى إقامة دورات التأهيل بالمراسلة. بحيث يقدم المنتسبون إليها امتحاناً صعباً في نهاية العام الدراسي. والقليلُ منهم من كان يجتاز مثل هذا الامتحان! والبعض الآخر يؤدي خدمته العسكرية الإجبارية في التعليم بدلاً من الجيش. لم ينقص المعلمون الفرنسيون الأدوات اللازمة ليكونوا أكِفَاءَ في عملهم. فالتأهيل المستمر يجري بصورة منتظمة وجادة، والرواتب المغرية تجعلهم لا يشعرون بالحاجة لأي شئ والسفر في العطلات إلى بلدهم مؤمناً بطريقةٍ سهلةٍ.

وبصورة عامة. كانت فرنسا تعرف من ترسل إلى الجزائر، كمستعمرة سابقة لها. وتعرف أن مهمتها ستبقى حضارية. وعلى الناس الذين يقومون على نشر ثقافتها وعلمها، أن يكونوا في غاية الرفاهية والأمان.

لم يكن ينقص الجزائريين الاندفاع ولا الذكاء. كي يكونوا أنداداً لزملائهم الفرنسيين في العمل. إنما الخبرة كانت حداً فاصلاً بين الاثنين. وقد تكونت الخبرة الفرنسية خلال المد الاستعماري مما خلق جواً يساعد العلم في تطبيقاته وإنجازاته. وقد استطاعت المدرسة الفرنسية. والفكر التربوي الفرنسي. من حفر خطٍ عميقٍ بين مدارس الفكر التربوي العالمية.

وظهر مفكرون تربويون أحدثوا ثورة في ميادين هذا العلم. وبالرغم من وجود فكر تربوي عربي إسلامي إلى جانبه، ـ وإن كان بشكل مكشوف أو مستتر ـ في فترة الاستعمار الطويلة، إلا أنه من المعروف أن

المدرسة العربية، كانت قد توقفت عن التطور والنمو منذ قرون عديدة، وبالتالي تخلفت عن الأساليب الحديثة في فن البناء التربوي، المتطور مع حاجات ومتطلبات العصر الحديث.

وقد شعرت الدولة الحديثة الاستقلال بهذا الخلل القاتل، فانهمكت من خلال وزارة التعليم، وبكل الإمكانات المتطورة، لخلق أدوات التعليم الفعال. (مدارس، أدوات، معلمين مؤهلين، مراكز للدراسات التربوية..) لتضع بذلك أساساً متيناً وصالحاً للمدرسة الجزائرية في المستقبل.

والحق يقال: بأننا نحن معلمي المشرق، وضمن هذا الكفاح والجهد والتحدي، لم نكن سوى واجهة لإعادة الاعتبار للغة العربية، وبنفس الوقت عاملَ تحَدٍ. لذوي النزعات الثقافية الغربية ـ رغم حيادنا في هذا الصراع ـ ولم نَلْقَ. نجاحاً سريعاً وملموساً، نجاحاً يفي بحاجة الجزائر، لتعميق تراثها الثقافي العربي الإسلامي إلا بقدر ضئيلٍ.

- 7 -

في الطريق الصاعد إلى سوق (البازار) المزدحم بالأشياء. والبهائم، والعربات. والذي يبدأ فيه طبيب الأسنان بالإصلاح أو القلع، إلى بائع الأدوات المستعملة، وبائع الكتب القديمة، التي تحكي عن السيرة الهلالية. أو سيرة عنترة العبسي، أو السير الشعبية الجزائرية، إلى شيخٍ وقور يفتح كتباً صفراء اللون، ليكتب حِرْزاً أو حجاباً للحب والكراهية. أو وصفةً طبية ضد المرض والشيخوخة، وضمن هذه الجلبة، كنت أسمع صوت (محمد عبد الوهاب) ينداح على جوانب الطريق قبل وصولي إلى البازار وهو يغني (النهر الخالد) أو (كيلو باترا) فيتملكني

حنين الشرق. فأدخل المطعم الصغير النظيف الذي كان يديـره جزائـري يعشق الحياة والشراب. يُسَلِّمْ عَلَيَّ من وراء طاولتـه، وكـأس الشـراب لا يفارقه. ولفافة التبغ لا تبارح شفتيه، كنت أحسه مرتاحاً عندمـا يرانـي لأني كنت أقاسمه حب الطرب الأصيل. يفتح لي زجاجة البيرة المرصعة بحبات العرق. ويقلب كأساً لامعاً نظيفاً، ويريق المشروب فيه، ثُمَّ يطلب لي الطعام.

وكان كلما وصل عبد الوهاب في طربه إلى مقطع "أنـا مـن ضَيَّـعَ في الأوهام عمره" يريق الكأس كلـه في جوفـه، ويصـب لنفسـه كأسـاً آخـراً ليأتي عبد الوهاب على المقطـع التـالي (نَسِـيَ التـاريخَ أو أُنْسِـيَ ذِكـره) فيقابلني بنظراته الودودة. كأنما يطلب مني شرحاً. وأنا أعرف في قرارة نفسي بأن الخمرة تفسر أحياناً كثيراً من الأشـياء المسـتعصية الغامضـة، فيتراجع ثانية لملاحظة حركة العمل.

أكثر الزبائن في المطعم. من الموظفين أو المعلمين القادمين مـن خـارج البلدة. والكل يستمتع بالطعام والشراب ونشوة الاستماع. ويدفعون أثمان وجباتهم شهرياً. كعادة الموظفين في العالم.

في كلّ مرة لم أكن أكمل وجبتي إلا إذا استمعت إلى أغنيـة أخـرى لعبد الوهاب مع المتبقين من الزبـائن، ثُـمَّ أتنـاول القـهوة. وأنـا ممتلئ بمشاعر من البهجة والشوق. والحزن غالباً. لأن من يأكل خارج بيته في الشرق فإنه يعد عاقاً لزوجه، أو والدته!؟ فكيف بي وأنا أتناول طعـامي بعيداً عن الوطن كله فلمن أكون عاقاً إذن! لابد أنـي عـاقٌ لإلـهي الـذي يقبل التوبة من الغائبين عن أوطانهم.

وأخيرا يودعني صاحب المطعم برفع كأس المشروب عالياً وبعبارة: بأمان الله!؟ وعندما أخترق السوق تبقى مشاعري وأحاسيسي مستفزة، وتأتيني أصوات الغناء الجزائري وأنا أقطع الطريق عائداً إلى غرفتي وحيداً. فتزيد من نشوتي وتعمق أحزاني.

وتبقي عبارة (أنا من ضيع في الأوهام عمره) معادةً في الذاكرة، وأنا مستلقٍ على سريرٍ منفردٍ. حتى تقتلها القيلولة، انتظاراً لقدوم الليل والسهر.

إسماعيل:
دعابة الحياة يمزقها الحزن

(إنّ الطريقة الملائمة، الوحيدة. لتحمُّل
الشرور العظيمة، هي البحثُ عن العزاء الكبير)

برتراند بوتراند راسل

- 1 -

إسماعيل صديقٌ من قالمة. ولكنه من طراز مختلفٍ، تحلو الجلسة معه في كلّ مكان. لأنه يضفي عليها جواً من الطرب الأصيل. والسماع الأصيل. فهو عازفٌ مُجيدٌ للعود الشرقي، ويمتلك صوتاً، يجمع بين نشوة الأندلس، وأحلامِ الشرق، في حنجرةٍ قويةٍ وصافيةٍ لم أصادفه مرةً، إلا وشاهراً عُودَهُ مختالاً بقامةٍ ممتلئةٍ بدينة تشبه رباعي الأثقال، وشعرٍ مجعدٍ كثيفٍ وأسودٍ. وبشرةٍ بيضاءَ ناصعة. وعينين واسعتين تضجانِ بروح الحياة، فتحسبه يونانياً أو إسبانياً. وشاعراً متجولاً يعشق الجمال. ويغني كلّ يوم تحت نافذة إحدى عشيقاته.

إسماعيل يسألك مباشرة عن لقاء الليلة. فكأنه جاهزٌ للهو والمرح ومعاقرة الشراب. والكلام الجميل حتى أواخر ساعات الليل، دون أن يفقد اتزانه. ولطفه وظرفه. وملاحة اللهجة المصرية التي تعلمها من كثرة مشاهدته للأفلام.

كان إسماعيل متزوجاً بفرنسيةٍ شقراء،على درجة عاليةٍ من الأدب والأخلاق. وقد وجدا بعضهما متحابين في (بوزانسون) مدينة فيكتور هوجو، رمز فرنسا الأدبي والروحي. وقد عارض الأهل الزواج، واعتبروا ذلك خرقاً لقوانين الأخلاق والدين. وكان باستطاعتهم منعه، وطرد إسماعيل خارج الحدود. وفي نهاية المطاف تغلب الحب على كلّ المشكلات والحواجز الدينية والعنصرية. وتركا فرنسا. ليُتَوِّجا حبهما بزواج رسمي على الطريقة الإسلامية!

- 2 -

كان إسماعيل كتلةً من المشاعر العربية الصادقة. يحب جذوره. ويدافع عنها. ويتمسك بها ويتغنى بها. وكان يريد من زوجته أن تشاركه نفس الأحاسيس والمشاعر. وتندمج كلياً في المجتمع الجزائري. بكل سلبياته وإيجابياته. ولكنها لم تستسلم لذلك، ولم تستطع أن تدير ظهرها كلياً. لقيم وأساليب حياة شعبها، التي تعتبرها جزءاً من تربيتها وثقافتها. وقدسية وجودها! فدبَّ النزاع بين الطرفين المتحابين. دون أن يستطيع الواحد ترك الآخر!

وكثيراً ما كنت شاهداً على الصراع اليومي تقريباً. والذي يؤدي غالباً إلى استعمال العنف بطريقة شرقية سيئة. أمام طفلتين صغيرتين كالورود الدمشقية! ولكن آثار هذا النزاع تختفي في اليوم التالي. نظراً

لوجودهما في وظيفة واحدة. ومكتب واحد. ونسيان ذلك في خضم العمل اليومي. وبرفقة زملاء العمل. وبعدها تعود الحياة إلى مجاريها. كأن شيئاً لم يحدث! ويعود زَهْو المساء إلى أوتار العود. وتصدح حنجرة إسماعيل بأنغام جزائرية عذبة. حزينة كأنها آتية من دور غرناطة البعيدة. وبعدها يتململ في جلسته متذكراً دوحة شرقية يعشقها. كان نصيراً قوياً (لفريد الأطرش). يحفظ كلّ أغانيه الكلاسيكية بإتقان لا حدود له. وكنت دائماً. أستمع إليه بشغف عندما يؤدي تلك الألحان القديمة. المشبعة بلوعة الحب والشوق. والدموع التي يتميز بها فريد الأطرش عن غيره من المطربين.

كانت صالة الفندق المتواضعة هي مكان استراحتنا المحبب. مع جمع من الأصدقاء ذوي الأذواق المتقاربة. ونادل الفندق الوحيد. لا يمل من ترتيب الجلسة. ووضع الأدوات اللازمة أمامَ كلّ واحد منا. مع كأس من الشاي الأخضر المُسَكّر جيداً أمام إسماعيل. ليجلو حنجرته بين حين وآخر. ولم يتعب يوماً من تبديل زجاجات البيرة الفارغة مع كؤوسها واحضار بعض الصحون الصغيرة المملوءة بالمأكولات اللازمة لمثل هذه الجلسات. على طريقة شاربي مرسيليا وبوردو ولم يبخل عليه إسماعيل يوماً. حين يطلب أن يسمعه شيئاً خاصاً! وفي نهايات الليل، يصبح النادل واحد من الحضور، بعد تناوله العديد من زجاجات البيرة المثلجة. التي يشربها مباشرة من فم الزجاجة. وينفض السمر، في جوٍ مملوء بالنشوة. والحزن. والضياع!

- 3 -

لقد علمني هذا الصديق. بأن للحزن أيضاً مكان في ساحة حياتنا! وعلينا أن نعيشه ونقبله، كما نعيش الفرح. والانطلاق ونستمتع بهما.

يوماً. أخذني من يدي، بعد أن عانقني، ودموعٌ حارَّةٌ تتساقط على خديه الموردين. تاركين وراءنا (فيلته) التي يقطنها في الحي الفرنسي القديم. إلى عالم جديد. لم أعهده وأعرفه في قالمة، نحو مسكن أخته المفجوعة بوفاة زوجها المفاجئ. إلى حي (القصبة) القديم، على يمين مَطْلَعِ البلدةِ. وبعد أن اجتزنا باباً كبيراً مقنطراً على الطراز الإسلامي، وَلَجْنَا إلى عالمٍ لامعٍ بَهَرني بشكله المعماري، كأنه أدخلني حياً دمشقياً عابقاً برائحة الدين والعِرقْ. ببلاط أزقته الضيقة، ومشربيات شبابيكه المزركشة بالخشب الأخضر، وفسحات دوره المزدانة بروضة من الأشجار والورد والياسمين. ولون جدرانه الناصعة البياض، كمعابد منحوتة في صخور الكلس الثلجية! وصوت المقرئ الدافئ الحزين يتلو آياً من الذكر، على قوم يرنو عليهم الصمت. وكلمة (الله) تخرج حارة من أفواههم. جلست مع الحاضرين. واجماً أمام عظمة الإعجاز الإلهي من قارئ مقتدر يتلو (سورة مريم). المشبعة بروح البلاغة والبيان، وفي جو ينقلك إلى العالم الأكثر نقاء وصفاء. والأكثر دواماً وصدقاً، من العالم الذي ننغمس فيه حتى آذاننا. جو يجعلك أكثر قرباً من حقيقة المحبة الإلهية التي لا تعرف كرهاً ولا حسداً.

لقد طَهَّرَتْ كلمات الله، قلوب الحضور، وذَكَّرَتْهُمْ بعالم آخر، ولكن عجلة الحياة القاسية والظالمة في هذا العالم، غالباً ما تنسيهم ما سمعوا،

وما شهدوا. وخاصة في قالمة. التي اعتادت على الموت منذ سنوات طويلة. فالبلدة صاحبة للحزن الأبدي قبل اليوم. فمقابر الشهداء وشاهدات القبور كأنها غابة صنوبر، لا تقتحمها الشمس!

قدمت عزائي للأخت المفجوعة وأنا مستغرق في الصمت، حتى أني لم أتبين ملامح وجهها، فالغرفة مكدسة بالنسوة النائحات الدامعات. ولكنها أصابتني بالمفاجأة. حينما طلبت أن أقرأ شيئاً من القرآن، وذلك لأني من ديار الإسلام المقدسة! فتلاوتي تصل السماء قبل الآخرين!! أذعنت ورتلت آيات من جزء (عَم) كانت موضوعة أمامي، فأحسست وأنا أتلو أن النسوة قد أخلدن إلى السكون والطمأنينة. وإسماعيل بجانبي ممسكاً بيدي، ضاغطاً عليها. وسيل من الدموع الهادئة الصافية تجري دونما انقطاع. توقف بعد ذلك اليوم العزف، والغناء، والمرح والنشوة. وسكتت الحنجرة المتألمة أربعين يوماً.

مصريٌ يداعب الحقيقة!

(إنّ الرجل يكشفُ عن شخصيته بالإيماءات
البسيطة عندما يكونُ غافلا عن نفسه)

شوبنهور

— 1 —

الأستاذ إبراهيم يجاورني في السكن المتواضع - التابع للبلدية - ولكنه يزيد عنه بمساحةٍ قليلةٍ. استطاع بمهارته أن يصنع منها مطبخاً صغيراً بأدواتٍ بسيطة.

يُغْنيه عن ارتياد المطاعم، أو الجلوس في المقاهي، إلا ما ندر، فحين ألقاه صدفةً في الطريق أدعوه لتناول القهوة أو الشاي، نتجاذب خلالها الحديث عن العمل، والأهل، والغربة، والحياة.

الأستاذ إبراهيم مصريٌّ حتى قمة رأسه، مشرف على الخمسين من العمر. غطّى الشيبُ رأسه الفرعوني البارز الوجنيتين. مع بشرة بلون البرونز اللامع. اكتسبها تحت شمس مصر اللافحة، سريع البديهة، لمّاحٌ. وقوي الملاحظة. يحدثك بصوت هادئٍ، وبلهجةٍ مصريةٍ أقرب إلى

الصعيد. فيها الكثير من المجاملة واللطف. وتحس في عينيه الغائرتين حيويةً. ونشاط الشباب. وحكمة الفراعنة.

لا يغير بدلته إلا نادراً. ولكنه يستبدل قمصانه، وربطات عنقه وأحذيته اللامعة. حتى أنك تجده في كلّ مرة جديداً وأنيقاً. إنه واحد من أفراد البعثة المصرية. التي كانت تعيش عالمها الخاص المنغلق، بعيداً عن الأجواء الاجتماعية. والعلاقات الشخصية في قالمة.

فنادراً ما تجد مصرياً يجلس في أجواء عامة أو أجواءَ احتفالية، كالنوادي الثقافية. أو الحفلات المسرحية. أنّهُم أبعد ما يكونون عن الحياة العامة! ومع ذلك فهم ملتزمون بعملهم بدقةٍ تامةٍ. لا يناقشون حتى القضايا التربوية إنما يتلقون التعليمات، وينفذون ما جاء فيها بحيادية تامة.

لم يكن أيْ مصري يُحْدِثْ إشْكالاً ـ مهما صَغُرَ ـ في مجال عمله. بالرغم من الفرق الواضح الحاد بين المدرستين الجزائرية والمصرية.

لقد كانت النسبة العظمى منهم. قد جاوزت العقد الثالث أو الرابع من العمر. فأكثرهم من المتزوجين أو المتزوجات. الذين تركوا وراءهم في مصر أسراً ذات أعداد كبيرة. وذلك من أجل لقمةٍ أفْضَلَ للعيش. ومن أجل حياة ذات مضمون كريم ولائق، وعلى هذا فالحرص المادي شيئاً مشروعاً ومبرراً ومطلوباً بقوة. كان هؤلاء الناس يُضَحّوْنَ بكل مُتعِ الحياة المتوفرة. من أجل رفع سوية الأبناء المنتظرين في الوطن.

ومن منطلق سوء فهم الواقع المصري، اقتصادياً واجتماعياً. حدثت شِبْهُ قطيعةٍ بين أهل الجزائر والقادمين من مصر!

ولم يكن للمصريين ذَنْبٌ في ذلك. سوى أن واقعهم الموضوعي يفرض عليهم مثل هذا الأسلوب من الحياة، وقد غَذَّت هذا التوجه اللاواقعي لدى الجزائريين أيادٍ خفيةٍ تعمل في الظلام، وقد نُعِتَ المصريون في كثير من الأحيان بألقابٍ لا يستحقونها، وبمعاملةٍ يكاد عدم الاحترام يسودَ فيها.

ولم يستطع المصريون إزاحة سوء الفهم، ببديل أفضل. ولم يتمكنوا من تعريف الجزائريين بالقيم التي يحملونها، والتي لها مضامين أعمق وأرسخ من قيم الغرب التي لا بد ستنسحب في نهاية الأمر.

لقد كان المصريين كغيرهم، يحملون منطلقات قومية نظرية باهتة. من الصعب تطبيقها على الواقع العربي المضطرب، كانوا يطرحون أحلاماً للمستقبل كأحلام زعيمهم، ويَعتبرون أنفسهم قدوة العالم العربي بكثير من الكبرياء المصطنعة، ودون أدِلّةٍ عملية على ذلك. لذلك بدى البديل لأهل الجزائر بديلاً مزيفاً. وساحته بعيدة كلّ البعد عن الساحة الحضارية الصناعية العالمية. التي يعيشون أحداثها كلّ يوم، من واقع احتكاكهم الدائم والدؤوب مع الغرب، هذا الغرب الذي استطاع بأجهزته الإعلامية الفعالة، أن يظهر أن الشعوب الحديثة الاستقلال لا تقبل أن ترقى إلى مستوى الأمم المتقدمة بأنظمتها المتخلفة، وطاقات شعوبها المتدنية. وقد ترسخت هذه القناعة لدى أهل الجزائر طوال المدة التي عمل فيها المصريون في بلادهم، وبالإضافة لذلك كان الجزائريون يزنوا المصريين بميزان فرنسي ـ لأنهم لا يملكون سواه ـ فترجح الكفة الفرنسية على الدوام، ويخسر المصريون نظرياتهم وقيمهم، كان الصراع دائراً حول المفهوم الحضاري، والقيم الحضارية. دون دراسة الوقائع التاريخية للشعوب.

-2-

الأستاذ إبراهيم يبتاع في نهاية كلّ شهر، كثيراً من الأدوات المنزلية. فيرتاد المحلات التجارية في قالمة. وينتقي منها كلّ مفيد ونافع للمنزل. وللأهل في مصر. وقد عرفت مرة، أنه اشترى آلة لحياكة كنزات الصوف الحديثة من الأنواع الفرنسية الجيدة،وهو مستمتع بالعمل ليلاً في غرفته الوحيدة بعد أن يكون قد أتم تحضير دروسه لليوم التالي، ويبيع بضاعته المُوَصّى عليها من قِبَلَ زملاء وزميلاتِ العمل، أو لبعض الناس الذين راجت بضاعته بينهم. لقد ازداد دخله الشهري، وبالتالي ازدادت مشترياته غربيّةَ الصنع. التي يحتفظ بها في علبها المغلفة، إلى حين العطلة والعودة إلى الديار، حاملاً معه نتاج جهده. وعرقه، وغربته. وألمه الدفين المتوارث عبر الأجيال، التي كان الزمن يدوسها ويسحقها في طين مصر العريقة. وحجارة أهراماتها التي شيدت على جماجم الشعب. الوقور القانع بالقدر. ولولا روح النكتة التي تحلى بها الأستاذ إبراهيم وغيره من المصريين لما استطعت أن تجد شعباً تابع حياته بكل هذه القوة والإرادة، وبقي متواجداً على خريطة العالم البشرية. لقد جعلت روح الفكاهة من الشعب المصري شعباً ذا روح أصيلةٍ تهكمية. تود التعرف إليه عن قرب.

— 3 —

يعيش الأستاذ إبراهيم حياته الخاصة المنفية، في غرفته الوحيدة، ويقوم بتسلية نفسه بالعمل على آلة الحياكة حتى ساعة متأخرة من الليل، وبجانبه إذاعة القاهرة، التي توصله بوطنه عبر نشرات الأخبار،والبرامج العامة، والغناء، إلا أنه أحياناً، يطرق باب غرفتي ليلاً. لنقضي السهرة سوياً، بعد أن يكون قد صنع إبريقاً من الشاي

الأحمر الوردي المختمر علـى نـار هادئـة والـذي يتقنـه المصريـون وأهـل المشرق. وكنت استمتع بجلسته الوقورة. مستمعاً إلـى جـزء مـن حياتـه وحياة أسرته المكونة من خمس بنات وولد وحيد وهو أصغرهم سناً، وقـد استطعت أن أفهم لماذا يهتم كثيراً بشـراء الاحتياجـات المنزليـة وبكـثرة تلفت النظر. ذلك أن أهل مصر يجهزون بناتهم للـزواج ويتكلفـون شـراء الحاجات الأساسية للبيت كهدية للبنت.

وإذا لم يتم ذلك بالشكل المطلـوب، يعـد انتقاصـاً مـن كرامـة الأب والأسرة كلها. ازداد إعجابي. وتعلقـي بشـخصية هـذا الرجـل الشـهم، المتفـاني مـن أجـل راحـة الغـير وسـعادتهم، وهـي صفـات الأتقيـاء والشجعان. وكان الحديث يبتعد أحياناً عن آلام العيش ومتطلباته، ليبدأ الأستاذ إبراهيم حديثاً سلساً مسلياً فيه الكثير من الفكاهة اللاذعـة. عـن العمل والمدارس والتربيـة والسياسـة، وأحيانـاً تصـل الفكاهـة إلـى حـد الضحك الصاخب الذي يبلل العيون. كان الأستاذ يتمتع بحس الراوي، وبراعتـه في الأداء والإيمـاء. فيخلـق عالمـاً مـن حولـه بكـامل تناقضاتـه المبهرة. التي تشدك إليه. لترتاح قليلاً من عناء الدهر.

وقـد أصبحـت الثقـة المطلقـة المتبادلـة بيننـا قـد وصلـت إلـى حـد التطـرف. ممـا جعلـه لا يشـعر بـالحرج، عندمـا يبـدأ تنـاول لفافـات (الكيف). المجهزة في غرفته. والتي كان يشتري مادتها بسـهولة ويسـر من أحد المقاهي الشعبية. الملاصق لسوق البازار. وكانت الكميات متوفرة بصورة لا تصدق. وبتكاليف قليلة في ذلك الوقت، وكان ينسحب أحياناً في منتصف الجلسة. إلى غرفته ليرجع حاملاً صوت أم كلثوم، يشدو من شريط وضع في المسجلة اللامعة الجديدة، مع صحن من الفاكهة المتنوعـة الأشكال والمذاقات. لأن ذلك من طقوس ا لجلسة المكتملة!

وبهذا الطقس كانت تبدو له الحياة أكثر سهولة. وأكثر استمتاعاً، ويستحق الإنسان أن يحياها. وكنت أشعر من خلال انسجامه مع الجو الضبابي. الذي صنعه، بأنه بدا أكثر إشراقاً، وأكثر إحساساً بوجوده فيبدأ يهلل لصوت سيدة الغناء وعيناه مملوءتان دمعاً وحنيناً، وأخيراً يودعني وكلمات الشكر تخرج ممزوجة بالشعر من فمه، فأرافقه حتى غرفته، مع أدواته التي أمتعتنا، وأتركه ليعيش عالمه الخاص بمفرده.

أم كلثوم تغني في قالمة!

(لا ينجح أحد بالموهبة فقط. الله يعطي الموهبة. والعمل يحولها عبقرية)

آنا بافلوفا

- 1 -

في الثلاثينات، والأربعينات من هذا القرن، عندما رفعت أم كلثوم راية الطريقة العربية في الغناء، استطاعت بعظمة صوتها. وفصاحة نطقها، وتوهج شخصيتها أن توحد الأحاسيس والمشاعر، وتستنهض من جديد قيم الحب والجمال الحقيقية عند المصريين، أكثر من أية قوة سياسية. موجودة على الساحة الوطنية المصرية في ذلك الوقت! وأكثر من كل الكتب التي تتحدث عن فلسفة الجمال والحب!

كان الشعب المصري ذا ولاءات سياسية متعددة ومتناحرة. ولكن المجموع كله يدين بالولاء لسماع أم كلثوم!

ومن خلال انتشار المذياع كوسيلة اتصال عالمية، استطاعت هذه السيدة التي لا مثيل لها. في الخمسينات والستينات، أن تجمع العرب

في ديارهم المتفرقة - في نهاية كلّ شهر- حول حنجرتها الذهبية. وبجوٍ أقرب إلى القداسة! مخترقةً حواجز الحدود المصطنعة. لتدخل أعماقَ أمةٍ بكاملها. من خلال نداء الكلمة العربيـة الشاعرية، العذبة يرافقها لَحْنٌ تراثي أصيل. بأسلوبٍ جديدٍ بعيد عن السوقية والابتذال، كانت تقدم صوراً متكاملة عن مثالية العلاقة بين المحبين وكانت (تغني الفرح والمرح. والحزن والبكاء. والحماسة والخوف، والاستعطاف والكبرياء.. وصوتها قدير على ابراز كلّ معنىً من هذه المعاني في صورة مؤثرة دقيقة الملامح).

لم تُغَنِّ أم كلثوم للنخبة، والخواص من الناس. بل غنت بحنجرةٍ جديدةٍ. وأداءٍ جديد، وإحساسٍ جديد ولغة جديدة. أدخلتها قصور الملوك والأمراء. وحضنتها دور الشغيلة المتواضعة وبيوت الفلاحين الفقراء في أقاصي الريف.

وقد ترسخت لدى الشغوفين بهذا الصوت، في العالم العربي كله، الملامح الخاصة والثابتة لطريقة أدائها، وارتجالاتها العفوية أثناء الغناء، التي تبهر بها المستمعين، والعازفين في تختها الموسيقي على حدٍ سواء! ولكن الإعلان عن لقاء العملاقين (عبد الوهاب وأم كلثوم) أصاب الناس بالترقب. والخوف من المجهول. بل والخوف على أم كلثوم. خاصة وأن عبد الوهاب أخذ يدير ظهره كثيراً للجملة الموسيقية العربية بمقاييسها الأصيلة، مستعيراً جملاً تعزفها آلات غربية لا يعرفها التخت الموسيقي العربي.!؟.

من المؤكد في ذلك الوقت. أن ديار العرب كانت تنتظر ليلة اللقاء بين العملاقين! وكانت إذاعتا القاهرة وصوت العرب. تمهد للأسماع

العربية. محدثة عن أهمية اللقاء، ودلالاته الفنية بكثير من الحـ
والاندفاع. ولكن حديث أرباب الفن والمختصين. والمتذوقين كان حـ
تنقصه قناعة المطّلع على أساليب الغناء السائدة، كان الجو حماسياً
قناعات متكاملة!

– 2 –

قالمة لم تَشُذّ عن قاعدة الانتظار، والترقب في ذلك الوقت
بغدادَ. وفاسَ. وتونسَ. والخرطومَ، وصنعاءَ، ودمشقَ. والكوي
والرياض. وحتى نواكشوط. وأهالي فلسطين في الديار المحتلة، دُ
ليلتها للسهر في سكن أحد المصريين. وكان أستاذاً للموسيقى في ثـ
البلدة. وكنت قد زرته مراراً مع إسماعيل (صديق العود والغناء
استمعنا مراراً إلى عزف الفنانين. الذي يجمع بينهما حب التراث
كان الأستاذ أكاديمياً أكثر من إسماعيل.

كان الحضور في تلك الليلة مكثفاً. مِصْريون. ومن أهالي الـ
والكثير من مُدرّسي الجزائر. حتى ضاقت المساحة بنا. فاضطر يـ
الجلوس على الأرض المفروشةِ بالبُسُطِ وأدوات الضيافة أمامنا. ا
(جلال معوض) الدافئ العميق، يصف جو الحفل من داخل ا
المصرية. مذياع ياباني حديث يتوسط الجلسة على كنبة صغيرة عـ
وإبرته مثبتة على إذاعة القاهرة المصرية، ويعرفنا على شخـ
الحضور العرب.الذين جاؤوا خصيصاً من بلدانهم، للاستماع ومشـ
اللقاء التاريخي. وكانوا من الشعراء والغنائيين والسياسيين، والمثقـ
ومن العامة الذين لا يتركون حفلاً يفلت من أيديهم، فأعراس أم
مكتملة الحضور.

إمارات القلق والتوتر تبدو واضحة للعيان، علـى الأستاذ الموسيقار وفي كلّ لحظة يضغط بأصابعه على نظارته الطبية السميكة، ليثبتها على عينيه، ناظراً إلى الحضور وفي كـلّ مـرة يقذفنـا بعبـارات جديـدة، مـن عبـارات المجاملـة المصريـة، ثُـمَّ يقـف بقامتـه المديـدة، التـي قَوَّسَـتْها السنوات الستون من العمر قليلاً، ليوزع أقداحَ الشـاي الحمـراء التـي لـم تنته طوال الجلسة، ثُمَّ يأخذ مكانه وعبارة (رَبِّنـا يُسْتُرْ) تختـم دورتـه! الأحاديث لا تنتهي بين الحضور. ونـوع مـن التوحـد الوجدانـي أصـاب الجميع!

في العاشرة، بدأ جلال معوض يلقي كلمات الأغنيـة (أنـت عمـري) بشاعرية تخترق العقول والقلوب

رجعوني عينيك لأيامي اللي راحـو علموني أندم علـى المـاضي وجراحـه

اللي شفتو قبـل مـا تشـوفك عينـي عمري ضـايع يحسـبوه الـزّاي عليّـه

أنت عمري اللي بتدي بنورك صباحو

وضوح كلمات الشاعر وحداثتها أعجبت الحضور، ولكن البعض من الجزائريـين كـان مـترددأ بـين السـؤال عـن بعـض المعـاني، أو المتابعـة الشعرية كلها، ولكن إسـماعيل اسـتطاع بفطـرة الفنـان الذكـي أن ينقـل المعاني. بعبارات جزائرية مفهومة وواضحة.

وبالرغم من صمت الجميع، وثبات مشاعرهم إلا الأسـتاذ فقـد بقـي على حـاله ينتقل من أول الصالـة إلـى آخرهـا هامسـاً لنفسـه بكلمـات لا نسمعها.

وتبدأ لحظة المغامرة الفنية، فتأخذ المقدمة الموسيقية وقتـاً طويـلاً، تمتزج فيها الآلات الغربية، وخاصـة الغيتـار، مـع الآلات الشـرقية، في

مناخ موسيقي جديد كلّ الجدة على الأسماع يدفع للحيرة، والتساؤل ع
الأسلوب والنهج الجديد، التي لم تعتد الأذن العربية على تقبل
وسماعه، من تخت شرقي رافق أم كلثوم طويلاً، في حياتها الغنائية مع
كبار الملحنين أمثال القصبجي و زكريا أحمد ورياض السنباطي.

وتنتهي المقدمة، لتقف أم كلثوم أمام عاصفة مدوية من التصفيق
لكن دوت أصوات تستزيد ثانية من المقدمة.

يَزُمُّ أستاذ الموسيقى شفتيه، ويلوح برأسه علامة الاستياء قائلا: " لا
مش كده ألحان الست، دي ألحان توافق عبد الحليم ونجاة، عب
الوهاب سيقتل الصوت! ولكن جاري الأستاذ إبراهيم يربت على كتفه
مبرداً أعصابه بعبارة فيها استعطاف: "معلش يا أستاذ حنسمع للآخر
ربنا يخليك، الست مترضاش الألحان التافهة!".

— 4 —

حقاً، كان المقطع الأول بعيداً عن طرب أم كلثوم، بضاعة جديدةً
ومجرد أداء متقن لكلمات جميلة، أعادته مرة ثانية دون تغيير في نم
الأداء، ولكنها استطاعت في المقطع الثاني والثالث أن تستعيد حضوره
المتميز، وبدأ عبد الوهاب يكشف عن حرفية الأستاذ المجبول بتراد
المعاصرة، وتجديد القوالب اللحنية، فأبرز صوت السيدة الحقيقي
فأجادت، وأطربت، واستعيدت من الحضور حين بدأ الطرب يستخف
بهم في المقطع الرابع الذي يقول:

يا أغلى من أيامي	يا أحلي من أحلامي
خدني لحنانك خدني	عن الوجود وابعدني
بعيد، بعيد، أنا وأنت	نعيش بعيد لوحدينا
عالحب تصح أيامنا	وعالشوق تنام ليالينا

هنا بدأ الأستاذ يستعيد ملامحه، ويردد هذا المقطع مع صوت السيدة يرافقه إسماعيل الذي ارتفع إحساسه بنشوة اللحن والكلمات. ثُمَّ أخذ الحضور يهتز طرباً وانسجاماً، حتى بدونا جميعاً كحضور المسرح القاهري، الذي يعيش ليلته بعيداً عنا مئات الأميال.

دارت من جديد. أقداح الشاي الطازج، وتكاثف دخان لفائف التبغ مشكلاً سُحباً فوق رؤوسنا واهتزت رؤوس الحاضرين منتشية بما تسمع، كانت لحظات من نسيان الحاضر، والاغتراب، حاملة معها صور الأحبة. وطرقات البلدان البعيدة، وذكريات أنهضتها من رقادها، مازجة الحزن والفرح في قدح واحد.

عبد الوهاب عذَّبنا في تلك الليلة، ولكنه أكَّدَ لجيلنا. بأنه في مرحلةٍ جديدةٍ من السماع. وأن أم كلثوم ستفقد ملامحها الثابتة، وارتجالاتها العفوية. ولن تكون قائدة للتخت الموسيقي بعد الآن، وسنعتاد مع الوقت على التذوق الموسيقي الجديد. وستعتاد آذاننا على سماع لون آخر من الطرب والغناء، وقد أضاف لأم كلثوم جيلاً جديداً من المستمعين والمتذوقين. إنه جيل الشباب الذي شارف الآن على الخمسينات والستينات من العمر. وبرهنت أم كلثوم للقدامى من أنصارها "لأنها بحر لا ساحل في طريقة الأداء، وأنها مطربة كلّ ألوان الغناء. من الهمس، إلى الدندنة. إلى رفع الصوت، إلى الصداح العريض، والسوبرانو الأوبرالي".

كانت شبابيك الدور مضاءة حين رجوعنا في نهايات الليل على غير عادتها. فأم كلثوم سكنت في تلك الليلة فراش المحبين. وعشاق الطرب

والكلمة الحلوة. وظل الناس في لقاءاتهم اليومية يتحدثون دون ملل عن الأغنية. ويتابعون الإذاعات العربية علهم يمسكون صوتها ثانية وتقاطر المعجبون نحو بائعي الإسطوانات كي يحجزوا واحدة حين وصولها إلى قالمة. ونزل بعضهم إلى عنابة علهم يجدونها هناك.

— 5 —

وبعد أيام من سهرة العرب الجماعية، وتوحد الأحاسيس والمشاعر في مجلس الأستاذ الموسيقي، اصطحبني الصديق "بو زيد" بسيارته إلى عنابة. لقضاء يوم العطلة بين الشاطئ والجبل. قطعنا الطريق الساحلي مرات عديدة. وتناولنا القهوة في نادي الضباط المواجه للبحر في جلسة امتدت فيها أبصارنا نحو الأفق البحري اللامحدود. ثُمّ نزلنا تاركين أقداما تغوص في رمال الشاطئ الرطبة الناعمة، وصوت ارتطام الأمواج يعانق الصخور منذ الأزل. حاملة معها نسمات رطبة من الشمال البعيد. وأخيراً استقر بنا المقام في القرية الوحيدة القابعة على قمة جبل (ايدوغ)، بعد أن صعدنا طرقاً ملتوية ضيقة. بين الغابات الكثيفة الخضراء. منزلقين تحت الغيوم الرطبة التي تلامس ثنايا الأشجار صيفاً وشتاء. كان الهدوء يلف بيوت القرية البيضاء الناصعة. ذات الأسطح القرميدية الحمراء. والأزقة الضيقة المغسولة بالندى المتساقط من الغيوم الوافدة في كلّ لحظة. تَجَوَّلْنا في كلّ مكان. وشربنا من النافورة الحجرية في الساحة العامة. المسوَّرَةِ بأشجار السرو والصنوبر وآلاف العصافير تعيش عرساً دائماً بين أغصانها وصوت أم كلثوم. وكلمات (أنت عمري) تأتي من بعيد! ! توجهنا نحو الصوت فأمسكنا به في المطعم الذي يُقَدِّمُ وجباتٍ بحريةٍ طازجة. وبعد تَوَقُّفٍ قصير. صافحنا رجلٌ أنيق المظهر، ممسكاً بيدي إلى الداخل مؤَهِّلاً: أنا استمعت إليك وأنت تتحدث عن

فلسطين في مسرح عنابة. الآن أنت ضيفي مع صديقك. وكل شئ على حسابي الخاص. وأرجو أن تقضي يوماً ممتعاً. حاولت إيقافه عن المتابعة للسؤال عن أم كلثوم ولكنه استبقني قائلاً: لقد ذهبت خصيصاً إلى تونس واشتريت الأسطوانة. وعدت ليلاً تونسَ كلُّها تسمع أم كلثوم، وكل الأماكن العامة لديها أنت عمري!!

أجلسنا " السي عبد المجيد" حول طاولة تشرف على الساحة العامة والبحر. وملأ الطاولة طعاماً وشراباً وذوقاً عالياً. وكرماً أصيلاً. وانصرف نحو الزبائن المتراكمة.

قاربت الشمس المغيب ونحن جالسين نأكل قليلاً ونشرب كثيراً، ونسمع المقطع المعاد مرات ومرات:

هات عينيك تسرح في دنيتهم عيني

هات ايديك ترتاح للمستهم ايدي

ياحبيبى تعال. وكفاي اللى فاتنا؟!

هو اللى فاتنا يا حبيب الروح شوية

رواد المطعم بكامل زينتهم ورونقهم. متزوجون. وشبان في مقتبل العمر. عشاق وعشيقات من مناطق بعيدة. فرنسيون وعرب. الكل مستغرق في هذا الجو المشبع برائحة الغابة المعطرة. والكل تنعشه النسمات البحرية. ويوقظه طعم النبيذ الجزائري المشبع بدفء الشمس وأشعة القمر. وصاحبنا "عبد المجيد" يستعيد دوران الإسطوانة العزيزة على قلبه. كلما انتهت دورة الموسيقى الغربية الهادئة. يجالسنا أحياناً ليتناول رشفة نبيذ واحدة. وعيونه تضج بالفرح. والبسمة لا تفارق

شفتيه. وبعد أن بدأت الشمس تهرب من القرية. وتحاول السقوط بعيداً وراء الجبال المجللة بلون اللهيب الساطع. ودعنا صاحبنا الطروب "عبد المجيد" مستحلفنا بلقائه مرة كلّ أسبوع وسيكون في غاية السعادة.

تحدثنا طوال الطريق. حديثاً أليفاً فيه نشوة المحبين. وأنزلني "بو زيد" بعدها أمام المنزل في قالمة. فتاهت قدماي في شوارع البلدة. وحيداً، لا أريد أن أصادف أحداً لا أعرفه. ولكنني كنت أبحث عن صوتٍ نسائيٍّ يقربني كلام أم كلثوم من قلبه حين تصدح:

يا أغلى من أيامي   يا أحلي من أحلامي

خدني لحنانك خدني   عن الوجود وابعدني

وها أنا أبتعد لأحضن غرفة وحيدة تغلق جدرانها على آهاتٍ بعيدة.

جان كلود:
حكيمٌ يداوي الفقراء

(عدم الرضا هو الخطوة الأولى في طريق التقدم
لأي رجل وأية أمة)

أوسكار وايلد

- ١ -

- بحثنا عنك في كلِّ مكان، وأنت هنا يا محمد!؟

قالها الطبيب الفرنسي جان كلود، فاتحاً ذراعيه للعناق، مصطحباً كعادته زوجته (رشيدة) القبائلية الأصل، وأخته (فرانسوان) الشابة المليحة المتزنة. كانت مفاجأةً لي، ولكل رواد المقهى عندما دخل ثلاثتهم كموكبٍ غريبٍ بملامح غريبة تستلفت الأنظار. نهضت عن الكرسي، وتقدمت سريعاً باتجاه المدخل، ولم تكن المصافحة العادية المملوءة بالود والاحترام كافيةً، حتى اضطرنا الحال، للعناق الشديد على الطريقة العربية الحميمة! وبقَيتْ أيدينا متماسكة. حتى قَدَّمْتُ صديقي "بو زيد" لهم أسرع نادلُ المقهى يرتب لنا طاولةً جديدةً، رحبة،

وينظفها بنشاط محموم. مُبَدِّلاً منافض السجائر بمنافضَ جديـدة لامعـة، وقد اختار لنا الزاوية المطلة على الرصيف الممتلئ برائحة الشواء والخمر.

ارتاح كلّ واحد منا بطريقته الخاصة. ونحن نتبادل النظر والابتسام المحير. (رشيدة) جاورتني وافتتحـت الجلسـة بالعربيـة التـي تعرفـها: جان كلود يتطلع للقائك منذ مدة طويلة ولم ينس ضيافتك لنا في عنابـة، وحديثك الذي لفت انتباهه وشدّه إلـى قضيـة جديـدة. حقـاً لقـد كنـتَ كريماً معنا في كلّ لقاء...

أشعرتني عباراتها بالحياء. فسرت في جسدي رعشة باردة مفرحة، استجمعت قواي بعدها مجيباً بالفرنسية: كنتُ كريماً لأنكِ كنتِ تَشْقَيَن بالترجمة بيني وبين جان كلود وفرانسواز وها أنا سعيد بلقـائكم. وكـان تصوري أنكم غادرتم إلى فرنسا. وإلا فالمواصلات متوفرة حتى (صدارته) وأنا جد مشتاق للحديث معكم، فأنتم يا رشيدة أصحاب البـلاد. ونحـن ضيوفكم.

جان كلود يتابعني بنظـرات الدهشـة خلـف نظارتـه الطبيـة: هـذا مستحل يا محمد. كل هذا تعلمتـه في قالمـة. لقـد أصبحـت باريسـياً!! وأحنت(فرانسوان) رأسها نحوي. وابتسامةً شفافةً تبدو في عينيها قائلة: الآن أصبحت مريحاً جداً. وسأسمح لك بالرقص معـي حتـى الصبـاح في عنابة!

أشاعت فرانسواز بعبارتها جواً من الضحك المسموع، فعقب بو زيـد قائلاً: لقد كان محمد تلميذاً نشيطاً في مدرستنا يا دكتور.

أنا أعرفه معلماً. فكيف تَبَدَّلَ الحـال! قالـها جـان كلـود متسـائلاً. فقلت:

لقد لعبت دور الأستاذ والطالب في نفس الوقت. وأنت تَعْلَمُ يا جان أن المعرفة ليست حالةً طارئةً على الإنسان. والحقيقة أنـي كنـت أشـعر بالحاجة إلى التعلم. وأنت شخصياً شجعتني على ذلك والجـو المحيـط كان يدفعني نحو امتلاك لغة أخرى للتخاطب وكانت متعة شـخصية أن أفهم الآخرين بلغتهم.

– 2 –

تقـدم صـاحب المقـهى. بقامتـه المديـدة. نحـو مجلسـنا مصافحـاً الضيوفَ ومرحباً بعباراتٍ فرنسيةٍ. فيها الكثيرُ من اللطف وحسن الأدب والذوق. وسأل الجميع عن مشروبهم. ثُمَّ طاب الحديث عندمـا اصطفـت فناجين القهوة السوداء، والأخرى المزوجة بالحليب، على الطاولة جان كلـود ورشـيدة لا يدخنـان. بينمـا فرانسـواز عاشـقة تدخـين مـن نـوع (الجيتان) الفرنسي ذي العلبة الزرقاء المفلـترة وعاشـقة قـهوة مـن النـوع المكثف جدا.

بدى المرح. والشعور بالرجولة. على رواد المقهى فالجلسة أصبحت ممزوجة بمجالسة الجميلات من النساء التي نـادراً مـا ترتـاد مثـل هـذه الأمكنة في قالمة.

صار الجو أكثر هدوءاً. وامتلأت كراسي البار ذات السـيقان العاليـة عـن آخرهـا. وازدادت بالتـالي طلبـات البـيرة البـاردة. و(الكريسـتال) الحليبي المزوج بالماء والثلـج. وكـثرت أعـداد الأطبـاق الصغـيرة المعـدة سلفاً. لتذوقها مع المشروب. وبقيت الطاولات البعيدة عنا عامرةً بقارئي الصحف ولاعبي الورق. الذيـن تتعـالى أصواتـهم بـين الحـين والآخـر. وقتها أضحى المقهى مكاناً تنصهر فيــه النفـوس البشـرية وأصبـح المنـاخ اجتماعيا أكثر اعتدالاً. وأرَقَّ حاشِيةً.

- 3 -

جان كلود أخصائي بالطب العام، باريسي، تجاوز العقد الرابع من العمر. ذو شعر أشقر خفيف. وعينان زرقاوان مليئتان بالفضول. هزيل الجسد. طويل القامة من غير انتصاب، تكسو وجهه لحية شقراء كثة، تتخللها شعرات بيضاء، يداه جميلتان ناعمتان كيدي المسيح، لا يبدي اهتماماً زائداً بمظهره. فهو طبيب القرية بحق، عليك أن تنصت إليه جيداً عندما يتحدث. لأنه يتكلم بصوت خافت أقرب إلى الهمس، وأحياناً يشرك يداه الرقيقتان في التعبير ولكن بطريقة لطيفة.

تَعرَّفَ على زوجته المرضة الجزائرية في أحد مستشفيات ضواحي باريس. حيث كان يعمل. وكانت الثورة الجزائرية في تألقها، والشعب الفرنسي منقسمٌ على نفسه. وقد استدل جان كلود بعقلانية المُتَبَصِّر بالأمور السياسية بعدالة هذه الثورة واستدل أيضاً عن طريق رشيدة على معاناة الشعب الجزائري، ومدى الظلم والوحشية التي يعامل بها عندما أتى زائرا للجزائر وعرف بالتالي أن القيم الحضارية الفرنسية التي تعلمها. ما هي إلا مبادئ تطبق في الداخل الفرنسي فقط. أما الممارسات الدموية التي تطبق على الشعوب المسالمة، الواقعة تحت سلطة الاستعمار الفرنسي. فلم تكن تعني له سوى قَتْلاً للقيم والروح الإنسانية للشعب الفرنسي ذاته. الذي يَدَّعي نشر الحضارة وقيم الإخاء والعدالة!

فانخرط جان كلود مع أخته خريجة علم الاجتماع في الطرف الآخر من المعادلة الفرنسية. وأصبح ميالاً إلى التيارات السياسية. والفكرية المنادية بحق الجزائر في تقرير مصيرها بنفسها، واشترك عدة مرات متظاهراً ضدَّ حكومةِ بلده. وعوقب على ذلك بطرده من العمل في المشفى الحكومي وَزُجَّ في السجن لفترةٍ طويلةٍ، خرج بعدها أكثر تمسكاً بعدالة

تفكيره ومسلكه السياسي وتَكَوَّنَ نهجه العقائدي في السجن. فأصبح ماركسياً. يعرف إلى أين. ولماذا يسير، واتجه ميله بشدة للتعرف على حركات التحرر العالمية. والعربية. وخاصة حركة التحرر الفلسطيني.

- 4 -

السيدة رشيدة ذات الجسم الضئيل المنحوت من صخرة بيضاء صلدة من جبال القبائل الشامخة. والشعر الفاحم المقصوص على الطريقة الفرنسية فاضحاً عن رقبة جميلة تغزوها الشامات البنية بلون الكستناء، تشبه فرانسوا ساغان – في ذلك الوقت – ولكنها تحسن الحديث المثقف والعمل المجهد. بدل الكتابة مع جمال متوسطي دافئ بدلاً من برودة ساغان الشمالية!

هذه السيدة الرقيقة لها عينان سوداوان واسعتان. وتعابير وجهها تميل إلى حزن دفين مستوطن. متوارث منذ القدم كسائر أحزان نساء الشرق!

كانت لصيقةً بزوجها تستمع إليه حين يتحدث كتلميذة صغيرة وتعاشره بخجل واضح. وتعتبر زواجها منه مكسباً لوطنها. وضريبة دفعتها بنفسها خارقة بذلك تقاليد وعادات منطقتها. وما زال الزوجان يحتفظان بحرية المعتقد. دون القيام بالواجبات الدينية جهاراً. وقد أشعرني جان كلود مراراً – من خلال حواراته – بأنه يكاد يقترب من عقيدة زوجته بالإحتكاك المباشر مع الفلاحين والفقراء. ذوي النقاء الداخلي. والأمناء على عقيدتهم، وملكهم الشخصي، جعله يعيد النظر بالعقائد البشرية ويدرس الناس على طبيعتهم دون حواجز إستشراقية تميل كثيراً إلى قلب الحقائق وكانت رشيدة نموذجاً إسلامياً مشرقاً يراه كلَّ يوم وليلة ويتأثر به.

- 5 -

(فرانسواز) لا تمتلك مواصفات البنت الباريسية، المدللة المترفـ المعجبة بإظهار أنوثتها، تحسبها واحدة من بنات الغرب الأمريكي اللواتي يمارسن العمل الشاق والعيش بحرية مع الطبيعة، فهي لا تعرفـ الميني جوب، ولا القميص الملاصق للجسد، على طريقة بريجيت باردو موضة الأنثى في الستينات - ولكنها كـ (جين فوندا) الحسناء البرية التي تلبس الجينز، وتركب الخيل، وتعيش في المزرعة مرهقةً بالعمل وتحب الرجل الشهم.

كنت أناديها (أفروديت) لأنها كانت ممتلئة الجسد وجهها يشبـ وجهاً من وجوه بنات بلاد الشام، تَتَفَرَّسُ بك بعينين بنيتين متعطشتيـ لكل جديد، وشعر كستناوي غزير، مقصوص فوق الرقبة تلبس قميصـ صوفياً بأشكال مربعة متروك فوق بنطال ضيق من الجينز الأزرق الغامق مع حقيبة جلدية تتعلق بكتفها، مَدْسوسٌ فيها كلّ أدوات الكتابة وأدوات الزينة الخاصة بها.

عازبة تقترب من الثلاثين غارقة في العمل مع أخيها إلى حـ الإرهاق، وتتابع دراستها للحصول على الماجستير في علم الاجتماع غالبـ ما كنت أشاهدها في عنابة، تُدَوِّنُ في مفكرتها ملاحظات سريعة، ولكنهـ في غاية الأهمية لموضوع رسالتها، تدون حالات اجتماعية شاهَدَتْها قرية جبلية، أو في دشرةٍ نائيةٍ أوفي ناصية الطريق العام، أو المقهـ والمطعم.

فرانسواز مثقفة تعلمت خلال عملها كيف تتقن العربية الدارجة إلى جانب إتقانها لفن الحوار الفكري، وتحليل الموضوع المطروح مـ زواياه الاجتماعية، والاقتصادية، الدينية، وتعرف بالتالي كيف تصغـ

للطرف الآخر. واضعة ثقتها الكاملة بجميع النـاس، وكـانت تقـول لـي كلما رأت مكاناً دَنَّسَهُ الفرنسيون وخربـوه: علينـا نحـن الفرنسـيين. أن ندفع ثمناً كبيراً للحالة، التي تَرَكْنا بـها الشـعب الجزائـري، علينـا أن نواجه الحقائق في العالم الثالث، ولا نخفي القناع الذي نلبسـه وبالتـالي علينا أن تنعلم طرق وحياة الشعوب الأخرى، التي هي أكثر قِدَماً مِنّـا في مضمار الحياة الحضارية السابقة.

كانت فرانسواز تحب الأطفال، وتنطق لغتهم وتداعبهم في كلِّ مكان كنا نزوره، في ولاية عنابـة. وتحـب الأرض المفلوحـة بـالأيدي البشـرية الشريفة. ومن هنا كانت مثيرة للإهتمام والحب!

- 6 -

هـذا الثلاثـي الـذي يفضـل العيـش في الأمـاكن البعيـدة النائيـة، مستخدماً سيارة (السيتروبن) ذات الحصانين الرخيصة الثمن. العملية في طرقات القرى والدساكر في الجبـال الجزائريـة الوعـرة. يعـالج في بعـض الأيام في مستوصفه المتواضع. أكثر من مائة حالةٍ مرضيةٍ. ولم يكن جان كلود يتوانى مطلقاً في نقل مرضـاه بنفسـه إلـى أقـرب مشـفىً حكومـي، والإشراف على حالته بصورة دائمة.

لم يكن راتب أيٌّ واحدٍ منهم يزيد عن راتـب أيُ جزائـري يمـارس نفس المهنة! فلم يكن لديهم طبيعـة اغـتراب كـالآخرين. فـالعقود التـي يعملون من خلالها كانت عقوداً شخصية وليست حكومية! كانوا جميعاً يعيشون نفس حالة الفلاحين في البلدة الصغيرة.

مـن حيـث المـأكل والمشـرب، والحيـاة المتواضعـة، لاشـيء إطلاقـاً يميزيـهم عـن الغـير، ومـن هـذا المنطلـق اسـتحقوا إعجـاب النـاس، واحترامهم، أينما حلوا وارتحلوا. علماً بأنـهم - وبقـرارة أنفسـهم - لـم

يكونوا بحاجة أو انتظار لمثل هذا الإعجاب. ولا حتى الشكر من أحد! أنَّهُم من طراز المثقفين الملتزمين. العمليين. النبلاء، الذي اختاروا هذا الطريق طواعية لا حباً بالإعجاب، أو المال. ولكن احتراماً للروح البشرية وللأجساد البشرية المعذبة. مهما كان معتقد هذه الأرواح ولونها وجنسها.

- 7 -

طال وقت الجلسة وقد أخذ الحديث عن الأوضاع الجزائرية حَيِّزاً كبيراً. تحدث فيها جان كلود وفرانسواز عن الأوضاع الصحية، والاجتماعية بشكل عام وتحدثا بشئ من التفصيل عن أوضاع المنطقة التي يعملون بها. وحاجتها الماسة لكثير من الخدمات العامة، من الوجهة الصحية والاجتماعية. ومدى حاجة المنطقة للأطر المدربة ارتقاءً بالمستوى الصحي والاجتماعي لها.. وقد سحبت وبدوري حالة التعليم مطابقاً بينها وبين كافة الحالات الأخرى. وقد أكد الجميع دقة المرحلة وخطورتها. وحاجتها للكثير من الجهد. والإتقان. للوصول بها إلى حالة الإستقرار والهدوء. والانطلاق بعدها إلى مستويات أرفع وأرقى.

واستطاع جان كلود دفعي للحديث عن القضية الفلسطينية، وعن رؤية الحركة الفلسطينية الجديدة للمستقبل. وعن الأسلوب السياسي، والنهج العقائدي الذي ستسير بمقتضاه، وكان من الصعب عليَّ أن أبحث بالتفاصيل، فالقضية تتصف بالتعقيد على المستويين الإقليمي والدولي، ولكني تمكنت من إيصال بعض المعلومات الأولية المتوفرة عن المبادئ الرئيسية والمنطلقات. والأهداف العامة، فأصغى الجميع للحديث. وارتسمت تساؤلات كثيرة حوله، ولكن جان كلود بادر يشرح وجهة نظره:

القضية الفلسطينية والثورة بالتالي، مهما كانت منطلقاتها سليمة وعادلة. فلا بد من إنشاء أقنية للحوار مع الطرف الآخر في يوم ما، فاليهود يستمدون قوتهم من نفوذ اللوبي الصهيوني في فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة. ولكن هناك شريحةً كبيرة من المجتمع الإسرائيلي يمكن اللقاء بها والتحدث معها. من هنا يمكن اظهار عدالة قضيتكم بأسلوب يفهمه العالم. وثورتكم لا تشبه أيُ ثورة أخرى في أيُ مكان، إنكم تقاتلون دولة استطاعت خلال فترات الهدوء السابقة أن تضمن عطف وتضامن دولاً كبرى لنجاح وتقدم نظامها السياسي والاقتصادي والعلمي، فالقضية تحتاج للحكمة والعقل، والعمل السياسي، والعسكري معاً. وبعد أن توقف جان كلود عن الكلام شعرت بدقة الوضع وتشابكه وتكون القناعات بذلك. ولكن الزمن اثبت أن جان كلود كان متنبئاً صادقاً.

تدخلت فرانسواز بالنقاش محللة أسباب الصراعات في العالم والتنازع الدولي لكسب مناطق للنفوذ ومصالحٍ الدول الكبرى من وراء الصراعات الإقليمية. ولكنها أكدت لنا جميعاً بأن الصراع مع الدولة العبرية - كما كانوا يسمونها- هو صراع حضاري بحت! فعندما ينخرط العرب والفلسطينيون الذين هم جزء منهم بقواهم المادية والروحية والسياسية التقدمية في الساحة العالمية. فإنهم يكسبون شعوباً كثيرة تقف إلى جانبهم. ولا تتهمهم بالعداء للسامية والموضوع الديني في هذه القضية سيلعب دوراً ثانوياً. على عكس التيار الديني الجزائري الذي لعب الدور الأساسي في الصراع!

بعدها تناول "بو زيد" دفة الحديث، وكأنه يرد بذلك على بعض العبارات التي سمعها ولم تقنعه وقد اعتبر القضية الفلسطينية قضية

مقدسات إسلامية. وأراض إسلاميةٍ احتلها أناس غرباء عن هذه الأرض ولا يمكن التنازل عنها وشرح مفهوم الجهاد الديني. معتمداً على آيات من القرآن الكريم والحديث، وزاد متحدثاً عن وضعية اليهود في القرآن، وأساليب تفكيرهم التي تحط من قيمة الشعوب الأخرى. وذكّرَ الحضورَ بالكثير من الحوادث التي شاهدها بنفسه في فرنسا، مدللاً بها على دور الجالية اليهودية في تخريب القيم الحضارية الفرنسية واختراقها وإفسادها من الداخل.

ولقد أثار بو زيد اهتمام الضيوف بما قال، وسجلت فرانسواز كثيراً من الوقائع القرآنية في دفتر يومياتها. وهزت السيدة رشيدة رأسها مراراً وهي تبتسم بارتياح لما يقال. وظل جان كلود متكئاً على ساعديه ينصت بانتباه لما يجري.

— 8 —

تململ جان كلود دافعاً جسده إلى الوراء، ناظراً إلى رشيدة كأنه يقنعها بالرحيل. بعد أن سمع دقات ساعة المقهى. معلنة الحادية عشرة ليلاً. ولكن فرانسواز سبقت الجميع مستأذنةً وآسفةً على ترك الجلسة. وبدأ الكل يجمع أغراضه المنشورة على الطاولة. ووضعها في الحقائب الجلدية لرشيدة وفرانسواز: حاولْتُ إقناعهم بالبقاء في قالمة والعشاء مما نجده ليلاً، والنوم في غرفتي حتى الصباح، ولكن جان كلود اعتذر بشدة لأن عمله يتطلب أن يكون باكراً في (صدراته) على رأس عمله لاستلام وجبةٍ جديدةٍ من الدواء الضروري.

كان وداعاً عاطفياً مؤثراً. شارَكَنا فيه رَوّادُ المقهى كأسرة واحدة، ووعدت جان كلود بزيارته مع بو زيد في العطلة القادمة، بعدها تحركت السيارة وتاهت في عتمة الليل. ورغم كثرة فناجين القهوة والحليب التي

قدمت لنا مراراً. فإن السي صالح -صاحب المقهى- لم يقبل مطلقاً أن أدفع ديناراً واحداً ثمناً لذلك. واعتبر هذا الملتقى احتراماً لمكان عمله. وكان ذلك بالنسبة لي أصالةً عربية جزائرية، زادتني إعجاباً بهذا الشعب الذي يحترم من يعيش حياته، ويقدر مبادئه ومواقفه.

لقد كانت الساعات التي قضيتها في هذا اللقاء كافية لكي يدرك الإنسان أنه (جاء إلى هنا لا طلباً للاستراحة ولا لجني المال. وأكاليل الغار. ولا لمعالجة الجروح. لقد جاء المرء إلى هنا، كي يحيا، ويعمل ويناقش ويتعارك أحياناً).

لقد كنت أناقش أناساً منفتحين على الخير وغير متسامحين مع النذالة والظلم وفكرت طويلاً بما سمعت، ولكن لم أستطع إيصال ذلك إلى أطر الثورة في بلادي! ولم تستوعب تلك الأطر مثل تلك الطروحات إلا بعد عقدين من الزمن. كانت وقتها قد دفنت أعداداً لا حصر لها من المقاتلين والمدنيين الشهداء!



رمضان قالمة:

(عـــودة الـــروح)

(صوتُ الحقّ لا يُسْمعْ أحيانـا بـالأُذْن ولا بالرّأس ولكن بالقلب)

توفيق الحكيم

— ١ —

في رمضـان تَكْتشِفُ روح قالمـة، ومعـها روحانيـة الجزائر كلــها، وتسـتجلي الأثـر العميـق للـتراث الإسـلامي، وتلحـظ تغـيراً ملموسـاً في أساليب الحياة الشخصية والعامة، وتبدو رؤية الأشياء مختلفة. فضوضاء المدن- والبلدات- والقرى اليومية- تختفي من الشوارع والأزقـة مسـتقبلةً هـدوءاً داخليـا- مشـبعاً بـروحٍ جديـدةٍ، تـبرز جليـة علـى الوجـوه، والتصرفـات، فزحمـة الحيـاة العاديـة، واضطرابـها وتداعياتـها علـى المجتمع تختفي قليـلا- تاركـة النفـوس كيمـا تعيـد كيانـها الداخلـي، والبحث عن المعنى الحقيقـي للوجـود وهكـذا تسـير النـهارات متهاديـة بطيئةً كرجلٍ وَرعٍ يتجه نحو المعبد، ولكـن بعـد صـلاة الـتراويح، التـي

تؤدى في المساجد. يتحول الليل إلى ما يشبه احتفال العرس. في الدّور والشوارعِ والمقاهي. والأماكنِ العامَّةِ. شموعٌ تُضاءُ، وأطفالٌ يغنون، ويعبثون. ويجوبون أسواق البلدة وطرقاتها، والمقاهي تكتظ بالرواد الصالحين والحكايا والقصص الآتية من أغوار التاريخ والأسطورة، والأحاديث الدينية الطافية على سطح الذاكرة الآنية، والتي تجعل من القلوب أكثر رقة وشفافية ورحمة. وتستمر اللقاءات والصحبة، حتى اقتراب موعد الإفطار في المغرب استعداداً لاستقبال الضيوف. والغرباء العاملين بعيداً عن أسرهم وذويهم.

– 2 –

كان الصيام في الستينات يأتي شتاءً، فكان واجباً سهلاً يسيراً على النفوس والأجساد. والقليل من أهل الجزائر من يترك هذا الفرض المقدس. كان ذلك في زمن الاستعمار كالصلاة فارقاً بين الكفر والإيمان. ومع ذلك فالتعميم ليس في منتهى الدقة، فلِكلٍّ أسبابه الذاتية وظروفه الموضوعية. ولكن الفكر الجماعي الجزائري. فكر عقلاني. تسوده روحانية متوارثة. يعتبر الدين ركناً أساسياً في حياة البشر. ويبرز هذا الركن أشد ما يكون في رمضان. وبالرغم من هذا كنت أحس برتابة هذا الطقس الديني سنة بعد أخرى حتى أوشكت القول: بأنه تقليدٌ اجتماعي لم تكن تتم أركانه بدرجة كافية. من معظم المؤمنين. إلا من أصحاب الطرق – وهم كُثُرٌ في الجزائر– المتمسكين بأهداب العقيدة، وقواعدها وأصولها. وكانت غالبيتهم في البلدات والقرى والدساكر. وأقلهم في المدن الكبرى. هذه المدن ذات التأثير العصري المتغرِّب، المشبعة بالتيارات الفكرية والفلسفية. وخاصة تيارات الفلسفة الجديدة كالوجودية عند (سارتر) والعبثية عند (كامو) والماركسية السابقة عليهما عند (ماركس).

– 3 –

وبما أني لست صاحب عقيدة متناقضة، وإنما تعيش روحي وفق عقيدة بسيطة وراسخة. والحب الروحي هو الذي يجعلني أشارك سواي حياتهم. وهمومهم. وحاجاتهم. لذلك أُصَلّي التراويح في المسجد القديم، المجانب للسوق مع بعض الأخوة الشرقيين، وجَمْعٌ كبيرٌ من أهل قالمة، ومن كافة الأعمار.

وكان إمامُ المسجدِ رجلاً ضخماً مَعَمَّماً، على طريقة رجال الدين في الجزائر يرتدي زيّاً كاملاً أبيض كالثلج. يتلو القرآن بإتقان واضح، بصوت فيه مسحة من الحزن. ويصلي بنا بخشوع دائم. دون أن يثقل على المؤمنين. لا بالصلاة ولا بالدعاء، وكان عقب انتهاء الصلاة – وفي كلّ مرة – يصافحنا فرداً فرداً. والبهجةُ والسرورُ يُشعّان من وجهه النقي البرئ. ويقطران من لحيته الجميلة المخضبة بالحناء. وكنت ألحظه كل يوم. وفي أية ساعة من ساعات النهار. متجولاً في أسواق البلدة وطرقاتها العامة. برفقة اثنين من أهل طريقته– القادرية– التي يغالي في تقديرها وتعظيمها. مراقباً بذلك أحوال العامة، ومتأكداً بأن المقاهي والمطاعم العامة مغلقةً. وكان يفعل ذلك دون تكليف من أحد، ويلقى مع ذلك ترحيباً، واحتراماً. في كلّ مكان يحل فيه، فهو رجل إيمان. معروف بالصدق والتقى ومجللاً بإكليل غار، كمناضل قديم ضد الاستعمار، ولفترةٍ طويلة من حياته قاسى فيها كلّ أنواع التعذيب والحرمان.

– 4 –

في القرية تمر الأيام الرمضانية بطيئةً متثاقلةً قاسيةً وحزينة، دونما حدود. فالإفطار مع الأهل والأسرة والجيرة أحياناً طقس مقدس عند أهل

الإسلام فلن يستسيغ المرء أبداً إفطاراً -مهما كان مغرياً في بيوت الآخرين أو في أيّ مكان آخر من العالم. إن إفطار الغربة هو إحساسٌ بالشبع فقط، لكنه ليس شعوراً بلذة الشبع، والحمد والألفة مع الغير، إنه فقدانٌ للإحساس الجماعي. بقدرة الخالق الآمرة بالجوع والظمأ والشبع والإرتواء في يوم واحد، وفي ساعات من اليوم لها حدودها وأوقاتها.

وفي كلّ مساء قبل الإفطار كنت أقطع الشارع الرئيسي في قالمة، وحيداً متدثراً بلباس دافئ. وبقبعةٍ صوفيةٍ، عشراتَ المراتِ أجانِبُ الأبنيةَ المغلقة. والسور التاريخي القديمِ. وحديقة البلدة الوحيدة الراقدة تحت البرد. استنشق خلالها هواءً نقياً منعشاً، يزيدني إغراءً بالطعام والتدخين وأهل البلدة يتراكضون نحو منازلهم مثقلين بحاجاتٍ رمضانيةٍ كثيرة. ترهق الأنفس والجيوب. وخاصة جيوب الفقراء والمساكين. وبعد صفارة الإنذار المدوية معلنة ساعة الإفطار في كلّ أنحاء البلدة والتي يصل صوتها إلى الكثير من القرى المجاورة، تخلو البلدة من المارة وتضاء الشوارع التي بدأ الظلام يكسوها شيئاً فشيئاً. وتظهر نوافذ البيوتِ المضاءةِ. وأعمدة الدخان تتصاعد من أسطحتها. كان يحلو لي التجوال ساعتها فأقضي زمناً وأنا أدخن لفافةً تحاورني منذ الصباح. فأشبع صدري بلذتها وسمومها. والكلاب والقطط الشاردة، هي الوحيدة التي تشاركني مثل هذا التجوال. باحثةً عن البقايا تسد به جوعها. وكنت في هذا الحال أبحث عن نفسي في خضم هذا السكون الأبدي. والموت المؤقت. وعندما انتزع الرحيق الأخير من لفافتي أُعَرّجُ على مطعمي في طلعة البازار وصاحبه "عبد الحميد" صديق عبد الوهاب. لأجد الحساء ساخناً ينتظرني على الطاولة، فيشاركني صاحبي في الوجبة المقدسة، مسرعين نحو التدخين وشرب القهوة وسماع المدائح الرمضانية من إذاعتي

عن الجزائر وتونس القريبة ثمّ نغادر سويا، نحو المسجد، لنؤدي صلاة العشاء والتراويح. فيستغرق صاحبي في روحانية المسجد العبق، بكلمات الله وكثيراً ما كنت ألحظه والدموع تنسكب من عينيه لأن الدموع المسفوحة من خشية الله تقي صاحبها من مساس النار. كانت دموعاً صادقةً تستجدي التوبة والمغفرة.

وكان (عبد الحميد) ذلك الرجل الذي يعشق الحياة، ولا يترك سانحة تفوته للإستمتاع بها منتهكاً في كثير من الأحيان محرمات مقدسة. ويبرر سوء استعمالها بالرحمة والمغفرة الكبرى من إلهٍ عظيم.

هذا الرجل كان يرى أن الحياة الموحشة على الأرض، يلزمها الكثير من الحرية، والفرح. والاستمتاع والنشوة، كي نقبلها، وكذلك الكثير من التوبة والدعاء! ونحن نقف مشدودين بين طرفي جدلية الحياة والموت، هذه الجدلية التي يكتسبها الإنسان، من ساعة الولادة إلى ساعة الوداع الأخير!.

— 5 —

كان الفجرُ بارداً. والسحب السوداء تملأ السماء. تحركها رياحٌ رَطْبَةٌ خفيفةٌ. معلنة قدوم المطر. والشفق الأحمر. يوشي الأفق الشرقي البعيد فتظهر السهوب. والأدوية والجبال، مصبوغةً بلون أزهار الرمان. صباحٌ قالمة الباكر لوحةُ فنانٍ مبدع، ولكن السكارى والمؤمنين وحدهم يتذوقون روعة الصباح. وتشكيلة اللوحة الإلهية!

وبقية الناس يعيشون في عالم من الدفء والنسيان! ولكن ليلة العيد هي الوحيدة التي توقظ الجميع. حتى الأطفال، يهجرون مضاجعهم،

وأحلامهم الجميلة. والكبار يُبَكِّرونَ لتذكر شهدائهم، لقد كانت الساعات الأولى من الفجر. وفي كلّ عام. قاسيةً علـى قلبـي ومشـاعري فتجعلنـي أحيا في جو من الدموع. والألم القاتل، فبعد أداء صـلاة العيـد، يسـتنفر أعضاء الحزب. وقادته. وشبيبته، تتقدمهم فرقة موسيقية ترافقها أعدادٌ كبيرةٌ من حملـة المشـاعل. متجـهين صـوب مقـابر الشـهداء، مصطفين جميعاً في المداخل أمامَ شواهِدَ لا حصرَ لها، وتعزف الأبواق صداح الوداع الحزين. ثُمَّ يقرأ الجميع فاتحة الكتاب يتقدمهم إمام المسـجد الجليـل، ورفاق الشهداء الذين باعدت بينهم سبل الحياة. ويُلقي الإمام كلمةً تضج بقيم الشهادة والجهاد. ثُمَّ يؤدي قائد المنطقة العسكرية التحية الرفاقيـة مع ثلة من الضباط الآخرين. ويرتجل كلمةً قصيرة معبرة. معـاهداً رفـاق السلاح بالسير على طريق الاستشهاد في فلسطين!! فيهز أعماقي بعد أن ألقى بيده على كتفي متابعاً للراقدين: وهذا واحدٌ من أهل فلسطين بيننا يحييكم. ويعاهدكم! كان الموقف مشبعاً بالعواطف النبيلة، ولكنه مشبعاً أيضاً برائحة الدم والموت والدمار.

وقد تأكد لي بأنه لا يوجـد في الجزائـر شـيئاً لا يسـتحق الملاحظـة والمعاينة والتدقيق. فكل موقـفٍ أو حـَدَثٍ لـه خلفيـة تاريخيـة تضـرب جذورها في أعماق الماضي لهذا الشعب العريق، تأبط قائد المنطقة ذراعـي ونحن في طريقنا نحـو البلـدة المسـتيقظة شـارحاً لـي بلهجـة العسـكريِّ المتمرس في شؤون الحرب وقتال الجبال. الأماكن التي كانت تدور فيـها المعارك مع الجيش الفرنسي، في أنحاء جبل "دبـاع" والتضحيـات التـي قدمتها قالمة من انتفاضة 1945 حتى ثورة التحرير الكبرى.

وعند مشارف البلدة بـدأ أعضـاء الحـزب، والضبـاط. وأنـا معـهم، يدخلون بيوتـاً لا حصـر لـها. والشـبيبة تقـدم الـهدايا لأسـر الشـهداء، وتصافحهم مع الأطفال اليتـامى بمناسـبة العيـد، وكنـت حينـها أسـمع زغاريدَ كأنها زغاريد العرس. وأسمع أحياناً عويلاً وحزناً يُقَطّعَ الأفئـدة والقلوب. والموسيقى في الشوارع تعزف نشيد الثورة.

في هذا الجو الممتزج بالعيد والفرح، وبالشهادة والأسى، وبـالاعتزاز والكراهية، وبالحياة والموت، لم يمنع كلّ هذا أطفال قالمة، الذين ولدوا، والموت قريب من رقابهم، من ارتداء ألبسة العيد الزاهية، والانطلاق نحو الفرح. ومتابعة الجمع المتزايد نحو الساحة العامة للبلدة حيث استقر بنا المقام والشمس تفصح عن ولوج الصباح بقوة رغم تكاثر الغيوم والسحب.

فقالمة تحب الحياة حتى الموت. وتتقرب من الله بالدعاء لعله يغفر ويسامح هؤلاء البشر المتسـرعين في الحيـاة والذيـن "زينـت لـهم الحيـاة الدنيا".

تذكرت وأنا في رحاب المقابر البعيدة المطمئنة على تـراب وطنـها، مقطعاً من القصيدة الخالدة للشاعر الأمريكي "كبلنج" كنت أود أن تحفـر على الشواهد غير بعيدة المعنى من سورة الشهادة القرآنية حين تقول:

إذا رأيت الناس ضَلّوا.....

ووقفت أنت وحدك تناضل في سبيل الحق....

فاعلم أنك رجل... وأن الخلود لك...

لم أزر في ذلك اليوم أمواتاً بل أحياءً عند ربهم يرزقـون، وذلـك هـو الخلود. وهم الذين يستحقون وسام الأبدية.

قالمة:
فريق كروي مغرور

(لا يمكن أن يكون هناك الكثير تخافه في بلد
فيه الكثير من أصحاب الوجوه الأمينة)

- 1 -

يتنفس الجزائريون كرة القدم، كما يتنفس الناس الهواء في كلّ لحظةٍ من حياتهم. فلن تجد مدينة كبرى. أو بلدة متواضعة. إلا وفيها فريق لكرة القدم. مع ملعب. فيه كلّ ما يحتاج إليه اللاعبون. والهواة، والمحترفون. على حد سواء.

وكان فريق قالمة واحداً من فرق الدرجة الأولى، وفي الترتيب العام لفرق الدولة كلها. رغم صغر البلدة وقلة عدد سكانها مقارنةً بالمدن الأخرى.

وإذا ادَّخَرَ جزائريٌّ نُقوداً طوال أسبوعٍ، أو شهر. فإنما يدخر ذلك للسفر مع فريقه في مرحلة الذهاب. مهما كانت المسافاتُ بعيدةً، حتى

لو اجتاز حدود بلده صارفاً ما ادخره على الكثير من الشراب، والأكل، والاستمتاع. وإذا نجح في التغلب على الفريق المضيف فإن البلدة تعيش عرساً احتفالياً صاخباً حتى الصباح.

إن لغة النصر في الجزائر تحتاج دائماً، إلى مواكبَ ومشاركةً وصخباً في كلّ شئ. والقوانين ساعتها قليلاً ما يسري مفعولها، ودلالة هذه الحالة شعورٌ من الناس بأن حياتهم لابد لها من التغيير والحركة، والتنفيس عن رغباتٍ دفينةٍ في اللاشعور الباطني لكل جزائري، فالصراخ. والقوة، والتحدي، من القيم السائدة في المجتمع، والتعبير عنها لا يكون إلا بصوت مرتفع. كصوت البنادق المقاتلة

– 2 –

الجيل الشاب في قالمة. يعرف بعمق من خلال أقنيةٍ إعلاميةٍ عديدةٍ. وضع الكرة في العالم. فالصحف. والمجلات الرياضية الفرنسية، والإذاعات الأوروبية. التي يَفْهَمْ لغتها. وشاشات التلفاز التي كانت في طور الإنتشار كل ذلك جعَلَهُ يعرف كلّ ما يجري على الساحة الكروية الأوروبية، وكلّ ما يجري في الساحات الكروية البارزة، وخاصةً في أمريكا اللاتينية وقد وصلت به المعرفة إلى حد إتقان التفاصيل فيعرف التاريخ الشخصي لكل لاعب أجنبي. واسم ناديه. وكم هو سعره، وكانوا ينظرون باعجاب واضح لكل لاعب مغربي أو جزائري يلعب في فريق أوروبي ولكن هؤلاء الشباب لم يفكروا يوماً،أن يتعرفوا على أيُ فريق عربي مشرقي، أو على حياة أيّ لاعب – ولو كان لامعاً– من الشرق. كان الشباب منحازين بشكل واضح. باتجاه الحياة الرياضية الأوروبية. كانت المظاهر الحضارية الأوروبية التي تعرض نفسها. تضع

أمامه صوراً واقعية من الحياة، ولم تكن الأمنيات القومية. وأحلام المستقبل تعني له شيئاً بقدر ما تحدثه الوقائع اليومية الساطعة، والجارية على الطرف الآخر من وطنه. مُحدِثةً في نفسه وعقله أثراً لا يمحى.

وكان هذا الشباب. يرى أن الكرة مظهر حضاريٌ حديثٌ، قائمٌ على العلم والمعرفة أيضاً. ومعتمدٌ على اللياقة الفكرية. والبدنية وفق التخطيط السليم والإتقان. مع إشباع عارمٍ لرغبات الناس كافة، فالمشاهدة لا تقوم على الإمتاع فقط بل على فكرٍ واعٍ قادر على كسب حرب سلمية بين الشعوب. يجب أن تخاض غمارها بكامل الأسلحة الصالحة لربح مثل هذه المعركة، والعرب برأيهم لن يصلوا إلى هذا المستوى إلا متأخرين مسافة بعيدة

— 3 —

اسْتَقْدَمتْ قالمة رغم ضآلتها، مدرباً يوغسلافيا لفريقها (وقد نسيت اسمه رغم صداقتي له) يتقاضى راتباً مرتفعاً، مضافاً إليه امتيازات الإقامة والسفر. وقد استطاع هذا العملاق خلال سنة واحدة من الجهد والتدريب. المستمر والإنتقاء. من ايصال الفريق (القالمي) إلى الدرجة الممتازة في الترتيب فنال هذا السيد احترام كلّ الأهالي. وقد عُدَّ في وقتٍ من الأوقات. أحد معالم قالمة، التي لا يجوز المساس بها. فكنت تجده في الأماكن العامة. مع بعض اللاعبين، أو الأصدقاء محاطاً بجمعٍ غفير من الناس يصافحونه بحرارةٍ كزعيم معترفٍ به، ويودعهم ليستقبل آخرين وكان نفوذه يبرز بقوة عندما يعود الفريق منتصراً من إحدى جولاته.

كان المدرب، ودوداً ويبدو الإحمرار على وجهه الممتلئ، وإذا وقف مودعاً، فإنه يبقى أطول وأعرض من كلّ الحاضرين، يمزج الفرنسية بكلماتٍ وعبارات عربيةٍ، تعلمها خلال تواجده في البلدة، ولكنه مع ذلك كان شديداً وحازماً على أعضاء فريقه يلقي التعليمات ولا يتسامح مطلقاً في تجاوزها، دقيقاً في مواعيد الدرس والتدريب، يَظْهَرُ الغضب جلياً على وجهه إذا صدر أيُ تصرف لا يدل على الإحترام والتهذيب، من أحد أعضاء الفريق، سواء أكان ذلك في داخل النادي، أو في الطريق والأماكن العامة.

كان يدعوني في بعض الأمسيات لزيارة النادي، وكنت أحرص من جهتي – بعد استئذانه – على حضور دروسه النظرية التي كان يلقيها على أعضاء الفريق، شارحاً بطريقة الرسم المتقن بالطباشير على السبورة، الطرقَ والأساليبَ التي تتبعتها فرق العالم في اللعب وعندما كانت السبورة تمتلئ بالرسومات والخطط، كُنْتَ تحسب أستاذاً للرياضيات أو الفيزياء قد كتب هذه النظريات،ورغم ولعه بالمدرسة الكروية الإنكليزية إلا أنه كان يشيد بمستقبل الكرة في دول أمريكا اللاتينية كالبرازيل والأرجنتين، وكان اللاعبون يتابعون الشرح السبوري، ويحاورون المدرب في كلّ حركة رُسِمَتْ أمامهم، وبعدها يبدؤون بتدوين كلّ ما كُتِبَ ورُسِمَ على السبورة في صفحات كراساتهم،وكل ذلك يجري إمّا مُرَمَّزاً أو مكتوباً باللغة الفرنسية، وحال انتهاء الحصة النظرية يبدأ التطبيق العملي بعد تمارين الإحماء مباشرة، وكان المدرب لا يترك أمراً صغيراً، دون لفت الانتباه إليه، وحينما يشعر بأن التعلم أصبح كافياً، يطلب من الجميع الذهاب للاستحمام.

كنت ألتقي المدرب -أحياناً كثيرة- في استراحة النادي الخضراء المشجرة. فنجلس سوياً لشرب القهوة. أو العصير، وكان يبدو دائماً في كامل لياقته البدنية والروحية، رياضياً تشع عيناه بضياء الحياة، كان كرواتياً من (زغرب) ولاعباً لفترة طويلة ضمن فريق بلده الوطني، وبعدها نال شهادة التدريب من (بلغراد) بعد دراسة طويلة، ودَرَّبَ عدة فرق أجنبية في العالم الثالث. ولكنه كما قال: أحب العمل هنا، نظراً للعلاقة الودية التي يكنها الشعب الجزائري لشعب يوغوسلافيا وقد ظلت عبارة (التسيير الذاتي) تلح عَلَيَّ عندما ألقاه، ولكن دون أن أُفْصِح عما أفكر به. ولكن بعد أن توطدت لغة الثقة والصداقة بيننا أجابني بكثير من الصراحة:

— الجزائر ليست بحاجة إلى نظام يشبه نظام بلاده، فالتسيير الذاتي اليوغسلافي خُلِق تحت ظروفٍ خاصةٍ بيوغسلافيا وحدها، ولكل مجتمع طريقته في إدارة شؤون حياته الاقتصادية وأضاف: أن يوغسلافيا ذاتها. تعاني من سوء التقدير. وضعف النتائج، فالكوادر العلمية عندهم يُرْسَلون باتجاه الغرب لتلقي المزيد من الخبرة والتخصص. حتى كوادر إدارة الفنادق. وفن الطبخ تذهب متجهة نحو فرنسا وإيطاليا، وإسبانيا، للعمل والعودة بخبرة جديدة يمكن تطبيقها في يوغسلافيا ولكن دعني أقول لك بما أفكر حقاً: الجزائر عندما تنطبق نظرية مستوردة - وهي بغير حاجة إليها - كمن يشتري لباساً لا يليق به، إن الكثير من المسلمين اليوغسلاف - والذين يشبهون الجزائريين من ناحية العقيدة والتقاليد وأساليب العيش - غير مرتاحين للحكم في بلادنا ويعتبرون أنفسهم غير مجبرين للتقيد بتعاليم الدولة فعندما تستورد عقيدة وتبدأ تطبيقها. فكأنك - وبشكل آلي - تبدأ بإلغاء ما تعتقد به أنت فقلت

مندهشاً بعض الشئ: ولكن يا سيدي ألا تعتقد بتمازج الأفكار والتقاء الثقافات؟

ولكنه أجابني بسؤال: ألم تكن تتوقع دوماً أن تشاهدني مع العاملين السوفيت في قالمة؟!، وهم من نفس طينتي وعقيدتي، ونطبق تقريباً نظاماً واحداً مع بعض الإختلاف، وهم من طبقة جيدة فأكثرهم يخدمون في الحقل الطبي والهندسية؟ فنظرتُ مباشرةً في عينيه موافقاً: نعم كنت انتظر ذلك وأتوقعه، ولكن ربما تعليمات بلادك لا تسمح بذلك؟.

فأجاب بعد أن طبع ابتسامة على شفتيه الورديتين: نحن في الحقيقة، نختلف عنهم، وهذا من طبائع الشعوب، فلنا أساليبنا وطرائق معيشتنا، ولنا سياستنا أيضاً، والروس لايكنون حباً لليوغسلاف ويعتبرونهم منشقين أيديولوجياً، والواقع الذي يجب أن نعترف به أيضاً هو: أن اليوغسلاف منشقين أيضاً فيما بينهم فأنا كرواتي، أمتلك لغتي الخاصة، وثقافتي الخاصة،البعيدة كلّ البعد عن لغة وثقافة صربياً أو سلوفينياً أو غيرها، ولكن نتائج الحرب العظمى الثانية هي التي فرضت علينا نوعاً من النظام - وجدناه في ذلك الوقت - مقبولاً لأنه استطاع وضع حد للاقتتال، وفَرَضَ نوعاً من الوحدة المزيفة بين الأعراق التي تتكون منها يوغسلافيا!

كان كلام المدرب الصديق شجاعاً وصريحاً ومفاجئاً جعل مني قطعة من الثلج، وكانت هذه الافكار صدمة لي في ذلك الوقت، الذي كنا ندافع به عن وجهة نظر، لا نعرف عنها سوى الشعارات المرفوعة واستدرك الصديق متابعاً، وبشئ من الإستياء الواضح: ألا ترى أعضاء البعثة

الطبية الروسية وهم يشترون سيارات (المرسيدس) في الجزائر ثُمَّ يشحنوها إلى بلادهم بعد سنتين: والتي تعد مـن أغلـى السيارات في أوروبـا؟ ولا يركبها إلا المرفهون والأثرياء. لماذا لايشترون السيارات الفرنسية العملية والرخيصة؟ فالبرجوازية الفرنسية تركب مثل هذا النوع. ولا تجـد ذلـك انتقاصاً من طبقتها؟ لو كان الروس صـالحين لأعطـوا نموذجـاً للآخريـن وعلى الأقل للجزائريين. الذين يعملون في بلادهم ويدافعون عن عقيدتهم الإشتراكية؟ ثُمَّ تركني الصديق المـدرب أبحـث عـن الإجابـة الصحيحـة المحيرة. ولكنه كان مستعداً بصورة واضحة لمتابعة النقاش والوصول إلى أبعد من ذلك. وإيراد أمثلة تمس واقع الشعوب. لقد أكسبه التجـوال في العالم. صفة العقلانية. واستقلالية التفكير. وصقلت خبراتـه السياسـية الوطنية. وجعلتها أكثر صلاحـاً وواقعيـة. وامتلك روحـاً فكريـةً نقديـة قتالية. رغم روحه الرياضية الأليفة الودودة.

ثم أمسك بيدي كمن يود أن ينهي الحديث بعبارة لطيفة: يا أستاذ محمد. أنصحك بأن تكون فلسطين أهم لديك مـن كـلِّ الأيديولوجيات. كونوا أصدقاء. لا تابعين تلقائياً. أنتم تملكون تاريخاً كالجزائر. فدافعوا عن تاريخكم. لا عن نظريات الغير؟

وقد أظهرت السنوات الطويلة الماضية. كم كان هذا الرجل محقاً في مقولته. وعـاقلاً في تصـوره للأمـور. وبعدهـا تابعنـا سـيرنا نحـو ملعـب (البولو) لنصطاد الكرات الحديدية. تاركين وراءنا حزمة من الأفكار تدير العقول. محتاجة للبحث والتقصي وصولاً إلى الحقائق.

كان - أحداً دامياً وحزيناً - في قالمة، فقد خسر الفريق القالمي أمام ضيفه، وعلى ملعبه وبين جماهيره، التي تزاحمت في كلّ مكان لمشاهدة فريقه الذي سيتأهل لدور الأربعة الأوائل، لم أستطع مشاهدة اللعبة، واكتفيت بالجلوس مع (بوزيد) على رصيف المقهى والشوارع هادئة تخلو من أية حركة، سوى حركة النساء المحجبات اللائي غادرن دورهن لمعرفة النتيجة، والعبث السريع في هذا الفراغ اللامحدود، مرت ساعتان دون أن نسمع ضجيجاً، ولكني شاهدتُ بعض الوجوه الشاحبة المغبرة، القافلة من الملعب باتجاه مركز البلدة، ومن ثُمَّ عناصر مكافحة الشغب، ترافق الفريق الضيف ومشجعيه بسياراتهم خارج حدود البلدة، بعد مشاجرة عنيفة على مدرجات الملعب، استخدمت فيها الحجارة والزجاجات والمدي، وكادت تودي بحياة الكثيرين، لم نستطع السؤال في مثل هذا الموقف الواضح، فالإجابة جاءت من السير المتمهل للناس، ورؤوسهم تراقب الأقدام، جاء بعض اللاعبين، ودخلوا المقهى والمدرب يتحدث معهم باتزان وهدوء، رغم التأثر الواضح على وجهه المنفعل، ثُمَّ أخذوا أماكنهم على الطاولات لتناول وجبة الغداء المتأخرة، وطلب أكثرهم كحولاً، وكنت وزميلي قد أخذنا الطاولة الأخيرة في المطعم ذات المقعدين، ووجهي مقابلاً للاعبين وبو زيد - العارف جيداً بالكرة - يحدثني عن خطورة المباريات، التي تميل فيها الجماهير إلى التعصب، ومدى الخسائر التي تلحق بالطرفين، لذلك فهو لا يحضر المباريات، بل يراها أحياناً على شاشة التلفاز، ثُمَّ نطق بو زيد بما يشبه الفكاهة المرحة، فضحكت لها، ونظري ممتداً بشكل طبيعي نحو طول المطعم

المتلئ بالزبائن حتى الباب. فإذا بأحد اللاعبين، المقابل لطاولتي بعد أن أهرق زجاجة البيرة دفعة واحدة. يقف مستلاً سكين الطعام، ومتجهاً نحوي وبكل قوة أصبح السكين ملامساً عنقي. وتبدأ جملة من الشتائم الجزائرية تنصب على رأسي. وأنا في حالة ذهول، كذهول (بو زيد) والآخرين. الذين تركوا أماكنهم باتجاهنا مع المدرب.

أحسست خوفاً ثقيلاً يسري في جسدي ولكنني تماسكت، دون أن أتحرك. خلال هذا الهرج الذي حدث:

– أنت يا أخ تخطأ بحقي، وأنت غاضبٌ من خسارتكم، وأنا حزين مثلكم. ولكن حديثي مع صاحبي كان خاصّاً، وأنت تجرب سكيناً – غير حادة – في ضيف من ضيوفكم. أهذه رجولة الرياضي؟

سحب المدرب السكين من يده، ودفعه نحو الطاولة الأخرى. ثُمَّ بدأ وصاحب المحل – السي صالح– يعتذران مني. فلم أنظر إليهما، ولكن حزناً مفاجئاً أصابني. وبدأت أطلب زجاجات البيرة الواحدة تلو الأخرى. حتى امتثلت لرجاء (بو زيد). وغادرت المقهى وأنا لا أرى سوى ظلالاً سوداء تتقدم خطواتي.

لحظتها تجلت الغربة أمامي، بأتعس وأقبح صورها وكم تمنيت أن لا أكون في أيْ وطن على أن أكون شحاذاً على أرصفة وطني، لقد كسرت عاطفتي جناح عقلي. في لحظة اختيار بين الشجاعة والجبن، وشعرة واحدة. تفصلك عن الحب والكراهية، وعن العقل والتهور. لم يغمض لي جفن في تلك الليلة رغم كلّ الاعتذارات والتبريرات التي قدمت لي من جميع الذين أعرفهم.

وفي اليوم التالي. كان الإرهاق يمنعني من مواصلة العمل، وقد شعر الطلاب بذلك. طلبني مدير المدرسة إلى غرفته، فإذا بي أمام بطل السكين. يقدم اعتذاراً واهياً.

ولم أقبل ذلك مطلقاً، ولكني أردت اعتذاراً علنياً، أمام زبائن المطعم بكاملهم. وكان كما أردت ومن وقتها تولد لدى اعتقاد جازم، إنه ليس من الجائز أن يدعو التسامح إلى الاستهتار وعدم المبالاة. وأن روح النظام. وضبط النفس من أبرز السجايا الإنسانية.

قالمة:
انتحار في النبيذ

(إنني البعث والحياة، وإن الذي يؤمن بي
سيبقى حيا وإن كان ميتا، وإن كل الذين يحيون
ويؤمنون بي لا يموتون)

من حديث المسيح عليه السلام لتلميذه لازاروس المخرف

— 1 —

لا يفضل مسيو (جوزيف) معاقرة أيّ مشروب. سوى النبيذ الجزائري الوردي الرخيص الثمن. وهذا السيد الفرنسي الضئيل. المدرس في إحدى مدارس قالمة. لا يترك المشروب في كل ساعة من ساعات اليوم. عدا ساعات العمل! التي يقضيها مجبراً في المدرسة. وعدا ساعات النوم القليلة التي يقضيها في غرفةٍ قذرةٍ من غرف الفندق الصغير. لقد استطاع المشروب أن يتغلب عليه، وعلى عقله. وحياته وقد حذره الأطباء بأن ذلك سيقضي عليه. إلا إذا غادر الجزائر نحو بلده للمعالجة المنظمة. ولكن دمه كان قد اعتاد على استقبال جرعات

الكحول كشئٍ طبيعيٍ ودون مبالاة. وقد استحق في البلدة لقب (سكير فرنسا).

كان ذلك قبل أن استقر للعمل في قالمة، وقبل أن أتعرف عليه عن قرب، وقد اعتدت رؤيته كلّ يوم في أيُ شارع أو مقهى، مترنحاً يتضاءل كشمعةٍ محترقةٍ.

حتى كاد أن يصبح خيالاً، يتحرك بين ثنايا بدلة رجالية لا تتغير، يعلوها رأس صغير، دقيق الملامح، تتدلى من شعره الخفيف، خصلةٌ رمادية تغطي طرفاً من جبينه الأيمن، مع بشرة بلون الرماد وعينان زائغتان. تستقران على الأشياء، زمناً طويلاً، وتتفحص الوجوه بغير مبالاة. فكأن عالمه الداخلي ملئ بالأحاسيس والصور والمشاعر يجترها ويحتفظ بها لنفسه. فتارة يبتسم ابتسامة حزينة، فارجاً عن شفتين رقيقتين تميلان إلى الزرقة. وتارة تكتسي وجهه سحابة من الحزن تُغِّير تقاطيع سحنته. وتجعلها أقرب إلى الكآبة السوداء المتجذرة في أعماقه، علماً بأن (مسيو جوزيف) لم يكن كذلك قبل سنوات قليلة. بل مثقفاً فرنسياً ملتزماً بعمله وقادراً على العطاء المدرسي، وملامح شخصيته تدل، على أرستقراطية واضحة، في التفكير. أو العمل، وأسلوب معاملة الآخرين!

في البداية كان يعاقر المشروب كالآخرين دون أن يقع تحت وطأته، وفجأة بدأت تمتد ساعات المشروب وقتاً أطول، وَقَلَّتْ حاجته للطعام، ونادراً ما يترك طاولة المشروب دون حَلّ صَفْحةٍ كاملةٍ من الكلمات المتقاطعة الصعبة في جريدة أو مجلة فرنسية، ولكن مع مرور الوقت صارت زيارة مجموعة من البارات الصغيرة المتناثرة في البلدة طقساً ليلياً

يؤديه بشكل كامل ومنتظم. ليرجع إلى غرفة الفندق وهـو ممتلئ حتـى الأنف. بوجهٍ أحمرَ كالجمر!

وفي ساعات الصباح الباكر كنت أصادفه في المقهى المجـاور للفنـدق وهو في حالة من الصفاء الذهني والنفسي. فيظهر لي احتراماً، ويسـألني عن أحوالي. وهو يتناول قـهوة سـاخنة ممزوجـة بالكونيـاك الفرنسـي، وبجانبـها قطعـةٌ مـن الكعـك اللامـع الـهش. المصنـوع علـى الطريقـة الفرنسية. ولفافة التبغ لا تفارق شـفتيه. وكنـت كلمـا شـاهدته في هـذه الحالة تنطبع في ذهني صورة (ألبير كامو) مع لفالة تبغـه. وهـو يتنـاول قهوته في الحي اللاتيني في باريس كان شخصاً مشابهاً يبحث عن الموت أعظم مبتكرات الحياة كما يقول (وليم دورانت).

يودعنـي مسـيو جوزيـف متجـهاً نحـو مدرسـته، فتُشَيِّعُهُ نظـراتُ النادل. ثمَّ بعبارة هامسة يحدثني: مسكين مسيو جوزيف في حياته قصة حب عنيف. والمرأة كما تعـرف أقـوى مـن الرجـل. وخاصـة في فرنسـا فالحرية أفقدت الرجل مكانته واتزانه وحياته المقدسة!

فقلت متسـائلاً: قصة حب! أم قصـة مـوت؟ فأنـا وأنـت لا نعـرف شيئاً. ولكن ربما علينا أن نفكر بنقيض الأشياء. فالحياة تسير فوق شعرة رقيقة واهية. فأما أن تسقط في منتصف الطريـق أو نثـابر للوصـول نحـو النهاية المحتومة للإنسان. فالنقص لا الكمال دائماً من طبيعة الإنسان!؟

– 2 –

ودارت أيامٌ كثيرةٌ ومسيو جوزيف على حاله تائهاً. منطوياً. كأنـه ينتظر قدوم شئ ما! وفي عنابة وجدتـه مصادفـةً في عطلـة الأحـد. كـان

واعياً مستيقظاً. مهندماً. ولفافة التبغ في طرف فمه، فأصر على دعوتي للتعرف على مطعم صغير صاحبه ألماني من منطقة (اللورين) يقدم أفضل أنواع البيرة الألمانية. مع السمك الطازج، والأجبان بكافة أنواعها وستأكل هناك وجبة ألمانية رائعة. حاولت الاعتذار لأنني أعرف نهاية اللعبة المتعبة الشقية، لكنه استطاع أن يتلاعب بمشاعري الشرقية متوسلاً بطريقةٍ فيها نوعٌ من الحاجة للبوح بأسرار خاصةٍ جداً.

دخلنا المطعم المنزوي في شارع ضيق ملاصق للكنيسة العامة، وتحدث مسيو جوزيف بألمانية سليمة مع صاحب المطعم وابنه. فتقدم الاثنان يصافحاني. ويقدمان لنا طاولة في زاوية داخلية من المطعم وكان وقتها خالياً من الرواد. كلّ شئ ألماني في الداخل. اللوحات الجدارية. والأثاث. ورائحة الطبخ. ورائحة البيرة، حتى صاحبه كأنه جنرالٌ متقاعدٌ وابنه من الشبيبة الهتلرية القوية البنية، كلّ الأشياء تحسبها منحوتات نقلت من (هامبورغ) أو (برلين) ووضعت في هذا المكان العابق برائحة الحياة الألمانية المنظمة القاسية. جلسنا على مقاعد جلدية مريحة. تتقدمنا طاولة من خشب الجوز اللامع الطبيعي.

طلب جوزيف كأسين من البيرة فقدمت لنا كؤوس ضخمة ملأت من برميل خشبي يقبع في زاوية البار عن طريق صنبور خشبي. والرغوة المحببة تجلل رأسيهما. ثُمَّ تبعها أطباقٌ تحوي نوعين من السمك والمحار المطبوخ. ونوعين من البطاطا الساخنة، وطبقاً من الجبن ذي رائحةٍ نفاذةٍ. بدأت أتذوق البيرة ناظراً حولي فعرفت أنها أفضل ما تذوقت في حياتي. وتجزع مسيو جوزيف الكأس الضخمة حتى القاع، ومسح الرغوة المتبقية على شفتيه. بمنشفة صغيرة وأكمل الباقي بكم

سترته وأخذ مضغة سمكٍ بالشوكة، ثُمَّ بدأ يتحرك من كرسيه ناظراً إلي. كأنه يستعد للبدء بحديث طال انتظاره.

مسيو صوان: أنا أريد الانسحاب من هذا العالم بهدوء وغير آسف على شئ. وأنا سعيد أن أموت في هذا البلد!

أدهشتني العبارات المتأنية الواضحة فحاولت مقاطعته لتغيير وجهة الحديث ولكنه أوقفني بحركة من يديه الذابلتين: مسيو صوان: أنا لم أخسر حبّاً سابقاً لأني لم أعش قصة حب، فليس لدينا حباً يستحق الإنسان أن يموت من أجله. فعصر الأخلاق والنبالة والطهارة والرومانسية. قد دفن منذ زمن بعيد يا صديقي. ليس في فرنسا مجداً أريد الرجوع من أجله. رغم أن والدي هو مدير مستشفيات باريس. وهذا منصب لا يهمني. ولا يجعل مني إنساناً حقيقياً كما أفهمه.

توقف قليلاً ليطلب كأساً آخر من البيرة ثُمَّ ليصبه كاملاً في جوفه، وبعدها يحدق طويلاً في عيني وأنا أتابع عينيه المصوبتين نحو المجهول.

مسيو جوزيف: ها أنت تبوح بأشياء خاصة، وأخاف أن تندم مستقبلاً على ذلك وقرار الإنسحاب من الحياة قرار معقد وقرار يرتكبه الخطاة في كلّ الأديان.

أعاد شرب كأس ثالثةٍ، حتى بدا الدم يصعد قليلاً نحو وجنتيه الدقيقتين. ولكن عباراتي لم تثره ولم تحركه، بل أكمل قائلاً:

طوال سنين. وأنا انتظر شخصاً أحبه، كي أبوح له بما سأفعل، لم أذهب للكنيسة، طلباً للعفو والمغفرة. فداخلي هو كنيستي، وعقلي واحساسي هو كاهني. والعفو والسماح لا يأتي إلا من السماء! أليس كذلك مسيو صوان؟؟

مسيو جوزيف: أنت تنسى أننا كلنا في الموت. ولكن حينما نكون في قلب الحياة الحقيقية. وها أنت تقلب المعادلة لتصالح الموت الذاتي. وهذا حرامٌ في عقائدنا الدينية، وطلب المغفرة في عقيدتي ركن لا أنفصل منه. فالإله واسع الرحمة والمغفرة. علينا ألا ننكر ذلك وإلا وقعنا في الخطيئة كلّ يوم دون أن نخرج منها! ها نحن أنا وأنت جالسين في المكان الخطأ من عقائدنا. ورغم ذلك فإننا ننظر إلى الحماقات بعين المغفرة الإلهية!

بدا له كلامي مستغرباً، بعد أن رفع حاجبيه. وكان الكحول قد بدأ يسري في جسده كاملاً. ويحرك مشاعره الداخلية. فتنطبع مباشرة على وجهه. وعيناه اللتان بدأتا تمتلآن بالدمع.

مسيو صوان: برأيك متى يصبح الإنسان قاتلاً؟ هل العدد يدل على ذلك أم نوعية القتل؟

مسيو جوزيف: القاتل الحقيقي من يقدم على قتل الأبرياء دون سبب. أما الأنواع الأخرى من القتل فلها تبريراتها ومخارجها الأخلاقية والقانونية.

بدأ يمسح الدموع المتساقطة على الطاولة وعلى وجهه بكفيه الواهنتين. وأصبح صوته متهدجاً متقطعاً. ولكنه هادئ ومفهوم ثُمَّ قال أرجو أن تسمع ما أرويه لك بدقة، وهي المرة الأولى التي أتحدث فيها عن عمل تتوقف حياتي عليه!

أُرسِلتُ للجزائر عام 1957 بعد أن قاتلت في فيتنام لمدة عامين، وكان الكثير من الجزائريين المقاتلين إلى جانبي، كنا شيئاً واحداً، ولكني في ذلك الوقت لم أجرب القتل الحقيقي اطلاقاً كان القتال دفاعاً عن النفس أمام جنود مقاتلين أشداء ومسلحين. وعدت سالماً إلى باريس. ولكن فرنسا عادت خَجِلَةً مُهانةً ومذلولةً. فَحَزَّ ذلك في نفسي ونفس الفرنسيين جميعاً، فتطوعت للقتال بالجزائر وكان نوعاً من استعادة الثقة بالنفس وتطهيراً للذات واستعادة الثقة بالقيم التبشيرية للمدنية الفرنسية التي تعلمناها. وغرست في عقولنا، ثُمّ توقف عن الكلام مستغرقاً في دوامة استرجاع الماضي، والدموع لم تنقطع، والحزن بدا أكثر عمقاً.

مسيو صوان: لقد مارسنا القتل يومياً في الجزائر. حتى اعتدنا أن ننام وأيدينا ملطخة بالدماء أصبح القتل بالنسبة لنا طقساً مقدساً.

فالقرابين جاهزة لتقديمها نحو المطهر!

وكان رؤساؤنا يشدون على أيدينا. ويطرزون صدورنا بأوسمة الشرف والشجاعة! وكانت المرة الأخيرة التي مارست فيها القتل في منطقة (سوق أهراس) القريبة من عنابة. عندما تلقينا أمراً من القيادة. بمهاجمة إحدى الدساكر الصغيرة. التي يظن أن المجاهدين قد باتوا فيها. كان الظلام يلف كلّ شئ وبدأت سريتي باقتحام البيوت. واحداً وراء الآخر. وفتحت النيران من كلّ الاتجاهات، وحطمت الأبواب، وأصحابها آمنين في دورهم المتواضعة، التي تضيئها القناديل الصغيرة الزيتية وبدأ الصراخ والعويل يقتحم سكون الليل طاغياً على صوت الرصاص. أطلقت ساعته

مخزن بندقيتي على أشباح تركــض صارخــة في طـرف البيـوت. وبعدهـا سمعت أنيناً ثُمَّ لا شئ سوى سكون مطبق على المنطقة كلها. كان الفجـر يقترب سريعا منا ونحن في استراحة المحاربين متأهبين للمجهول، ولكن خيوط الشمس لم ترينا سوى النساء والأطفال والعجائز ملقاةً جثثهم علـى الأزقة الترابية وآخرون في دورهم دون أن نجد أثراً لمقاتلين أو مجاهدين! كانت غلطتي الكبرى أني تقدمت نحو أشباحي الذين أفرغت بهم مخزن البندقية. فإذا بأُمٍ وثلاثةٍ من أولادها. كومةً واحـدةً. مـن الـدم والثيـاب الممزقة. متشبثين بأطراف جسد الأم. وقتها أصابني الغثيان، ودارت بي الأرض. وأحسست بالموت قريباً مني. أصابني الهلع والصراخ. عولجت في عنابة من الصدمة. ثُمَّ نقلت إلى باريس للاستشفاء من حالةٍ لا تزول، وبقيت هنــاك أسترد قـواي العصبيـة والنفسية، حتـى أُعْلِـنَ اسـتقلالُ الجزائر.

فكرتُ طويلاً وأنا في باريس. وكاد التفكير يقتلني وينــهش جسـدي فقررت العودة إلى مكان الصدمة لعلها تشـفيني ولكـن... ثُـمَّ بـدأ صريـر الأسنان. والنواح الحقيقي أمام نظرات الرواد الذين أموا المكان. دون أن نشعر بوجودهم. قررت مغادرة المكان. فامتثل لطلبــي والنظـرات تشـيع خروجنا!

– 4 –

قريباً من المساء. ازدادت برودة الجو وتدنت درجات الحرارة منذرة بالثلجِ فأخذنا سيارة صعدت بنا نحو قالمـة. و مسـيو (جوزيـف) اسـترد قليلاً لون وجهه الزهري. ونورٌ طفيف يشعُّ من عينيــه. وقـد أحسسـت بجسده الهزيل يلاصقني بقـوةٍ بجـانب السـائق كأنـه يحتمـي مـن شئ يخيفه! نزلت أمام فندقه الصغير. مستشعراً فيه نوعاً من الفرحِ والخفـة

الروحية. فطلب قهوةً ساخنةً شربناها سوياً صامتين. وبعدها بدأ يتحدث حديث مثقف فرنسي نبيل. أثقله تأنيب الضمير فرأى ان يكفر عن ذنوبه بتقديم العون للآخرين. وبعدها عليه أن يحتفل بنشوة الاستسلام النهائي لفناء الذات برباطة جأش. إن الموت برأيه هو الطريق الوحيد والمخلص. الذي يحرره من كافة القيود. ومن العبودية أيضاً. وهو بالتالي يعرف كيف يموت على الوجه السليم. وبالأحرى يعرف فَنَّ الموت. فالموت لديه. كرجلٍ مستنيرٍ جزءٌ من فن الحياة.

تركته دون وداع. وحملت الكثير من الثلج على معطفي حتى وصلت غرفتي. دفأت فراشي بمدفأة كهربائية، وتمددت طويلا. دون أن أشعر بالنعاس. فأخذت رواية "الغريب" لـ ألبير كامو. وكانت أسطر الرواية مملوءة بالعبثية. التي كنت أحياها مع مسيو جوزيف قبل قليل.

– 5 –

في الصباح الباكر. وجد المارة مسيو جوزيف جثة جليدية بيضاء قريبا من الفندق ودون عويل ولا ضجيج. حُفِظتِ الجثة في مشفى قالمة. لحين وصول والده من باريس. وقد استجاب الوالد لوصية الإبن بعد أن وجدها في دفتر مدرسي متروك على الطاولة. وبعد أن صُلِيَ عليه في كنيسة (عنابة) التي كانت شاهدة على يومنا السابق. نقل جثمانه إلى المقبرة الفرنسية المسيجة بالصنوبر والسرو. ووقف القس يتلو بعض الآيات أمام لفيف صغير من البشر. أكثرهم من مسلمي قالمة، وبعض الناس الذين عرفوه عن قرب وكانت الآيات منتقاة بشكل عجيب يدعو للسخرية من الحياة. والإيمان بالراحة الأبدية التي كان يبحث عنها مسيو جوزيف.

يقول: عندما أسير في وادي ظلال الموت لن أخشى سوءاً لأنك معي... إن عصاك تقودني. وإيماني بك يبعث الراحة في نفسي...آمين

صافحت والده وآخرين معزّياً، وكان الوالد متأثراً إلى حد النواح، وددت قول شئ أو قول الحقيقة ولكن قداسة الموت منعتني من ذلك، وهاهو كلام مسيو جوزيف مسطراً على الورق بعد ثلاثين سنة من البوح الباائس الحزين. ولو تثنى لي كتابة سطر واحد على شاهدة قبره لما اخترت سوى كلمات الفيلسوف "مونتاني"

"إن قيمة الحياة ليست في امتدادها، وإنما في استخدامها".

قالمة ـ عنابة
القاضي وشباب الكهولة

(البعض ينشر السعادة أينما ذهب ـ والبعض الآخر يخلفها وراءه ... إذا ذهب!)

ـ 1 ـ

كنت في عنابة متأبطاً كتابين مترجمين، ومجموعة صحفٍ مصريةٍ قديمة الصدور، ابتعتها جميعاً من المكتبة العمومية المقابلة للميناء، وكنت في غاية السرور، لأني سأتمكن من الاستمتاع بالقراءة بعد فترة انقطاع طويلة. وقالمة تفتقد مثل هذه المكتبات التي تبيع كتباً بالعربية، وقد وجدت نفسي أمُرُّ على أماكنَ تذكرني بصُوَر أحبها، واستدرجت أقدامي وقلبي نحوها، ثُمَّ ألفيت نفسي في المحطة التي آلفها، داخلاً إلى (مقهى الشرق) لتفقد الأصدقاء القدامى واللقاء بهم، ولكني لم أجد سوى (محمد شريف) يجالس رجلاً، تبدو عليه أمارات الشيخوخة النضرة، تعانقنا بدفء، وَقَدَّمَ ليَ الرجل على أنه صهره (القاضي عبد الحميد)

وقد رحب بي الرجل ترحيباً تملؤه الحرارة. دون أن يتحرك من مقعده، وأجلسني مجاوراً له. مبتسماً. فارجاً شفتيه عن أسنان اصطناعية لامعة. كان رَبعاً، جاوز الستينَ من العمر بقليل، حاسر الرأس دونما شعر يغطيه سوى بقايا فضيةٍ قصيرة تغطي دائرة الاذنين والرقبة. وشاربان فضيان مشذبان بشكل واضح. حليقاً. يرتدي بدلةً أجنبيةً، مع صداراً بأزرار لامعة في غاية الأناقة. في عينيه وميضُ ذكاءٍ. وفي سحنة وجهه سيماءُ الوقار والهيبة. تحسبه آتياً من أغوار الأناضول!

يعمل قاضياً شرعياً في المحاكم الإسلامية منذ ثلاثين سنة. وقد عمل طويلا تحت الادارة الفرنسية. ومازال في منصبه تحت إدارة حكومته الوطنية.

كان محمد شريف في هذه الجلسة قليل الكلام، ولكنه بدى مسروراً لوجودي. لآني استطعت قطع حبل النقاش العائلي الحاد الذي كان دائرا قبل وصولي. وقد شعرت بان شيئاً ما سيحدث لولا وجودي في الوقت المناسب. وقد علمت لاحقاً بأن محمد شريف لا يَكِنُّ لهذا الرجل أيَّ احترام. رغم منصبه الحكومي المتألق. وذلك لأنه استطاع من خلال القرابة و الضغط أن يستولي على واحدةٍ من أخواته وكانت احبهن إلى نفسه وكانت تصغره بثلاثين عاماً!

سألني محمد شريف بلباقته المحببة عن عملي في قالمة، وعن مشاهداتي. وعن قراءاتي. وعن صعوباتي. بروحٍ أخوية تحمل الكثير من الاستعداد لتقديم أية مساعدة احتاج إليها. ثُمَّ أدار القاضي دفة الحوار قائلاً: انا مسرورٌ جداً لآني ألتقي -وللمرة الأولى- بأحد ابناء الشرق الجدد وخاصة ابناً من فلسطين!.

فأنا اعرف مصر زائراً. ودرست في تونس. وأتابع الموضوع الفلسطيني منذ مدة طويلة. تبادلت بعدها مع القاضي عبارات المجاملة المعهودة. ولكنه أثار فضولي بلغته الواضحة. و جمال وعمق صوته. وذكّرني بأناقة اللغة وعظمة الصوت عند طه حسين! بعدها أمطرني هذا الشيخ الوقور بوابل من الأسئلة حول القضية الفلسطينية. و برنامج العمل للمنظمة التي كوّنتْ حديثاً.

وبما أنني صرت معتاداً على مثل هذه المواقف. فقد توقعت ذلك. وكنت في كل جلسة أتعرف بها على شخصية جديدة. ومهما كان مركزها الاجتماعي والوظيفي- تطرح عليّ نفس هذه الأسئلة. وإن بطرق مختلفة. لقد أصبحت قادراً على الشرح والحوار. وكذلك الاستماع لوجهة النظر الأخرى. وكان ذلك يثير اهتمامي في كل مرة أقابل بها جزائرياً صار الموضوع الفلسطيني في دائرة اهتمامه.

تكلمت مع القاضي عمّا اعرف. وشرحت الوضع الفلسطيني والأوضاع العربية و طرحت أسئلة كثيرة تقبل النقاش والبحث. دون أن أبدي رأياً قاطعاً للموضوع. لأنه مازال مفتوحاً ومبهماً كذلك. ولكن دون أن اخرج عن نطاق التواضع الفكري المطلوب. أمام شخصيتين تمثلان جيلين جزائريين. لكن فِكرةُ وطرائقه ومبادئه وآرائه في قضايا العالم المعاصرة تركت فَسْحَةَ جدلية واسعةً للكلام.

نظر القاضي نحوي كنظرة أستاذ نحو تلميذه. كان قد قصّر في تقديم ما فهم من أحد النصوص قائلاً: يا أخي قضيتكم برأيي يجب أن تسير في مساقين متوحدين. الواحد يكمل الآخر المساق الأول عربي بطبيعة الحال. والثاني وهو المهم برأيي ديني إسلامي فالخطاب الديني

في عالمنا العربي له أثر كبير في التعبئة من أجل قضية مقدسة. وخاصة أن النزاع القائم هو ديني في أساسه، فأنتم تعيشون مرحلة حروب صليبيةٍ بأعلام جديدة تحمل نجمة سداسية بدل الصليب وترتدي رداءً عصرياً، وتمتلك قوة عصرية، لها وزنها في العالم.

كان الشيخ ينتقي عباراته بدقةٍ بالغةٍ وبفواصلَ صامته وبلغةٍ لها دلالاتٌ سياسية عميقة. ثُمَّ لامس يدي فوق مسند الكرسي متابعاً: نحن في الجزائر استطعنا أن نتماسك رغم المشارب الفكرية العديدة التي كانت واقفة على الساحة السياسية وأحيانا كانت مشارب متنافرة. ولكن إيقاظ الوازع الديني من سباته، وتطهير كافة المقاتلين، وتعميدهم بالإيمان، من خلال عظمة التاريخ الإسلامي، أدّى إلى خلق شخصية المقاتل الجهادية. علماً بأنّي لا أدَّعي بان بقية الاتجاهات الفكرية الأخرى في حركة التحرير لم تكن ثورية وجهادية بالقدر الكافي، لا ولكن أقول، نحن استطعنا الجلوس على أرض صلبةٍ لها خلقية تاريخية صادقة ذات جذور عميقة. فوجدنا الدعم مِن كتَلٍ ثلاث: كتلة العرب، وكتلة المسلمين، وكتلة مناضلي حركات التحريرِ العالمية التي كانت موجودة على الساحة.

وكان الكلام متدفقاً وحاراً، وحقائقه لا تزال على الأرض، فيها الكثير من المصداقية، يتدخل محمد شريف موجهاً كلامه للقاضي: ولكن نحن لا نستطيع وضع القضية الجزائرية والفلسطينية في ميزان واحد! الخطاب الديني مفيد في حالة الجزائر، لأن كلّ السكان مسلمون ولكن علينا أن نعرف بان الشعب الفلسطيني فيه نسبة عالية من المسيحيين، فالخطاب الديني هنا له محاذيره!؟ وكذلك المقاتل الفلسطيني لا يستعمل

أرضه في القتال بل يستعمل أراضي الغير، وهذا أيضاً له محاذيره ومخاطره! إذن فكل قضية لها معادلاتها الدينية والإقليمية والدولية، فإذا كنا قد حاربنا حلف الأطلسي، بطريقةٍ أو بأخرى فإنهم يا سيدي سيحاربون العالم كله، لأن الوزن اليهودي ليس إقليماً بل دولياً وهنا مكمن الخطر في معركتهم، العالم الإسلامي يستطيع تقديم دعمٍ معنوي ولكن قوى التقدم، والديموقراطية في العالم العربي هي صاحبة العبء الأكبر في مثل هذه الحالة الفريدة من نوعها في العالم.

عَقَّبَ القاضي قائلاً: كلامك لا يشك في صدقه، وأنا كذلك أعرف ومن خلال احتكاكي الشديد بالأوربين، بأنهم لن يسمحوا لا حاضراً ولا مستقبلاً بمساس الدولة العبرية، و أمريكا أشدهم اعتراضاً على مثل هذا الأمر، وبرأيي فانه كلما كَثُرَ الأعداء كلما دعتك الحاجة إلى المزيد من الأصدقاء، ومن هنا أقول بأن الدائرة الإسلامية أوسع وأرحب من الدائرة العربية، والجهاد في المفهوم الديني اكثر قيمة من الاستشهاد الوطني!

قلت بدوري موجهاً الكلام للقاضي الشيخ: نحن نتعامل مع أعقد وأخطر قضية موجودة في العالم اليوم، و يمكنها إذا تفاعلت مع المستقبل بشكل خطير، أن تؤدي إلى حرب دولية، ساحتها الشرق الأوسط؟! من هنا تأتي الدقة في التعامل مع هكذا قضية، ونحن كما تعرف لاجئون في دول عربية متعددة المشارب السياسية والنظم الاقتصادية، وتعيش في مستويات لا ترقى إلى حدود الاحترام، فالثورة لم تبلور مفاهيمها، ومضامين عملها، واتجاهاتها بعد، لأن هناك عقبات تزداد وضوحاً، بين دولة عربية وأخرى،نحن في الخطوة الأولى من الألف ميل -كما يقال- ولكن لابد أن يشعر الجميع يوما ما بخطورة الوضع ليس على حقوق الشعب

الفلسطيني فحسب: بل على حقوق الجيران و أرضهم أيضاً. وعندما يتواجد الشعور بالخطر نكون قد وضعنا قدمنا في بداية الحقل.

– 2 –

اعتذر محمد شريف عن متابعة الجلسة لأنه مطلوبٌ لموقعٍ من مواقع عمله على شاطئ (السان كلو) نهض مودعاً ومرتاحاً. ولكنه ترك وراءه عبارة فيها استياء: إيّاك يا محمد أن يصطادك القاضي. فأفكاره الإسلامية الواسعة تستحق المناقشة. ولكنه لا يؤدي واجباته الدينية، فقد تحرر منها منذ زمن بعيد! أليس كذلك يا سي عبد الحميد؟!

هزّ القاضي رأسه مبتسما وقال: إن محمد شريف يحب المزاح الثقيل أحيانا.

أحببت أن أدير دفة الحديث باتجاهٍ آخر يتعلق بالحياة الاجتماعية الجزائرية. هرباً من التنازع على الأفكار السياسية التي لن تنضج بعد فقلت: سيدي الشيخ أيْ القضايا التي تراها في عملك أكثر شيوعا؟

فأجاب بسرعة: الطلاق يا سي محمد لقد ارتفعت نسبته بعد الاستقلال بحوالي 30٪ عن الحلات السابقة قلت: وماذا يعني لكم هذا فضيلة القاضي؟

رشف قليلاً من فنجان (الزهورات) وردّ قائلاً: كان الرجل الجزائري اكثر قُرباً من حياة الفرنسيين. فهو يعرف تقاليد وأساليب حياتهم. وأحيانا كان واحداً منهم. فكان اكثر حريةً وانعتاقاً من القيود الاجتماعية الراسخة في مجتمعه المتدين بطبيعته التاريخية، مما خلق

لديه ازدواجية العيش. وكذلك أوجد نوعاً من الجفاء بينه وبين عائلته، فهو يطبق أساليب الحياة الغربية على ذاته. ويمنع بالتالي أفراد أسرته من ملامستها. من هنا يبدأ صدام القيم وهو حتمي بطبيعة الحال، بعدها يحدث الانفصال التام جاراً وراءه إشكالاتٍ اجتماعية وخللاً لا يمكن اصلاحه بسهولة قلت: سيدي القاضي: إسمح لي أن أضيف على كلامكم بأني أشاهد في بلدكم مظاهر اجتماعية لم أكن أتوقعها قبل مجيئي. وأسمح لي أن أضيف على كلامكم بأني أرى انعتاقاً واضحاً لدى المرأة والشابة. انفتاحاً سريعاً على تقاليد الغرب الذي حاربتموه، بل أكاد أقول أحياناً بأني لا أرى أثراً بيِّناً للقيم الدينية المحافظة إلا في بعض الأماكن فقط فهل يمكن القول بأن البلدات الصغيرة والقرى أكثر محافظة من المدن الكبرى؟ وكيف نبرر ذلك؟

نظر القاضي إليَّ بعد السؤال بعينين لديهما استعداداً للكثير من الكلام: نعم هذا صحيح. ولكنك لا تستطيع أن تقيم مجتمعاً صالحاً دون أن يكون لديك اقتصاداً صالحا وقوياً. فالحاجات المادية أحياناً تخترق القيم الدينية وتمزقها وهذا ما يحصل عندنا فالأمور كلها في بلدنا ليست واضحة. بل فيها نوعٌ من الفوضى. والغوغائية والارتجال. تجعل الناس يقدمون على أعمال يعرفون في قرارة نفوسهم أنها تُقَوِّضُ أسس المجتمع الذي يعيشون فيه، والخوف كلّ الخوف من المستقبل عندما تسير الأمور بغير طبيعتها مما يخلق نوعاً من البشر يتخذ اللامبالاة شعاراً له ما دامت الدولة هي المالكة لكل شيء. وما دامت الدولة دون مؤسسات صالحة فحتماً ستسير الأمور نحو الأسوء. ولربما إذا تعمق الإخلال بالنظام الاجتماعي العام إلى درجة كبيرة سيضطر البعض للجوء إلى

العنف القاتل. لتصحيح المسار العام. وإذا ما تطورت الأمور على هذا النحو من العنف. وهذا ما يسمونه الحرب الأهلية التي تعد من أقسى حالات الحروب التي تعرفها البشرية، نحن يا سي محمد في أنبوب اختبار لم نتعلم بعد مداخل ومخارج المعادلة الكيميائية التي ركبناها فالحال متوقفٌ على النتائج؟!.

توقف الشيخ عن المتابعة ناظراً إلى ساعته، كأن شيئاً قد فاته، فإذا بنادل المقهى يتقدم نحونا ويقول (سيدي عبد الحميد) الزوجة بانتظاركم في السيارة أمام المقهى. ارتفع جسده بتثاقل عن الكرسي سانداً يديه على الطاولة أمامه. وابتسم كأب يلتقي ولده بعد فراق طويل قائلاً: سي محمد أنا فرحٌ لأني وجدتك. وحديثك ذو شجون وله بقية، وعليك أن تأتي لداري ضيفاً عزيزاً ومحمد شريف سيحدد لك الموعد لقد أثرتني بهذا النوع من الحوار الذي نشط ذاكرتي الهرمة فقلت: هذا شرف لي يا سيدي القاضي. وما أنا سوى تلميذٌ أمام عالمٍ يستحق الاحترام والتقدير، صافحني ثُمّ عانقني مودعاً ومشيراً للنادل أن يلحق به ليدفع ثمن ما شربناه. تابع النادل خطواته المتئدة حتى باب السيارة.

لم أشاهد القاضي بعد هذا اللقاء، لأن أنهاراً كثيرة صبت في بحر الحياة. ولم يشجعني محمد شريف رغم اللقاءات الكثيرة – على زيارة هذا الشيخ في منزله.

– 3 –

حل الربيع مبكراً هذه السنة في قالمة، فأعد زميلي (بوزيد) رحلة بالسيارة للتفرج على الطبيعة الخلابة لهذه المنطقة التي لا تمحى من

الذاكرة. أرْدِيةٌ إلهيةٌ من الألوان، تزهو بها الأرض والأشجار. والغابات العذراء المكسوة بخضرة داكنة تواجـهنا أينما اتجـهنا في جبـال (دبـاغ) وبيوت الفلاحين البيضاء ذات الأسطحة القرميدية الحمـراء تختبـئ وراء حقول القمح الخضراء المتماوجة بمهارة فنية فطرية لا مثيل لها، لوحات تشكيلية كـانت تصادفنـا. وأريـج الأزهـار البريـة يفـوح مـن كـلّ مكـان فتحسب أنك في سوق للعطّارين!

– ستشاهد يا سي محمد مكاناً لن تنساه أبداً وكـان مـن واجبـي أن أريك إياه منذ زمن بعيد إنه واحد من أشهر الحمامات المعدنية الطبيعية في بلادنا ويدعى (حمام المسـخوطين) سـرنا في طرقـات متعرجـة صـاعدة نحو جبلٍ أشجاره أقل كثافة من الآخرين، حتى القمـة. والأبخـرة ذات الرائحة النفاذة تتصاعد منه كَنُتَفِ الغيوم الهاربة بفعـل الريـاح. وآلافٌ من البشر في أماكن متفرقـة ومئـات السيارات تـأخذ مواقعـها في أسفل الأودية المحيطة بالجبل.

تركنا السيارة أسفل أحد الأودية. لنتقـدم نحـو منظرٍ مـهيب حقـاً شلالاتٌ لا حصر لها. تتساقط أسفل الـوادي مـن كافـة اتجاهاتـه. مـع خلفية من الألوان الحجرية الممزوجة بالكلس. تُجبر رأسك على الـدوران لترى المنظر من كافة جوانبه. يعانقه قوس قزح دائم يزيده جمالاً وبهاءً، ورذاذ الماء الدافئ يتساقط في كلّ مكان، كانت الميـاه المتسـاقطة مجـرورة بأقنية حجرية بيضاء إلى مبانٍ كبيرة وصغيرة خاصة للاستحمام الفـردي والجماعي.

صعدنا القمة عن طريق درج حجري كثير التعاريج. وأحياناً نتسلق الأكَماتِ المفتوحة دون أدراج. وهناك حيث عشرات الينابيع التي تشبه

صور الحفر المأخوذة من القمر. وعشراتٌ من بائعي البيض الطازج يبيعون الزوار. حيث يُسْلَقُ في الفوهات الملتهبة خلال عشر دقائق ليأكل مباشرة. كان الأطفال هم الأكثر متعةً. وكان كبار السن يبحثون عن الدواء حيث يستحمون في درجة الغليان، كوصفة طبية لأحد الأمراض زهيدة التكاليف.

وعلى الطرف المقابل للشلالات مطعم وفندق ومشرب واستراحة في غاية التنظيم والجمال والنظافة؟ جلسنا في الاستراحة المطلة على الشلالات مباشرة. وطلبنا عصيراً. وبدأ (بوزيد) يزودني بمعلومات عن الأبنية المتناثرة على جوانب الحمام. ووظيفة كلٍ منها، والأسعار الرمزية التي يدفعها الزائر. للاستحمام أو المبيت في الفندق. أو لتناول وجبة طعام. وكان يسمي لي كلّ جبلٍ وتلةٍ ووادٍ يحيط بنا.

— 4 —

بدأت الاستراحة تغص بالعائلات القادمة من أماكن لا نعرفها، والكل يبحث عن طاولة مناسبةٍ لأسرته أو لأصحابه. وها هو القاضي (عبد الحميد) بطلعته الوقورة يدخل من باب الاستراحة مع امرأة متوسطة العمر أوروبية المظهر متأبطةً ذراعه: وقادته حتى الطاولة المجاورة لنا. يلمحني القاضي مندهشاً، فأقف مستقبلاً. والبسمة واسعة على شفتيه. يعانقني. ويعاتبني بمرارة. فأصمت كمن يقدم اعتذاراً. يقدم لي زوجته! . وأقدم له صديقي بوزيد.

هيا يا سي محمد لنجلس سوية. وطلب من النادل ضم طاولتين. فأقبل النادل يُسَوّي كلّ شيء. وغطى الطاولة برداء أبيض، ووضع المقاعد في أماكنها. حتى استقر بنا الحال. وما زال القاضي على عتابه، فقلت: وأخيراً التقينا يا سيدي القاضي. في مكان أكثر رحابة وإشراقاً

من المقهى. ولكننا هذه المرة لن نتحدث عن الفكر والأوطان البعيدة دعنا نتحدث عن الطبيعة والجمال.

– لقد حدثني زوجي عنك مراراً ونحن ننتظر الزيارة المنزلية قالت السيدة ذلك بعذوبة قاتلة

– الغريب مثلي أنا يـا سيدتي يبقى رهن إشارة الغير، كنت مستقراً في عنابة وأعيش بسلام. ولكن الأكاديمية طلبت نقلي إلى هنا، دونما سبب واضح!. رددت وأنا انظر في عينين حالمتين.

– هذا صحيح ولكن لو طلبت من زوجي خدمةً، لما نُقِلْتَ إلى هنا

– سيدتي ما زالت معرفتي بالأشخاص قليلة وزوجك خيرٌ وبركة وعلى كلٍ فأنا استمتع في قالمة. إنها بلدةٌ هادئة وساكنيها طيبون وخيرون. بالاضافة إلى أني أجد متسعاً من الوقت للقراءة واكتساب الخبرات. تعليميةً وحياتيةً جديدة، إنه نوع من التغيير الذي لم أختره بنفسي. وأضاف بوزيد قائلاً: لقد أصبح سي محمد أحد سكان قالمة بعد أن امتزج بحياة الناس. فأحبوه.

لم يتحدث القاضي كثيرا في الجلسة وإنما بقيٍ سارحاً في الطبيعة، وصخب الشلالات. وبقي الحديث مع السيدة رطباً وعذباً كعذوبة عينيها الواسعتين المليئتين بالحياة والأمل، كانت تتحدث وأنا أسرح بفكري بعيداً. وكدت لا أصدق ما أرى رغم حقيقته، إن امرأةً بهذا المستوى من الجمال وهذا الشباب المتدفق. الذي لم يتجاوز العقد الثالث من العمر، تقضي قسماً كبيراً من حياتها مع هذا الرجل، وبهذه السن المتقدمة ودون إنجاب. وكان لا يغيب عن ذاكرتي حديثه في عنابة عن المجتمع

الصالح. والقيم الدينية. التي تدفع الإنسان كي يتشبث بالمثل العليا كي يعيش حياة كريمة ونبيلة!.

التفت القاضي إلينا قائلاً: سي محمد وسي بوزيد أنتما الآن ضيفان علينا. وسأترك لزوجتي طلب وجبة الغداء، ولتكن دسمة، بعد أن أستراح جسدي بعد الاستحمام. ها أنا أشعر بنشاط الشباب؟! فنحن هنا من الصباح الباكر. واشربا ما تريدان فأنا لا أتحفظ من شيء. المهم أن نقضي وقتاً ممتعاً قبل مغيب الشمس.

— 5 —

امتلأت طاولتنا بمختلف الأنواع ابتداءً من اللحوم الساخنة والباردة. وانتهاءً بأنواعٍ عديدةٍ من الأجبان الفرنسية. وكأسين من عصير البرتقال. وزجاجتي نبيذٍ من النوع الفاخر. وبعد أن أغلقت شبابيك استراحة اتقاء من البرد الذي بدأ يأتي مسرعاً. أصبحنا تحت صوت المغني الفرنسي (أنريكو ماسياس) الذي كنت أحبه. لشرقيته الواضحة وكلماته المملوءة بالحنين للوطن. وحنجرته القادمة من قسنطينة مسقط رأسه الأول. وبعدها طلب القاضي من مدير الاستراحة. الذي يعرفه جيدا شيئا لأم كلثوم. أو لعبد الوهاب. احتفاءً بوجود ضيفٍ شرقي على طاولته. فدار الزمان بي. ودارت الأقداح معه، عندما صدحت أم كلثوم وأطربت:

أفقْ خفيفَ الظّل هذا السحر   لا، لا دع النوم ولاغ الوترْ
فما أطال النومُ عُمْراً   ولا قَصَّرَ بِالأعمارِ طولُ السهرْ

وكان الشيخ الوقور من شدة استمتاعه بالكلمات التي يعرفها جيداً، يسند كتفه المتهالك على كتف زوجته التي بدت أروع جمالاً. واكثر

نضارةً وشباباً. وكنا نتبادل الحديث والانخـاب. وننظـر بعيـون بعضنـا على استحياء. وارتجف داخلي من حماقـة الشباب. وطغيـان النبيـذ. وحلاوة الصحبة.

وطلاوة الكلام الطروب. وتمنيت أن تسرع الشمس نحو المغيب. كي يعود كلّ واحدٍ منّا إلى رشده وصوابه. وتبقـى هـذه الصـورة الرومانسـية عالقة في مخيلتي. جميلة. نقية. طاهرة وتبقى كلمات القاضي وافكـاره. مترسخة في ذهني. لا تشوبها شائبة تعكـر نقاءهـا وصفوهـا. الكـل يـود البقاء في مكانه لا يبارحه. ولكن الشمس قد غدرت بنا. فأسـرعت نحـو المغيب. فطلب سي عبد الحميد مـن زوجتـه الرحيـل. فامتثلنـا جميعـاً لطلبه. وبعد أن حاسبت السيدة نادل الاستراحة وجعلته راضيـاً يحمـل بعض الحقائب الصغيرة نحو السيارة. رافقْـتُ القـاضي متأبطـاً ذراعـه. وشاكرا له كرمه. وفاتحاً له باب سيارته. والسيدة الجميلة تراقبنا وهـي تود البقاء حتى الموت. جلست السيدة وراء المقود. وعيناهـا تحدقـان في المجهول. وأخذ السي عبد الحميد المقعد المجاور وعينـاه مقبلتـان علـى النوم. ودّعْنا بعضنا بحرارة. على أمل اللقاء في عنابـة في وقـت قريـب. ورجعت إلى الاستراحة منكسراً إلى زجاجة نبيذٍ ثانية. وصديقي بوزيـد يسرح بالمنظر الذي ألهبته الشمس الحمراء. وأنا أغرق في أفكـار القـاضي الوقـور. وأغـرق في جمـال المـرأة التـي تسـتحق أن يقـال لـها (سـيدتي الجميلة) (لقد كانت من أجمل الاناشيد التي تصدر عن اليأس) كما قـال الفريد دوموسيه.

قالمة:
شخصيات لا تنسى

- ١ -

قالمة ليست بلدة جميلة فحسب. فهي لن تكن يوماً بلـدة مصنوعـة من حجارة الماضي والحاضر، المصقولةَ والمتقنةَ فقـط. بـل كـانت متحفـاً لتـاريخ الحضـارات. ومدرسـةً تَخَـرَّجَ منـها رجـالٌ في العلـم وفضـلاءُ في الدين. وعظمـاءُ في السياسـة. ولا يسـتطيع مـن يعيـش في هـذه البلـدة، البربرية. الفينيقية. الرومانية، البيزنطية، والعربيـة الاسلامية، إلاّ أن يقف مندهشاً أمام هذا الامـتزاج الحضـاري الغنـي. بلوحاتـه التاريخيـة الثرية. وكلُّ من شاهد آثارها الرومانيـة الباقيـة. عَـرَفَ كيـف اسـتطاع أسْقفا وطنياً منها يدعى (بوسديوس) أن يؤرخ لحياة أعظم مفكر في تاريخ المسيحية (القديس أوغسطين) الذي كان يعيش عصـر التطـهير الدينـي. ويكتب عن فكره وفلسفته وتفسيراته الدينيـة، التـي مـا زالـت الكنيسـة تقرؤها حتى اليوم. وعرفت أيضاً أسقفاً آخر يدعـى (دونتـوس) اسـتطاع

رغم الظلم الذي وقع على الكنيسة. وتحريم الدين. من احتفاظه بديانته وكتبه المقدسة. متجاوزاً الأوامر القاطعة لأباطرة الرومان. الذين سُمِّيَ عصرهم بعصر تسليم الكتب المقدسة.

فقالمة. ليست المسرح الروماني الرائع. ولا السور المتبقي من البلدة، والذي تحيط بقاياه جوانب عديدة منها. ولا الاقنية الرومانية المسحوبة من أعالي الجبال. وكل ذلك مجاوراً للآثار الاسلامية العربية ذات الطراز الانيق. والالوان التي تبهر الأبصار. أندلسيةً كانت أم تركيةً.

وقالمة ليست هي الحديقة الزاهية. ذات الاشجار الباكية. والورود النضرة التي تنبت في مشاتلها ومصاطبها المرَتَّبة. مُعانقةً تماثيلَ الآلهةِ وربّاتِ الشّعر والموسيقى والجمال، وليست هي المساجدُ الصغيرة المتناثرة. ذوات المآذن المربعة الشامخة فوق كلّ الابنية تحتها. تُسْمِعَ نداء الله كلّ يوم خمس مرات. ولكن القليلين هم الذين يركعون أمام محاريب الرب. طالبين المغفرة الإلهية الصادقة. وليست هي (البازار) الذي يشدك كي تتجول في جنباته. وتكتشف الازقة التاريخية. بحثاً عن الاشياء الدنيوية ذات النفع الزائل. ويجذبك أيضاً التمتع بلوحةٍ فنية مطرزةٍ بكافة الألوان. مشبعةً بعبق الشرق وعبير الاندلس الضائعة.

وكذلك لن تكن قالمة حيّاً من أحياء الغرب. تكتظ بالاستراحات والبارات والمقاهي، ليرتاح فيها الناس، ويشربونَ كلّ شيءٍ. ويثرثرون بكل شيء، ثُمَّ يدفعون ثمناً لفرحهم أو حزنهم. وبعدها يغادرون كلٌّ إلى وجهته.

قالمة ليست بلدةً يتنازعها الجدّ والرصانة مع العبث الرخيص فقط، فإلى جوار كتاتيب تعليم كتاب الله على الواح الخشب. مع رتابة هذا العلم. وقصور دوافعه. وقساوة شيوخه. تجد دوراً للنسوة الرخيصات اللواتي يبعن أجسادهن لكل صاحب نزوة. بعد أن يُقِمْنَ عُرساً احتفاءً بكل قادمٍ جديدٍ يستطيع دفع المهور المحرمة.

وقالمة ايضاً ليست ملعباً لكرة القدم، أو المضرب، أو البولو، بفريق يضاهي أفضل الفرق في الديار الجزائرية. وهي ليست بلدة التحديث في علوم التربية بكافة المراحل التعليمية. والتي تضم أعداداً كبيرة من المدارس المنتشرة في كافة أركانها. ولم تكن فقط بلدة البارات الصغيرة الموزعة في شوارعها وأزقتها والتي تَخَرَّجَ منها متعاطي الكحول وفحول السكيرين ومتعاطي الأنواع الأخرى من المخدرات.

وهي ليست دار السينما الوحيدة التي يتهافت عليها الناس للمشاهدة الجادة حيناً. وللمشاهدة الرخيصة أحياناً، حين ترفع كلفة الحياة والخجل بين الكثير من روّادها.

وليست هي مجموعة الحمامات الاسلامية، والمغاسل الحديثة الموزعة على أرجائها. والتي يتوق الإنسان للبقاء فيها لفترات طويلة، ليخرج نقياً طاهراً من شوائب القذارة الدنيوية. مستمتعاً بالأحاديث اللينة الممتعة في لياليها الذهبية.

قالمة كلّ هذا حجارة ومعاهد قديمة. ومساجد طاهرة، ودور لهو وغواية دنيوية. ولكنها فوق ذلك هي: بَشَرٌ يعيش أمل الحياة القادمة، هي بشر لكل واحدِ منهم تاريخ؟ لم يبح به لأحد، ولن يبوح به!

ومهما عاش الإنسان في مدينة أو بلدة، فلن يستطيع التعرف على تفاصيل حياتها بصورة مطلقة. فهذا شيء مستحيل إلاّ لمتفرغ أو دارس – وبصورة نسبية فقط. فالمدن عادة تُظْهِرَ لَكَ وجهها الفاضلَ الشّابَّ، وتخفي عنك تجاعيد العمر. وقسوةَ الزمان، وكل مدن العالم وقراها وبلداتها جميلة بشكل أو بآخر. فأبن الصحراء لا يترك دياره القاتلة، بل يتغزل بطبيعتها القاسية. وأهلها. ولن تُغْريه مدينة أخرى حتى لو كانت باريس ذاتها. فالإنسان وحده صانع المكان، وهو الذي يضفي عليه أسباب الجلال. والجمال. ويجعله تاريخياً. وقالمة لا تشذّ عن القاعدة. فأبناؤها الذين صنعوا جمالية المكان. وتاريخية الموقع. فالحديث عن الاشخاص. وتفكيرهم. ومدى تطلعاتهم. وسُبُل معيشتهم. وأساليب عملهم. هي التي توصلك إلى عظمة المدن، أو البلدات أوانحطاطها وسقوطها.

لقد دفع الناس في قالمة ثمناً مرتفعاً لتبقى بلدتهم لهم ولهم وحدهم. لا يشاركهم فيها الغير -إلاّ إلى حين- ومهما كانت مستوى حضارته وعظمة بلاده. فقد مرت شعوب كثيرةٌ على البلدة عبر التاريخ. واستعمرت أرضها. ونهبت خيراتها. واستخدمت أبناءها عبيداً للأرض وطعماً للأسود. أوسلعاً بشرية تباع في سوق المستعمرات. ولكنها في النهاية، استطاعت بفضل أصالة أهلها. أن تمتلك تربتها لوحدها، وبيدها فقط: :

قضيت ثلاث سنين من عمري في قالمة. بين ساكنيها، لا بين جدرانها. وهؤلاء السكان. وان غلب عليهم طابع الفلاحة. والثقافة الفلاحية. والتقاليد المتوارثة منذ القدم. إلا أن قسماً كبيراً يعيش حياة

معاصرة. بكل أدواتها. ومتعها. وأمراضـــها. وعقلانيتـها، وروحانيتـ
المزوجة بالنفعية العصرية. مزيجٌ بشري. من أقصى البادية، ومن أغوا
القرى الفلاحية. إلى معاصري المدن الكبرى الراقية!.

من هذه الصعوبة. فليس بمقدوري أن أكتب عن حياة كـل شـخص
في قالمة. وان كنت أعرف الكثير منهم، فهذا لا يبرر أني أعرفهم بصف
قاطعةٍ وسليمةٍ. وكذلك الذاكرة العاقلة يمكنها أن تجلب لك أكثر الصـو
العالقة بها. تطرحها أمامك. فما عليك والحال كذلك إلاّ متابعة الشـري
الواقعي الذي ثبت لديك. لتكتـب أو تتحـدث عنـه. إن كـان الحديـ
مشافهة. ولكنـي مـع ذلـك سـأنتقي أكـثر الصـور انطباعـاً في الذاكـرة
وبالتالي فإنها ستفصح عن فترةٍ من تاريخ الجزائر كلها. حديثة الولادة
وستبين أيضا مدى التعددية الفكريـــة. والتعدديـة السياسـية فيـها. وا
كان بعضها متصالحـاً مـع الدولـة ويسـير باتجاهاتـها، والبعـض الآخـ
ينقدها بعنف متطرف. بإتجاه اليسـار وباتجـاه اليمـين أحيانـاً أخـرى
وبينهما يقع قطاع واسع من الناس ضائع بين هذه التيارات. منتظـراً مـ
تأتي به الايام. مكتفياً بالعذاب والمرارة والموت الذي كـان شـاهداً عليـ
أثناء الحرب. فانخرط في الحياة المعاصرة إلى أقصى حدودها، مسـتعير
عبارة ابن خلدون في مقدمته (إذا عْربت خْربت) (وإذا خُربت فلن تعمر)
دون أن يفسر ما قصده سوى تفسيراً اجتماعياً لمفهوم الدولة التي تستفيد
من كافة عناصرها المتمازجة.

السيد عبد الغني: الحزب أولاً:

السيد عبد الغني المسؤول الأول في الحزب عـن دائـرة قالمـة. رجـل
جاوز الخمسين من العمر، مناضلٌ سابقٌ. مشهودٌ لـه، انضبـاطيٌ المظـهر

والكلام. يداوم صباحاً في المقر الرسمي، مديراً في الشؤون التنظيمية للحزب. يتلقى التعليمات من السلطات المركزية. وينفذ ما جاء فيها، وغالباً ما تتعلق هذه التعليمات باجتماعات الحزب. والموضوعات المطروحة للنقاش في اللقاءات. التي تتم على مستوى الأعضاء العاملين فقط. وغالباً ما تنتهي النقاشات دون طروحاتٍ جديدةٍ وأفكار جديدة، إنما يتم التصويت على القرارات التي أقرت في المستويات العليا، وكان أكثر نشاط هذا الرجل يبرز في المناسبات الوطنية، والاحتفالات العامة، حيث الشعارات المكتوبة على اليافطات تبرز أفكار الدولة والحزب ومساراته الفكرية العامة. وكانت لديه القدرة الخطابية في كلّ مناسبة، ويستطيع من خلالها إيصال أفكار الحزب بسهولة ويسر. وقداستطاع أن يجد عملاً لكل الاعضاء العاملين فنشرهم في دوائر الحكومة. دون دراية ادارية كافية، بل ودون معرفة أهمية المواقع التي يشغلونها. وقد تحولوا بمرور الوقت إلى (بيروقراطيين) زادوا من ثقل الادارة. وعقّدوا الامور التي تهم عامة الناس. متخذين من حرفية النصوص القانونية دستوراً لهم. مبتعدين عن روح المبادرة والابداع الوظيفي والاداري. مما خلق إرباكا لدى المواطنين. الذين لم يكونوا يعرفوا أين يجدون تسييراً لمصالحهم المعطلة دونما سبب منطقي. وفوق ذلك فقد كان الناس — كما رأيت — ينظرون بعين الريبة والشك لهؤلاء الأعضاء. ويعتبرونهم أشخاصاً غير مرغوب فيهم. وخاصة في الأماكن العامة. فهم عَسَسُ الدولة. رغم أن بعضهم — والحق يقال — ظل على نقائه الثوري ناظراً إلى الأمور العامة. بعين ناقدةٍ فاحصةٍ وبحاجةٍ إلى الإصلاح.

ولكن العالم الثالث وهذه مشكلته — كان قد استعار أساليب للحكم لا تتفق مع طبيعة وظروف وتاريخ شعوبها. فالصين ليست الجزائر ولا يوغوسلافيا بأي حال من الأحوال. كان السيد عبد الغني جزءاً من النظام وطرفا فيه. فلم تكن لديه القدرة الكافية لمراقبة الأوضاع عن قرب، وكان يظن في قرارة نفسه أن الأمور تسير بشكل لائق، فلا حاجة لأفكار جديدة وصيغ جديدة. وهكذا بقيت النتائج دون المستوى المطلوب، وبقيت الإدارات دون كفاءات مما سبب تباطؤاً شديداً اثّر على حياة عامة الناس بشكل سلبي و متأخر.

الأستاذ مبروك: حبٌ على الطريقة الشرقية!

الاستاذ مبروك الشاب ذو الشخصية الرومانية النحاسية. تحسبه راجعا من التاريخ القديم لقالمة. أنيق الملبس إلى حد التطرف. يقوم بتدريس مادة الرياضيات في ثانوية الاناث. مجتهدٌ ومبدعٌ يحدثك عن العمل والحياة. فتحسبه من سكان الغرب. ينتقي صداقاته بعنايةٍ. ولا يلتفت إلى ما يدور حوله من حياة الآخرين. وكنت أعتقد بأن الكثير من الفتيات يفضلن صداقته. ومعاشرته. ولكن اعجابه بنفسه جعله يتغافل عن تلك العلاقات السريعة.

تعلق قلبه أخيراً بإحدى المعلمات الشرقيات القادمات من الضفة الغربية لفلسطين قبل احتلالها. العام 1967. وكُنَّ خَمْسُ فتيات عازبات. يحتار المرء فيمن ينتقي منهن لتكون زميلة أو صديقة. حقاً كنّ يمثلن جمال الشرق. بكل تقاطيعه وخجله. وحذره وخوفه .رغم التحرر الكامل في طريقة ارتداء احدث الازياء العصرية، ولقد عاشت تلك الفتيات فترة عصيبة جداً من حياتهنّ. لأن سكان قالمة قد أصابهم نوع

من الانبهار. والحيرة معاً. فقد جرّب الكثير من الشباب والرجال الذين تخلوا عن اتزانهم العاطفي. التقرب منهن، ولكن دون جدوى. ذلك أن طبيعة الفتاة في الشرق –في ذلك الوقت على الاقل– وأسلوب الحياة المحافظة. وان كان فيها نوع من الرياء والكذب، كانت تتمنع من اللقاءات الحميمة. ما عداء اللقاءات التي كانت تسمح بها المناسبات الاجتماعية والتربوية والوطنية.

مبروك استطاع بلباقته. وجمال شكله، ومركزه الاجتماعي، من تكوين علاقةٍ ذات طابع عميق مع أجمل واحدةٍ منهن. وأشدهن خجلاً، ومع ذلك فقد وضع نفسه في خضم معركة لم يحسب لها حساباً. فقد تصور أن نرجسيته قد تجبر الفتاة على الخضوع لمتطلباته العاطفية والحسية!.

ولكن الفتاة بحسها الانثوي المحافظ، استطاعت أن تجعل منه (روميو) جديد على ساحة الحب في قالمة! وشَعَرْتُ بأنه أصبح يتقرب مني بقوةٍ. تدفعه أحياناً للبوح بما يفكر. وأخيراً قرر زيارتي في غرفتي الوحيدة. وباح لي بما يفكر. وماذا بوسعه أن يعمل ليرضي مثل هذه الفتاة؟ كان قلقاً وهو يتحدث لي عن تجارب عديدة مرّ بها في حياته مع فتيات ومن جنسيات مختلفة. وفي كلّ مرة لم يكن نصيبه الفشل والخسران. فماذا يفعل؟ وماذا يقول؟ وكيف يستطيع الاحتفاظ بهذه الفتاة لنفسه فقط؟

فقلت: مبروك. أنا لم أكن في وقتٍ من حياتي سمساراً للحب عند أحد. أو لإقامة علاقة ما. فإني أعرف أين أضع قدمي. ومع ذلك

فدعني أسألك. هل تحبها فعلاً. وتـود الاحتفـاظ بـها؟ فأجـاب بسـرعة وعيناه تلمعان كالوميض: نعم. نعم. وهذه هي المرة الأولى التي يتملكني مثل هذا الإحساس! شيءٌ لا اقدر على وصفه انها وديعةٌ ومثقفة ولكنـــها محافظـة. حـذرةٌ إلـى حـدٍ بعيـد. فـأجبت شـارحاً ومشـيعاً شـيئاً مـــن الطمأنينة لديه: أنا أُصَدّقُ ما تقول. ولكن دعني أخبرك بما يعنيه الحب في الشرق. بكلمةٍ مختصرة جداً. هو حالةٌ من الرومانسية لدى الفتاة التي تود الزواج منك ولا غير ذلك. وبالرغم من الصعوبة التي تقعان بها نظراً لبعد الأوطان عن بعضها. فإن الحب يبقـى لـدى الفتـاة. ويبقـى قلبـها معلقاً بحبٍ اختارته. ولكن عليك أن تضع باعتبارك أن الاحترام والصدق هما الصفتان اللتان تجعل فتاتك تتعلق بك أكثر.

فردّ بشيءٍ من الحيرة والتساؤل: هل تعني ذلك حقاً يا سي محمد؟ هل عليَ أن أسافر لأطلب موافقة الاهل في نابلس؟!

فقلت: إذا كان يعنيك الزواج فهذه طريقة. وإلاّ ستتمرغان في وحلٍ من عذاب الروح والجسد لسنواتٍ طويلة. وستقطع طريـق حياتـها التـي كانت تبنيه لنفسها في ديار الغربة.

ولا تنس أنها ابنة حي شرقي من أحياء فلسطين. ولا تمتّ بصلـةٍ إلى (مونما رتر) في باريس. حَوّلَ مبروك نظره عني قليـلاً. واستغرق في تفكيره، **ثم أخذ** يتجول في أرجاء الغرفة. واستقر أخـيراً علـى الشـرفة زمنا مادًا بصره بإتجاه الافق الســهبي البعيـد. ثمـن اسـتدار ونظـر إلـي بعينين فيهما أمل وضّاء.

نعم يا سي محمد سأعطيها وعداً دينياً. بـاني سأسـافر في الصيـف إلى بلدها. وأطلب يدها رسمياً من أهلها. وسـأظل وفيـاً لكلامـك حتـى نهاية العام الدراسي. شكرني مودّعاً ومعانقا ومعاهداً ثُمّ غادر الغرفة وقد خفت مشيته وانتصب جسده.

سارت أيام العمل متكاسلةً باتجـاه نهايـة العـام الدراسـي. وكنـت أحياناً أصادفها في اجتماعٍ تربوي. فتدنو مني مشرقة الوجـه والعينـين. فأعرف بماذا تفكر! حقاً انها جميلة وناعمة وتستحق العناء لاستحواذها. والسي مبروك يبحث عني في قالمة كلما سنحت له الفرصـة ليجالسـني، وقد ازداد جمالاً رومانيـاً متوارثـاً. ولكنـه اتجـه نحـو التواضـع ونكـران الذات. والهدوء.

وفي بداية عطلة الصيف. غادرت سائحاً الى اسبانية. وغادر مبروك حاجّاً إلى ديار فلسطين المقدسة. وقد رجعت بعدها محمّلاً بأحزان العالم كله. وأنا أشاهد ما أضعناه في جنّة الاندلـس الزاهيـة بشمسـها وورودهـا وحبها واصالتها العربية التي لا تزول. ورجع السي مـبروك زوجـاً تعلـو هامته مسحةٌ من ذوق الشرق واتزانه. مع امرأةٍ لها شرف البقاء في أرضٍ يود أهلها الموت في طريق الحجيج الذاهب إلى بلدها فلسطين!

سيدي عبد القادر: عمامة جزائرية

(إن عدم احترام السلف هو العلامة الأولى على الخلاعة) بوشكين

سيدي عبد القادر ((من العرب الذين يحبون اظهار عمائمهم في كـل مكان)) وهذه العبارة استعرتها من قول أحد المستشرقين في (أبـي الفـداء) المؤرخ العربي الفذ. ولكن سيدي عبد القادر هذا كما يدعونه أهل قالمة لم

يكن يظهر عمامته البيضاء. ولكن صفاته الجسدية والفكرية. والدينيــة. والمسلكية. هي التي أمكنته من ارتداء هذا اللبـاس الأبيـض النـاصع مـن قدميه حتى عمامته. وأضْفَتْ عليه صفة السيادة. (فليس كل مـن يلبـس قميصاً يصبح قسيساً) كمـا يقـال. هـو رجـلٌ يجمـع في شـخصه. تـراث البادية العروبية النبيلة. وتراث الثقافة الإسلامية المحافظة. وينظر بعين الريبة والحذر لكل ما هو دخيلٌ وأجبني وافدٌ إلى الحياة الجزائرية.

يمتلك مزرعةً واســعةَ الأرجـاء. ومـنزلاً ريفيـاً بنـاه في قلبـها أشـبه بقصور الاقطاع في العصور التركية. يقوم عمالٌ كثيرون مع عائلاتهم على خدمة الأرض. والاعتناء بأشجارها ومزروعاتها. سَهِرَ على تربيــة أولاده الذكور حتى أجتازوا مراتب عالية مـن العلـم لـه سـيارته الخاصـة التـي يقودها بنفسه. والتي تضعه في المكان الذي يشاؤه بين أصدقائه في عنابـة أو قسطنطينة أو بين أيٍ كان مهما علا شأنه.

عَرَفْتُ سيدي عبد القادر عن طريق ولده الطالب في مدرستنا. فكـان يأتي خصيصا لحملي مـن أمـام المدرسـة مـع ولـده متجـهاً إلـى المزرعـة الواقعة على طريق عنابـة. وقـد تعرفـت مـع الوقـت علـى أهـل بيتـه، والعاملين عنده واحداً واحداً. وقد عاملني بـروحٍ أبويـة تدعـو للاحـترام والتقدير. وكان اولاده الكبار يُقَبِّلونَ يده أمام الجميع. كعادةٍ مُتَّبَعَةٍ وَسُنَّةٍ طبيعيةٍ. وأثناء الحديث لا يتفوه بكلمة إلا إذا سُإِلَ عـن مسـألةٍ معينـة. ولـم أسـتطع كسـر هـذا التقليـد المتبـع إلا بعـد مـروره فـترة طويلـة مـن اللقاءات. فكنت أطلب من الكل المشـاركة في الحديـث. لأنـه لا يتعلـق بحالةٍ فرديةٍ خاصةٍ بقدر ما هو موضوع عام يهم كلّ البشر. وكان سيدي عبد القادر يقبل ذلك برحابة صدر.

سيدي عبد القادر هذا متذمراً. وناقداً حصيفاً. يمزج التاريخ وأحداثه الماضية بقضايا الحاضر. ويسحب أفكاره على الواقع الجزائري المعاصر. فكان يؤكد دائماً بأن ناتج الثورة إفرازاتها الحاضرة لم تكن متوقعة على هذه الشاكلة. من الابتعاد عن التمسك بمبادئ الميثاق الوطني. والمبادئ الدينية الجهادية، التي قامت الثورة على نهجها، وبرأيه أن الشعارات السياسية الاقتصادية المستوردة، لن تمكن الجزائر من أن تصبح عربية. وإسلامية. وأن المظاهر الاجتماعية الشاذة، وأساليب الحياة التي لا تتفق مع عقيدتنا -وهي السائدة- هي انحرافٌ خطيرٌ. وخيانةٌ كبيرةٌ لكل تاريخ النضال جزائري. من ثورة الأمير عبد القادر الجزائري. مروراً بثورة المقراني، وانفاضة عام 1945. والكثير من الثورات والانتفاضات الأخرى، حتى ثورة التحرير الأخيرة.

ثم يترك سيدي عبد القادر فسحةً للنقاش والرد فأقول:

سيدي الشيخ: ألا تعتقد أن مئة وثلاثون عاماً كافيةً لتغيير مفاهيم كثيرة عن العالم. وعلاقاته الدولية المتشابكة؟ ألسنا جزءا من هذا العالم يا سيدي ؟

يفكر الشيخ قليلا ثُمّ ينظر بحدةٍ تحوي: هذا صحيحٌ ياسي محمد وقولك ينطبق على المجتمعات التي لا تمتلك حضارات مدونة على خلفية حضارية حقيقية. بينما نمتلك الكثير مما نعطيه لا مِمّا نأخذه من الغير. وأن حضارتنا العربية الاسلامية هي بنت حضارات شرقية أقدم منها. لها قيمتها وفكرها وعلمها وأسلوب وطراز حياتها. فلماذا نستقدم قيما ثقافية لسنا بحاجة إليها. بل وبالعكس تفسدها و تلطخ روحانيتها

الطاهرة بفلسفات مادية أنشأها الإنسان وليس الله. لقد بقي الرومان هنا ثلاثمائة وخمسون سنة ثمَّ رحلوا وبقيت أثارنا الفكرية والفلسفية تلاحقهم حتى روما.

فقلت: ولكن سيدي الشيخ: هل أستطيع القول [ان التقدم الهائل الذي يعيش فيه الغرب الآن ونحن بدورنا نستفيد منه ونستعمله في حياتنا هل هو نتيجةً للبعد عن قيم الكنيسة الدينية؟ فأجاب كأنه ينتظر مثل هذا السؤال: من الخطأ أن نستعمل هذا المقياس يا سي محمد فالمساجد ودور العبادة الاسلامية هي التي خَرَّجَتْ رجالاً موسوعي الثقافة. فالعلم والدين في عقيدتنا مكاناً لهدفٍ واحدٍ. هو دراسةٌ لمنافع الدنيا والآخرة. بينما رجال الكنيسة في الغرب كانوا يحرسون عقيدتهم من العلم النافع. وكانوا يهرطقون رجال الفكر ويحرقوهم.

هكذا يدور الحوار في كلّ مرة أزور فيها السيد عبد القادر صاحب المكتبة التراثية الوحيدة التي لم أجد لها مثيلاً عند الكثير من مثقفي ورجال العلم في الجزائر.

وفي كثير من الأحيان كان عمال المزرعة يشاركوننا الطعام الواحد دون تكلف واصطناع. وكان الشيخ يعامل كلّ واحدٍ منهم بطريقة تدعُ للاحترام والتقدير. لم يكن اقطاعياً بطبعه. ولكنه كان نبيلاً عربياً معتزاً بقيمه الأخلاقية والدينية. ومؤكداً بأن الحضارات العظيمة قامت على أسس دينية. وكل الدول العلمانية المعاصرة رغم تقدمها ما هي إلاّ جزءٌ سخيف من تاريخ العالم وسينهار في وقت ما. وسندفع ثمناً باهظاً لتبعيتنا هذه.

وعلى كلٍّ فإن جُعْبة الشيخ لم تكن فارغةً من الأفكار العظيمة والشجاعة. وكان في كلّ مرة يجد موضوعاً للحديث منه. بعمق وحصافةٍ وها نحن اليوم نشهد بعضاً من تفسيراته القيمة. فإنهيار الكثير من الدول. وتحطم قيمها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية دليلاً واضحاً على أن أصحاب الحضارات لا يخطئون في تقييم العالم. وإذا كان سيدي عبد القادر حياً أو ميتاً فإن أمانته الفكرية وتفسيره للتاريخ لم يكن إلا صدقاً وحدساً عظيماً (فالكلمة الصادقة كرنين الذهب).

السي صالح : حقاً رجلٌ جزائري

(الخُلُقْ هو الحقيقةُ في كامل عَطائها)

فيكتور هوجو

- 1 -

(سي صالح) صاحب المقهى الأنيق والنظيف، هو الأول الذي يستقبلك حين قدومك من عنابه، رجلٌ عصاميٌ في الأربعين من عمره دافقاً بالحيوية وأناقة الحركة، مظهره الخارجي وسيماه يدلان على فلاح لا قِبَلَ له بحياة المدن، خشن الملامح، قوي البنية، وإن كان يميل إلى النحافة، أغترب في فرنسا عشرين عاماً قضاها في التنقل بين المهن المتعددة، والمدن المتعددة، مما أكسبه معرفة بكل شيء تقريباً، فهو يمارس البناء، وكسوة الجدران، والدهان، والنجارة وغيرها، حتى أصبح أميراً في إدارة مقهىً كبيرٍ أضاف إليه مطعماً على شكل كهف في غاية

الحداثة والإتقان والجمال. وقد زين جدرانه الداخلية برسومات تجريدية على طريقة المطاعم الأوربية المعاصرة، وكان هذا المطعم فيما مضى مستودعاً مهجوراً تغزوه الحشرات والزواحف بشكل مقزز ومريب.

اشترى (السي صالح) المقهى والمنزل الواقع فوقه من مُعَمَّرٍ فرنسيٍ غادر قالمة. بأموال كان وَفَّرَها من عمله وشقائه في بلاد الاغتراب، وأتخذ الطابق الثاني سكناً لعائلته وأولاده الكثر، وجعل مقهاه الأشهر في قالمة كلها، لا يتوقف (السي صالح) عن الحركة برفقة نادلي المقهى وطباخي المطعم حتى الساعات الأخيرة من الليل، فكثرة الرواد لا تترك له مجالاً للراحة إلا حينما يهرب وقت القيلولة فيقتيل تعبه بساعةٍ من النوم الهادئ العميق، ليعود بعدها مجدداً أقداح الكريستال أو (الريكار) المزوج بالماء البارد المثلج في بداية الليل دافعاً إلى طاولة البار الكثير من المازات اللذيذة آتية من المطعم الداخلي وبذلك يضفي جواً من الاستحسان والفرح لجلسته، مما يزيد بالتالي مشروب الزبائن وأقدامهم على طلب المزيد ورغم عنايته الواضحة بزبائن البار أمامه، فأنه لا ينسى أن يلقي نظرات خاطفةٍ وثاقبة على كل طاولة في الصالة المفروشة أمامه، أو حتى داخل المطعم من الباب الجانبي المفتوح عليه، وكان أحياناً يُشْعِرُ النادل بأن هناك نقصاً في طاولةٍ ما، أو طلباً متأخراً لأحد الزبائن، وفي كثير من الأحيان عندما يزدحم البار برواده كان السي صالح يقدم أقداحاً مجانية للزبائن، ابتداءً من القهوة حتى زجاجات البيرة من ماركة (البيلس) المشهورة هناك، ولم يكن السي صالح يَعُدُّ ذلك كرماً منه، بل واجباً

تقتضيه المهنة، ولم أشاهده يوماً يُقَرّعُ عاملاً أو نادلاً يعمل عنده بل كان يصلح الخطأ بنفسه إن وجده، ويقدم عذراً شخصياً إذا اقتضت الضرورة ذلك، وكان يقدم أفضل ما عنده لعماله أثناء فترات الراحة دون أن يحاسبهم كان هذا الرجل يمتلك عقلية رجل الأعمال، وفكر الرجل التجاري، وفن إدارة العمل والعاملين، لقد مكنت هذه الصفات السي صالح من مزوالة عمله باتزانٍ كامل، وبروح تقدس العمل وتعرف معنى التعب، واستطاع بذلك أن يدير عمله بنفس الروح التي يدير بها منزله وأسرته.

لقد احتضن هذا الرجل غربتي بكل رفقٍ ومحبةٍ صادقة، فكان متسامحاً معي في دفع تكاليف الشراب والمأكل، وفي كثير من الأحيان كان يقتطع نصف الثمن الواجب دفعه إكراماً ومحبةً منه.

ويفضل أن أجلس في إحدى زوايا البار مجاوراً لمكان وقوفه، ملتمساً حديثاً أو حواراً، كان قارئاً جيداً للصحف بكافة أنواعها، يسرد على مسامعي كل ما قرأ، عن الشرق الأوسط، ويسترسل في تحليل ما قرأ خائضاً في الحياة السياسية لأغلب الدول، وهي عادة أكتسبها بالمران في فرنسا فالعمل السياسي كان جزءاً هاماً من حياة الجالية الجزائرية الكبيرة المنتشرة في المدن الفرنسية، ابتداء من مرسيليا حتى قلب العاصمة الفرنسية باريس، وقد اعتاد على الاستماع والحوار بطريقةٍ هادئة وردية، خالية من التطرف والتعصب، فكان لا يسمح لنفسه بشتم أحد لأنه لا ينتمي إلى فكرة أو عقيدة جامدة وكان يؤكد لي بأن المعمرين الفرنسيين

الذين استوطنوا الجزائر واستعبدوا اهلها واغتصبوا أفضل ترابها ليسوا هم الفرنسيون الحقيقيون، ولا يمثلون إلا هوامش المجتمع الفرنسي الجـاد، وكان يعتبر أن القطيعة مع فرنسا نكبة للجزائر، وخطأً ترتكبه الدولة إذا سارت فيه إلى النهاية، وبرأيه لا يمكن بسهولة قطع علاقة دامـت مئـة وثلاثين سنة من الحياة المشتركة بكل النواحي، بإنفعال ثـوري لا طـائل تحته سوى الرجوع إلى الوراء.

وكان الاستقلال برأيه هاجساً، لا يمكن التنازل عنـه أمـا العلاقـات فهي شيء مختلـف، والمصـالح المشـتركة هـي التـي يجـب أن تسـود في علاقاتنا مع الآخريـن، وكلمـا تقلصـت علاقاتنـا الدوليـة كلمـا خسـرت الجزائر مصالحها الخاصة والعامة على حد سواء.

وكان السي صالح يدفعني بلباقةٍ للحديث عـن القضيـة الفلسـطينية فأترك في ذهنه انطباعاً حزيناً وصورة قاتمة، ويجبرني أحياناً على رسـم خريطة لفلسـطين بـالورق والقلـم لترسـخ في ذهنـه بعـض المعطيـات عـن المساحة والسكان وجغرافية المكان وأماكن تواجـد اللاجئـين وحياتـهم في كل بلد فيفكر ملياً ولكنه غالباً ما ينتهي حديثه بعبارة (لا بد مـن عمـل شيء ولـو كـان صعبـاً في البدايـة) وعندمـا يعـود للحديـث عـن الوضـع الجزائري يتناول الوضع الاقتصادي بكل معطياته ويؤكد في كل مرة بـأن سياسة الباب المفتوح وعبارة (دعه يعمل) التـي ينطقـها بالفرنسـية هـي أفضل وسيلة لتبقى الجزائر مسـايرة للركـب العـالمي في النهضـة والتقـدم

لأنها تملك كل الوسائل المادية لذلك، والوقت كفيل بإيجاد الأطر الفنية اللازمة للعمل الصناعي والاداري وحتى السياسي.

هذا (السي صالح) الذي أحببته وتقربت منه كل يوم كان يعتبر كل ضيف يزوروني في المقهى أو المطعم ضيفاً عليه وكل رسالة تصلني من الأهل على عنوان مقهاه رسالة من اهله لأخيه. وفي كثير من المرات شاركني فرحي وأحزاني ونقاشي فكان كمن مَسَّتْهُ الحياة بكافة جوانبها يحترم حياة الآخرين ويقدر مواقفهم، ويشاركهم أهدافاً، فكان وما زال عزيزاً على قلبي، إنه كما قال جبران خليل جبران:

(الحماسةُ بركانٌ لا تنبت على قمته أعشاب التردد).

الأستاذ محمد :
حلمٌ ساذج

(الكثير من الناس يفكرون بعقولهم. والقليل
من يفكر بقلبه)

- 1 -

الأستاذ محمد زميلٌ في المدرسة. طويل القامة. نحيفاً. مجعد الشعر. ذو تقاطيع حادة. وعينان سودوان عميقتان ولامعتان. أنيق المظهر يحب الثياب العملية على الطريقة الأمريكية. التحق بالعمل بعد بداية العام الدراسي بعدةِ أشهرٍ. وقد فأجأني عندما صرح لي بأنه خريج الكلية الحربية في حلب!

وأنه التحق بالقيادة العسكرية للثورة. متنقلاً بين الحدود التونسية. والداخل الجزائري. حتى الاستقلال. وكان قبلها قد ترك دراسته في أحد المعاهد العلمية التطبيقية في فرنسا مستجيباً لدافع داخلي وطني فقدم نفسه لحركة التحرير على أمل الالتحاق بالمجاهدين داخل التراب

الجزائري، إلاّ أن القيادة ارتأت في ذلك الوقت، أنه من الأفضل له الالتحاق بأكاديمية عسكرية نظراً لتقدمه العلمي فاختار الكلية السورية.

كان الأستاذ محمد يحدثني عن المدن السورية ، التي كان يقضي فيها إجازته . حديثَ المحبِّ و العاشق لها ولأهلها ، وقد أخبرني بأنه لم يكن يشعر في يوم من الأيام خلال تواجده في سورية بأنه غريبٌ أو بعيدٌ عن أهله ووطنه، وكان يشيد بعقلية وذكاء السوريين، واحساسهم العميق بقوميتهم العربية، واستعدادهم الدائم لإقامة علاقاتٍ أكثرَ عمقاً مع الثورة الجزائرية ولكن هذا الأستاذ وبرغم عواطفه النبيلة واحساسه المرهف بحب الوطن، كان متأثراً بقدر كبير بالثقافة الأوربية، وعقلانيتها، ومبهوراً بأساليب العمل، والعيش الذي كان يسود أوربة وخاصة فرنسا في ذلك الوقت، وكان بودِّهِ أن يرى بلده المستقل يَتْبَعُ هذا المنهج الحضاري دون غيره، ويُرَكِّزُ في أغلب أحاديثه ضمن قاعة المعلمين: على الأساليب السياسية التي تحكم الاوربيين، ويَعُدُّ هذه الأساليب من أفضل ما أنتجه الفكر الانساني في الحكم والاقتصاد، واكثرها تشبعاً بالروح الديمقراطية التي تتيح الفرص للجميع، كي يعبروا عن أفكارهم وآراءهم ضمن نطاق المؤسسات القانونية، ابتداءً من تشكيل الأحزاب ذات المشارب الفكرية والأيديولوجية المتعددة، إلى النقابات العامة. التي تناضل من أجل حياةٍ أفضلَ للداخلين في عضويتها، وكان في كثير من الأحيان يستنكر دون وجل أو خوف الوصاية التي تقيمها السلطة الجزائرية على الشعب كأنه ماً زال طفلاً وليداً يحتاج للكثير من الرعاية والتربية والتعليم، متجاوزةً كل سنواتِ النِّضال الطويلة الممتدة من بداية القرن حتى الآن والتي كونت وعيه السياسي التقدمي، فكأن كُلَّ هذه السنوات غير كافية كي يستطيع الشعب أن يحكم نفسه بنفسه من

خلال التعددية الحزبيـة المتواجـدة في الجزائـر والمتواريـة خلـف حـزب جبهة التحرير والتـي نـاضلت جنبـاً إلـى جنـب للحصـول علـى حريـة الوطن.

وكـان النقـاش اليومـي يـأخذ أحيانـاً طُرُقـاً متشـعِّبَةً وذات دلالات مختلفة، وكان الحضور ينقسم على نفسـه ضمـن هـذه الدائـرة الفكريـة، فالبعض مـن المعلمـين يـأخذ جـانب الدولـة مـبرراً منطلقاتـها وأسـاليب أعمالها، لأنـها في بداية للتكوين فلا بد من وقوع الخطـأ ومعالجتـه، ولا بد من تعويد الناس على الأسلوب الجديد من الحكم، والبعض الآخر من المعلمين يرى أن التَّرَيُّثَ مطلوبٌ في هذه المرحلة لفـترة تطـول أو تقصـر، للوصول إلى الديمقراطية الحقيقية، فالشعب بحاجة إلـى أخـذ الأنفـاس للتخلص من افـرازات الحـرب المدمـرة بعدهـا يمكـن تقريـر المسـتقبل في طريقة الحكم. ولكن الأستاذ محمد يَظَـلُّ متمسـكاً بآرائـه دون أن يحيـد عنـها، معتبراً أن تجربة الحكم ليست معملاً كيماوياً تسـتطيع فيـه قتـل العناصر أو احيائها فالوقوف على أرض صلبـةٍ مـن البدايـة توصـل إلـى الطريق الأسلم لقيادة البشر التوّاقينَ إلىٍ الحريـة، كـالدول التـي تحـترم شعوبها، وكان الأستاذ محمد يحدثنـي أحيانـاً بشكل منفـرد مسـتخدماً اللهجة السورية الثي يجب التحدث بها قائلاً : يا أستاذ أنا لا أستطيع التأقلم مع هذا الجو الخانق، رغم احترامي وحبي لوطني، لقـد مارسـت حريتي كاملةً في أوربا فوجدت أني إنسانٌ آخر أستحقُ الوجـود والعيـش على ظهر هذا الكوكب، فالحرية أثمـن قيـم الحيـاة، ولولاهـا لا وجـود للبشر ولا للفكر البشري والنزعة الإنسانية لدى الناس، فأنا يـا أخـي لا أقرأ صحافة بلدي ولا الكتب الصادرة عنه ولا استمع للاذاعة ولا أشـاهد

التلفاز فأنا لا أحب أن يَصُبَّني أحدٌ في قالبه الخاص، ولا أحب أن أُشَكَّلَ مِن قِبَلِ الآخرين، أنا احب أن أختار شكل حياتي ونمط تفكيري بنفسي. هكذا تعودت وهذا منطق العقل أليس كذلك؟ فأجبت لقد أضعت فرصة عمرك الدراسية، وناضلتَ من اجل قضيتك فلماذا لا تؤقلم نفسك مبدئياً مع هذا المناخ الجديد؟ سَتَجِدُ بعضَ الصعوبات وستجتاز بلدك ذلك عاجلاً أم أجلاً وأنت رجلٌ مثقفٌ، والظروف الحاضرة تحتاج لأمثالك ويمكنك أن تُكَوِّنَ أسرةً فأنت رجل مُنْتِج فيرد الأستاذ محمد دون أن يفكر كثيراً فالحياة علمته الكثير من الاسئلة واجوبتها.

يا أستاذ : لن تعيش أكثر من مرة في هذه الدنيا، ولكن تستطيع التعلم أكثر من مرة في حياتك!

نحن أهل الجزائر - وهذا ما آراه- لسنا بحاجة إلى قتال جديد على أرضنا، نحن فقط بحاجة إلى الفهم، والادراك والحكمة السياسية، والجزائر لا ينقصها الحكماء وذوي الادراك الواسع، إنما تنقصها إرادة الفهم السياسي فالثوريون العسكريون غير ملزمين بإدارة دفة العمل السياسي. فهناك من هم أجدر منهم وهم مؤهلون، لذلك لهذا علينا أن نعيش مرة واحدة في ظل ديمقراطية مقبولة.

وعلينا أن نعي من خلال ذلك، هذا الأسلوب في الحكم، كيف نتعلم من عثراتنا، فالقادة العسكريون من الصعب عليهم أن يعرفوا طبيعة الأحكام المدنية : لهذا يا أستاذ أنا قلقٌ على مستقبل هذا الوطن وانتظر الفرصة المناسبة كي أغادره إلى حيث أستطيع العيش مع أفكاري وأمارس حريتي وأنتقي امرأة تكافئني، نَعْمَلُ معاً، ونفكر معاً، ونتكلم معاً. ونتقاسم الحب والألم معاً، وننجب أطفالاً معاً.

- 2 -

وظل الأستاذ محمد يحاور نفسه، ويحاور الآخرين طيلة السنة الدراسية، وفي كل يوم كان يطرح على الحضور أفكاراً جديدة جديرة بالنقاش، ولكنه مع ذلك ظل محافظاً على تواضع المفكرين، يحترم الأفكار الواردة ويحاورها بجدلية متعمقة بالحيوية والإبداع، ولكنه أحياناً يطرح أسئلة دون إجابات، ليقول أخيراً أنا متشائم، إذا ظللنا متمسكين بآرائنا التي استقيناها من منابع غير صافية، و هذه الأفكار في النهاية ستعكر نقاء الثوريين المثاليين، وستجعلهم غير قادرين على العمل لصالح الوطن.!؟

وفي بداية العطلة الصيفية وَدَّعَني الأستاذ محمد مهاجراً إلى (بلجيكا) التي قبلت استقباله وأكد لي بأنه لن يعود إلى الوطن إلا إذا استقامت الأمور، وتوضح الشكل النهائي للطريق الذي ستسلكه بلاده في المستقبل ودعني وهو محملاً بأفكاره وأخلاقه تاركاً وطنه للآخرين الذين لم يدخر وسعاً لاقناعهم بسلامة رؤياه ومتمنياً لي العودة إلى سورية التي عز عليه فراقها كما يعز عليه فراق وطنه قائلاً : حَلَبُ ستبقى مَحَطَّةَ حُبٍّ في قلبي إلى الأبد.

كان الأستاذ محمد صادقاً مع ذاته ومع الآخرين ولكنه كان أكثر صدقاً مع وطنه في أحلك فترة في تاريخه الحضاري كله ولكن الأستاذ محمد لو قرأ عبارات الكاتب الأمريكي ذو الأصل اللاتيني لربما فكر عشرات المرات قبل أن يغادر تراب وطنه المقدس.

(أَنْ تُصْبِحَ مُهاجراً هو أن تُديرَ ظهرك لوالدك، وقريتك، وأن تكسر قلب أمك، إنَّ المهاجر فضيحة لمكان هجرته ولبلده الأصلي)

فماذا تقول إذا لملايين المهاجرين الجزائريين ومحمد واحدٌ منهم؟؟.

كاتب ياسين يهديني نجمة

\- 1 -

افتتح السي مصطفى رئيس بلدية قالمة ومسؤول الحزب، مقهىً جديداً في الساحة الرئيسية للبلدة، ويمكن القول بأنه أقرب إلى المنتدى، وكان يمتاز هذا المكان الجديد بوجود كل وسائل الراحة على الطريقة الشرقية. ابتداءً من الكراسي المغلفة بالسجاد، وحتى المصاطب المريحة التي تلتف حول أركانه، ولا يحتوي هذا المنتدى على المشروبات سوى القهوة والشاي والنعناع، وكثيراً من الهدوء المفيد لمطالعة الصحف والمجلات التي كانت تصل كل يوم من مقر الحزب وتُقْرأ مجاناً، وحتى سعر المشروب كان رمزياً تشجيعا للناس على ارتياد مثل هذه الدور للاستزادة من المعلومات، وملاحقة الأخبار، أو لأخذ ركن هادئ لحديث حميم بين الأصدقاء والرفاق. السيد مصطفى هذا رجل قصير القامة، دائم الحركة عيناه فيهما شيءٌ من الحذر والذكاء، يرتدي لباساً أوربياً في كل الأوقات، حتى لو كان الطقس حاراً فطبيعة المنصب تفرض عليه مثل هذا الهندام، متزوجٌ من فرنسية على درجة عالية من الجمال والثقافة يعيشان دون اطفال، ويقطنان في أجمل أحياء البلدة وأكثرها رقياً، يقضي

أوقات فراغه الطويلة في مقهى السي صالح، مُحاطاً بشِلّةٍ من الأصحاب القدامى، الذين رجع إليهم بعد غياب طويل جداً في فرنسا، يتسامرون ويتضاحكون بكثير من الألفة والمودة، وكان السي مصطفى كلما رآني مقترباً من المقهى يشير علي بالجلوس إلى جانبه، كان وَدوداً وكريماً يسأل عن حالتي الشخصية، وعن أحوال التعليم والمعلمين ويقدم أسئلة ذكية عن مستقبل التعريب في الجزائر، ويرى من وجهة نظره بأن التعريب السريع هو عملية سياسية هدفها إثبات الهوية القومية الجزائرية.ولكنه من الوجهة العملية غير ضروري بالسرعة التي تأخذ بها الدولة.!

– 2 –

إحدى أمسيات الصيف الناعمة النسمات دخلت المنتدى للاستراحة وقراءة الصحف، فإذا بي أمام حشدٍ من البشر يملأ صالة المقهى بكاملها وقد ران الصمت على الجميع، وأحَدُ السّادَةِ في صَدْر القاعة بجانب السي مصطفى –ولا أذكر أني شاهدته أبداً– يتحدث بلغةٍ فرنسيةٍ أدبيةِ الطابع عن رواية لم أعرف اسمها، ولكني مع مرور الوقت وأنا ما زلت واقفاً بدأت أتعرف على مضمونها من سياق الحديث، لقد شدني كلامه بقوة، كان واضحاً وحيوياً، وكان هذا السيد الجالس في الأربعينات من العمر ولكن تقاطيع وجهه تعطيه عمراً أكبر من ذلك بكثير نحيف البنية يدخن بشراهة، وعيناه تدوران في محجريهما العميقين متطلعاً إلى الآخرين كأنه يراقب شيئاً لا يريد أن يهرب منه، وبعد أن لخص حديثه بجمل ذات دلالات عميقة، أجاب عن أسئلةٍ كثيرةٍ بتلقائية سلسةٍ كمن أعتاد على مثل هذه اللقاءات وكانت بعض أجوبته باللهجة

الجزائرية المطعَّمةِ بالكثير من المصطلحات الأدبية الفرنسية، وقد عرفت من خلال إجاباته بأني أقف أمام أفضل الكتاب الجزائريين. وأكثرهم شهرة حتى في فرنسة ذاتها. إنه " كاتب ياسين"..

صفق الحضور للكاتب. وصافحه بعضهم فبدى نوعٌ من الخجل المتواضع على وجهه. وانسحب البعض الآخر بهدوء. فبدأت الصالة تنفرج قليلاً قليلاً. تقدمت نحو السي مصطفى مصافحاً فدفعني نحو هذا الرجل العظيم وقدمني له قائلاً : ها هو السي محمد الذي حدثتك عنه نظر الكاتب إلى وجهي برهة ثم عانقني وهو يشد على يدي. وأجلسني بجواره كأني أعرفه من قدم التاريخ. وقد أخجلني الموقف، ولكن الكاتب بعذوبة كلماته جعلني أسترجع إتزاني. وقد أسفت له لأني لم أقرأ أعماله لأنها لم تترجم بَعْدْ إلى العربيةِ. وأكدت له بأني قرأت بعض الأدب الجزائري المترجم. وقد سمعت أن رواية (نجمة) تُجْرى ترجمتها في سورية فربت على يدي قائلاً : سأهديك كتابي بالفرنسية أولاً وستقرأه مترجماً إلى العربية في دمشق عندما تعود إليها، ولكن أرجو أن تبدي رأيك بالمضمون والترجمة على حد سواء. وبما أنك في قالمة سنلتقي أكثر من مرة إن شاء الله، والآن هيا لنشرب القهوة فأنا أسرفت في الكلام وربما في الثرثرة وكنت كلما نظرت إلى وجهه أتذكر (صموئيل بيكيت) بنحافة وجهه وحلاقة شعره المميزة ولكن كاتب ياسين لم يكن مثل بيكيت ينتظر (عودة غودو) ولكنه كان ينتظر (عودة الروح) الجزائرية الشفافة إلى البشر الذين طحنتهم الحرب بين رحاها وهو واحد منهم. فآثار حياة السجون بقيت عالقة في شخصه وملامحه وملبسه المتواضع. لقد حدثني هذا الرجل المملوء بالكبرياء والتواضع

عن عميق أسفه لأنه غير قادر على الكتابة بلغته العربية.
وبة في ذلك رغم أنه تعلمها في الصغر مع السي مصطفى في
والتكايا الدينية في بلدته ولكنه كان صادقاً عندما قال : إنني
-وهذا رغماً عني- التعبير عن أفكاري بصورة أحسن وأفضل إذا
الفرنسية وهي لغة تستوعب حضارة العصر ويمكن أن تخدم
كاتب يبحث لوطنه عن مكان تحت الشمس وهكذا فالفرنسية
ارا بل وأكثر قراءة من العربية!

— 3 —

م كاتب ياسين لسي مصطفى قائلاً : هيا يا مصطفى نركب
(عربة يجرها حصان) ونزور المحلات والأماكن التي نعرفها
عيش ثانية ذكرياتنا ففي رأسي يدور شيء جديد أريد أن أكتب
تخلى عن السي محمد.

ـ ليلة لا تنسى مع إنسان يعرف ماذا يدور في الحياة. وفي
شرية. وكان شراباً لا ينتهي. وأماكن لا حصر لها في ظلمة
قع حوافر الحصان تعزفُ لنا كل ساعة لحناً جديداً. وفي
ـيدة. لقد بدت لي قالمة في تلك الليلة مدينة لا حدود لها.
حبة وغنية بحوادث الليل التي كنت أجهلها وقد استقر بنا
كان لم أعهده مسبقاً. ولم أسمع عنه أمام مطربةٍ جزائرية
تغني لأم كلثوم طقاطيق صغيرة إلى حد الكمال. وتغني الموشح
بصوت نقي كأنه الفضة الصافية. وزوجها المطربش الملفوف
افةِ مُقَصّبَةِ أطرافها بلون الذهب على الطريقة التونسية يعزف

لها العود كأنه من عشاق بغداد. ويرتشف (الكريستال) المشبع برائحة اليانسون بأعدادٍ لا حصر لها وأنا مُحَاصَرٌ بين رفيقين يمتزجان بالشراب والذكريات. بين الأسى والفرح الضحوك. تشدني الأحاديث إلى طفولتي. وتشدني الحنجرة إلى الروح الفاتنة للمرأة العاشقة.

لقد اقترب منا الصباح ونحن في ثنايا الحديث الشفاف لكاتب ياسين وبين طيات الحزن والأسى الذي لا قرار له، والظاهر في عينيه ووجهه الحكيم.

خرجنا من الحانة. والشفق الدامي يخيم على طرقات البلدة، وصاحبُ العربة غارقٌ في نوم عميق. استيقظ وأخَذَ كل واحدٍ إلى داره، وكاتب ياسين يسند رأسه على مقعد العربة قائلاً بعد أن عانقني طويلاً: سأعطي الرواية لمصطفى وسأكتب عليها (إلى فلسطيني صادفته في طرقات الجزائر المستقلة فأرجو أن أصادفه في طرقات القدس)!..

(ودعني وكانت نجمة الصبح تتلألأ شاهدة على غُرْبِتِنا في الليل الغامض. وشاهدةً على وداعةِ أخلاقنا في ضوء الشمس)!.

العم بو جمعة

- ١ -

كان يشد انتباهي في كل مرة أراه فيها يكلم الآخرين. في الطريق أو في المقهى. والآخرون يمازحونه بلهو أكثرَ من المألوف. وهـو يَتَلَقَّـى كُـلّ ذلك بعصبيةٍ متوترة. ولكنْ دون غضبٍ أو كُرْهٍ. وبعد أن يستقر الحـال، يعاود الكلام المقطوع بصوت مسموعٍ مضيفـاً للهجتـه الجزائريـة عبـارات دارجة بالفرنسية فيها الكثير من السـباب والشـتائم. وفيـها الكثـير مـن الأخطاء اللفظية والقواعدية. مما يتيح للآخرين مرة ثانية إعادة المزاح.

كان أحياناً يقف أمامَ البار. أو يجلس على الكرسي المرتفـع. وهـو يتناول الكثير من زجاجات البيرة. مازجاً معها الكثير من لفافات التبـغ الرخيصة الثمن (دون فلـتر) متدثـراً بلبـاسٍ متواضـعٍ يـدل علـى الحالـة الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها. ورغمَ هذه الحالة المتواضعـة كـان يرسل لي شيئاً من الشراب. أو القهوة. على حسابه الشخصي!. وكنت دائماً أفضل تناول القهوة لرخص ثمنها متـهرباً مـن تكليفـه فـوق طاقتـه التي لا يحسد عليها.

(بو جمعة) هو الاسم الذي يُنـادى بـه وإن كـانت كلمـة (فِرْطـاس) تضاف للاسم لِيُعْرَفَ بين الآخرين وتعني (الأصلع) وكان حقـاً أصلعـاً لا أثر للشعر في رأسه. إلا نهاياته المنثورة كيفما كان. في الخمسينات مـن عمره. طويل القامة. قوي البنية. كأنه قطعـة مـن صخـر الجبـال يـداه كبيرتان وجافتان. وعيناه كعيني ثعلـب جبلـي.كـان مزارعـاً يعيـش في أرض أحد المعمرين الفرنسيين مع عائلته. وكانت حالته في ذلـك الوقـت لا غبـار عليـها. ولـم يفكـر يومـاً في اسـتبدالها. لأنـه لـم يكـن يمتلـك الامكانات لذلك. ولم تكن تطلعاته أكبر مـن ذلـك. كـان قانعـاً وراضيـاً بحياته المسالمة. يتقن العمل الزراعي إلى حد كبير. وكذلك كان صاحب المزرعة بدوره راضياً عن عمله وأخلاقه وامانته وصدقه. ولكن الثورة بعـد تصاعدها خلقت في حياة هؤلاء الناس جواً من عدم الثقة فكان الطرد مـن نصيبه فأضطر إلى اللجوء إلى قالمة عند أهل زوجته ليعيش بينهم ولكـن كرامته الشخصية لم تسمح له أن يبقـى عالـةً علـى الآخريـن. فعمـل في مجال البناء بمساعدة أحد أقربائه واستطاع بإرادة لا تعرف المستحيل من إتقان هذه المهنة بعد مُضيِّ فترة وجيزةٍ وأصبحـت بالتـالي مصـدر رزقـه اليومي. ورزق عياله وما زال حتى هذا الوقت. يقوم بنفس العمل متنقلاً بين قالمة والبلدات والقرى المجاورة. وبعد الاستقلال أمدته البلدية بأحد بيوت المعمرين على اطراف البلدة بإيجار رمزي وبسيط.

— 2 —

عندما كان العم بو جمعة يفـرط في الشـراب. وبعـد أن يجـد نفسـه وحيداً. بعيداً عن جو المزاح يسـتأذنني بـالجلوس حـول طـاولتي عندمـا أكون وحيداً. فأرحب به وأهتم كثيراً بما يقول. ولكنه بصفة دائمة كـان يحدثنـي عـن الله. وعـن الإسـلام. وعـن حالـة العـرب. وعـن طمـع

الفرنسيين بأرض الجزائر الغنية. فهي بالنسبة لهم بلاد الذهب كما يحب أن يقولها بالفرنسية.

AFRIQUE DUL 'ORE، والصحيح هي أفريقيا الشمالية (AFRIQU DU NORD) ولكنه مع ذلك كان مقتنعاً بما يقوله كانت الخمرة التي شربها تدق أعناق العرب والفرنسيين معاً. ولكنها تتحاور مع الله ببضع آيات من الكتاب الكريم حفظها عن طريق السماع، وتتحاور مع العقيدة وتقترب منها قليلاً قليلاً.

وأحيانا كانت الدموع تبلل مآقيه عندما يؤكد على اسلاميته وهويته الدينية. لم أكن أعجب كثيراً من هذه المواقف، لأن تناقضات العقل البشري التي لا يمكن تبريرها إلا بالمغفرة، فها هو بو جمعة مملوء حتى النفس الأخير بالخمرة. ويتحدث عن العقائد وعن الله بثقة المطمئن الوادع! وفي المرات التي كان فيها بو جمعة بكامل وعيه لابساً شخصيته الحقيقية كنت أسأله عن العمل وعن حياته العائلية، وكيف تسير. وكان يؤكد دوماً بأن الأعمال أصبحت قليلة لا تكاد تفي بالحجات اليومية للانسان وكان يعزو ذلك إلى كثرة انتقال المزارعين والفلاحين من القرى والدساكر الصغيرة مهاجرين نحو المدن الكبرى والبلدات الناشطة مما أوجد نوعا من عدم الانسجام في الحياة العامة، من جهة. ورخص الأيدي العاملة من جهة ثانية، مما أوجد بالتالي أبنية على هوامش المدن ازدادت اتساعاً يوماً بعد يوم فكونت (أحياءً قصديريةً) كالحةً لا تتمتع بأدنى درجة من الخدمات العامة. ويؤكد لي بو جمعة بأن الحال إذا استمر على هذه الشاكلة فإن طبقةً جديدة ستظهر على سطح الحياة الجزائرية مشابهةَ للطبقة الفقيرة التي كانت سائدة زمن الاستعمار وكان

يشير في أغلب أحاديثه إلى النسوة الجزائريات اللائـي فقدن ازواجـهن المجـاهدين في حـرب التحريـر. ومـدى المعانـاة التـي يعشـن فيـها مـع أسرهن. رغم أن الدولة تقدم لهن بعض الخدمات، ولكنها لا ترقى إلـى مستوى سد الفجوات الكبيرة بـين الـلازم للحيـاة، ومسـتويات المعيشـة السائدة، ويمثل ذلك بإبنةٍ شابةٍ له استشهد زوجـها. وهـي الآن تعيـش مع أطفالها الأربعة بمستوىً غير لائق بزوجةِ شهيد، فهي تعمل خادمـة في أحد الفنادق العامة لتستطيع متابعةً حياة طبيعية فقط لها ولأطفالها.

– 3 –

ولكن بو جمعة لم يكن متذمراً بدرجة كبـيرة، وبرأيـه. أنـها حالـةُ أية بلادٍ جديدةٍ تُمْسِكُ بزمام أمورها. وما علينا سوى الصبر والقناعة بما توجده الدولة. وسيكون الحال أحسن في وقت ما.

وفي كل مرة كان يلح في داخلي سؤال يحيرني وقد سـألته في سـاعة الصفاء : لماذا تكلف نفسك هذا المصروف المهدور على المشـروب أليسـت الأسرة أحق به؟ ولكنه بدلاً من الشرح كـان يـهز رأسـه الـوردي اللامـع وعيناه تنظران إليَّ كعيني نسر أُصْطيدَ لِتَوِّهِ: أشرب يا سـي محمـد كـي أنسـى هموماً متراكمة فوق رأسي. ومع ذلك فأنـا لا أهـرب مـن الله فـهو أعلم بعباده وهو القادر على الرحمة والمغفرة! !. كان يهرب من الاجابـة كمن يهرب من ساحة القتـال في حالـة الفـزع، عندمـا يجلـس بجـواري وعلى طـاولتي لا يتقـدم أحـد لمازحتـه، ولكنـه عندمـا يغـادرني فرحـاً مرتاحاً تجده يبحث عن الناس لإعادة فصول الملهاة التي لم تنتـه بعـد، لأن صديقه الحميم الممثل الكوميدي في مسرح البلـدة (العربـي) لـم يصـل

ليتم مشوار لهوه وسهره مع شلة من طبقته العاملة وكم كان السهر حُلْواً، وكم كانت الجلسة ممتعة عندما يصل ذلك المثل الذي لم أجد في الجزائر كلها رجلاً يحب المزاح والتسلية وتأليف النكات على الشخصيات البارزة وعلى الدولة عموماً مثله. كان المقهى بوجوده يصبح مسرحاً مليئاً بالأحداث والأشخاص الذين يقلد أدوارهم بإتقان ودون مواربة وخشية.

كان (بو جمعة الفرطاس) والعربي (نوعاً من الكوميديا التي تصل إلى حد تسفيه كل شيء في هذه المعممة من الحياة الفانية).

جميلة

- ١ -

جميلة فتاة جزائرية عاملة وعزباء. في الخامسة والعشرين من العمر بشرتها أقرب إلى سمرة القهوة، عيناها واسعتان مكحلتان دائماً، كعادة نسوة الجزائر. شعرها فاحمٌ كليل. تضج منه رائحة الحناء، ممتلئةَ الجسدِ بقامة أقرب إلى القصر منها إلى الطول، تتحدث الفرنسية بطلاقة أكثر من طلاقتها العربية. وتعمل في مدرسة (عبد الحميد بن باديس) في منتصف البلدة وفي قسمها الابتدائي. تلقت تعليماً ثانوياً جيداً. ومع ذلك فهي تتابع دورات تأهيل المعلمين بكل نشاط، وكنت وقتها أُدَرِّسْ الجغرافية وتاريخ الجزائر في هذه الدورات، وكانت جميلة إحدى المتدربات التي لديها القدرة على طرح أسئلة تحتاج إلى إجاباتٍ مُوَثَّقةٍ. فأتمهل الإجابة لتدون ما أقول، ثم نناقش الموضوع في المرة التالية إن وَجَدَتْ فيه اختلافاً بعد عودتها إلى المراجع اللازمة. وبذلك كانت هذه الفتاة تخلق جواً من العلم الذي لا يطال إليه الشك، وبدورها كانت تود أن تعرف شيئاً كثيراً. وتود إن توثق معلوماتها بطريقةٍ علمية سليمة. وبذلك أفادت بشكل غير مقصود غيرها من الدارسين. كانت

جميلة تحرك خيال الآخرين. وتستحث أفكارهم للبحث والاستقصاء، وقد أكدت لي بأنها استفادت كثيراً من لغتي العربية - التي هي أقرب إلى اللغة الوسطى -كما سمتها فهي قابلة للحفظ والفهم والتداول.

وفي نهاية حصص الدورة كانت جميلة ترافقني، متأبطةً حقيبة كتبها وأدواتها الخاصة بلباس عصري يبرز مفاتنها، غير هيّابةٍ من نظرات الشارع والمقهى والرصيف، تحدثني عن نفسها وأهلها وطموحات المستقبل، و عادات أهل الجزائر المتصفين بالحذر الشديد من الأغراب، لأن تجربتهم مع الفرنسيين علمتهم ألا يأتمنوا أحداً -حتى لو كان جزائريا- !؟ وتضيف شارحة أن هذه العادة ستضمحل في المستقبل لأن الوطن عاد لأهله. فالأغراب ليس مكانهم هنا، ولكنها تستدرك ضاحكةً ماعدا إخواننا في المشرق العربي طبعاً؟!.

حقاً كان يتملكني شيئاً من الخجل، والحيرة، والخوف أحياناً، من هذا السلوك الذي ربما يعتبره بعض الناس تحدياً لمشاعرهم الشخصية والاجتماعية، أو خروجاً عن منطق الأخلاق الصالحة التي يؤمنون بها. ومع ذلك فقد كانت سيرتي العملية والمسلكية عند معظم السكان هي التي تدع الناس يبتلعون ألسنتهم. ويأكلون أفكارهم الشريرة وأحاسيسهم المزيفة.

لم يكن منزلها بعيداً عن منزلي، ولا يفصله سوى شارع واحد، يدور حول نصب الجندي المجهول، حيث المكتبة المفضلة لديَّ والتي أبتاعُ منها بضاعتي من الصحف المصرية -إن وجدت- وبعض المجلات والكتب العربية التي بدأت تصدر في الجزائر، وسلسلة كتب الجيب الفرنسية، السهلة التناول، والقراءة والثمن. وفي كثير من المرات أصادفها هناك فتدعوني لزيارة منزلها والتعرف على أسرتها، فمن النادر أن تجد امرأة بهذه الفطرة النبيلة، وسهولة المعاشرة، وجرأة الحديث، مع اتزان

واضح في الشخصية في البلدات الجزائرية. وحقاً إن الثقافة و المعرفة تجبر الإنسان المتحضر إلى التدفق نحو المجتمع والبحث عن الحقائق والخرافات والعادات. وتعلمه أن يؤسس قناعاته الشخصية على ركائز من الحقائق الموضوعية للوجود كلّه. ونجعل الآخرين بالتالي يحاولون بقدرهم الشخصي. أن يتمكنوا يوماً من اكتساب ملكة البحث عن الطريق المقبول في الحياة العامة. وإلا فإن المجتمع سيبقى منحازاً لطرق الذكور متناسيا القيم الكبرى التي تحملها المرأة في عقلها وقلبها. وسوف لا يعدها بالتالي مخلوقة إلا للجنس والتكاثر والمنزل فقط. وكما قالت لي جميلة يوما : الأخلاق لا تنهار من الخارج بل الأخلاق تتحطم من الداخل. فنحن بحاجة لصقل الداخل لتنطبع صورة الذات من الخارج وتظهر على سجيتها وحقيقتها. وكان كلامها في محله من السياق العام الذي رأيته في حالة المرأة الجزائرية.

قلت لها مرة : إنك لا تذكريني (بجميلة بوحيرد) المناضلة. بل (بجميلة) الكاتب القرغيزي (جنكيز ايتماتوف) التي هربت مع شخص أحبته رغم وجود زوجها. الذي طال غيابه في جبهة القتال الروسية. لم تحبه لأنه جميل الشكل. بل أحبت إعادة تشكيل حياتها الداخلية التي افتقدتها أمام قساوة العادات والتقاليد الصلبة التي تعد احيانا عقبة كأداء في تقرير مصير البشر. وها أنت تريدين إعادة تشكيل الحياة التي خمدت بضعة قرون من الزمن.

كان اللقاء في دارها مع والدتها الموظفة في مصرف البلدة، ووالدها الذي يملك متجرا لبيع الأقمشة. لقاءً اسرياً ودوداً. وفي هذا اللقاء أدلت الأم بدلوها في الحديث مقتنعة بعمق التغيرات التي ستحدث للمرأة في المسيرة الجزائرية. ومؤكدة أن مرحلة النضال القاسية المضنية والتي كانت فيها المرأة الجزائرية في حالة من التعبئة النفسية القلقة والمتعالية

فوق الأحداث المأساوية. وقتها لم تكن تفكر بالحياة المعاصرة وتدفقها. قدر تفكيرها في قضية انتصار أبنائها وحرية وطنها. ولكن المرحلة الحاضرة تستحق من الجميع كما في السابق المشاركة في بناء الوطن. والمرأة في ذلك ذراع قوية تستطيع بإمكاناتها العقلية والروحية من دفع قوة البناء إلى الأمام. ثم عَمّق والدُها الحديث متطرقاً إلى دوْر العلم في إقامة المجتمعات المعاصرة المحدثة. معتبراً أنه الطريق الوحيد والأسلم لتغيير الكثير من المفاهيم الاجتماعية. التي كانت سائدةً منذ زمن سحيق في القدم.ثم ساحبا كلامه على التجارة الحديثة التي لم تعد فقط تبادلا سلعيا فحسب. وإنما هي علمٌ قائم بذاته يعتمد على دراسة السوق. وكميات الإنتاج. وكفاءة العمل.كان الحديث مشوباً بحرارة المعرفة والتطلع إلى مستقبل الجزائر من والدين يعرفان مكانهما في المجتمع الجديد. وكان جو المنزل مشبعاً بهذه الرائحة التي يضفي عليها مثل هؤلاء الأشخاص نوراً خاصاً.

قدمت لنا جميلة الشاي الأخضر الساخن مع الكعك التقليدي لأهل الجزائر. شربناه سويا بدفء أسري لا ينسى. وكانت جميلة بحركاتها وأحاديثها سيدة البيت رغم غياب إخوتها الذكور للدراسة في فرنسا وأسبانيا.

استأذنت للانصراف فشد والد جميلة على يدي متمنياً أن أبقى على صلة بهم كلما سمحت الظروف بذلك.ولاحقتني عبارات الدعاء حتى باب الخروج.

وقد أكد لي هذا اللقاء بأن جميلة لن تكون (جميلة) ايتماتوف. بل (جميلة قالمة). التي تود أن تغير مجتمع بلدتها من الداخل. وليس بالهروب من حقائق العصر ومتغيراته التي تقطع الأنفاس.

بن بيلا يسقط في قالمة

– 1 –

لم تكتفي قالمة بأنها هزتني في الأعماق كشخص غريب عن وطنه،وأعادت صياغة الكثير من المفاهيم والقيم التي كنت أومن بها،وأجبرتني على التفكير مجددا بالنظريات التي كانت مسيطرة على عقلي.لم تكتفي بكل ذلك بل أعادت صياغة الفكر الاقتصادي.والاجتماعي على مستوى الجزائر كلها ولربما فكرت بذلك أنها تتجه نحو الأفضل والأجدى. فالتغير من سمات العصر. والتحديث من عناصر بعث الحياة من جديد.

– 2 –

قالمة في بداية شهر ماي (أيار) 1965 ظهرت كأنها استيقظت من رُقادها، وبدت تستعد لحدثٍ كبيرٍ في حياتها. المسرح الروماني يُعمل علي تنظيفه وتزو يقه وإنارتـه. عشراتٌ من العمال والفنيين والمهندسين،المسرح البلدي الصغير صارَ خليةً من النحل يتجمع في داخله وخارجه مئاتٌ من الطلبة والطالبات.أحيانا تستمع إلى الموسيقا يرافقها

كورالُ من الفتية والفتيات. وأحيانا أخرى مدير المسرح يدرب الممثلين بعصبيةٍ واضحةٍ مستمراً على هذا المنوال حتى ساعة متأخرة من الليل، واجهات الدور والمحلات كلها تضج بالعمل على السلالم والسقالات الخشبية المنصوبة. والطراشون يتفننون في التزويق باللونين الأبيض للواجهات والأخضر للنوافذ والأبواب. وفي كل يوم، كانت ورشات النظافة التابعة للبلدية تغسل البلدة من كل أطرافها بالماء. حتى الأشجار غسلت بالمياه فبان الاخضرار داكناً ولامعاً. ومقابر الشهداء أعيد طلي جدرانها وشواهدها باللون الأبيض الناصع. واقتلعت الأعشاب من بين القبور. ليبقى الشهداء ظاهرين على وفائهم وإخلاصهم القديم. والمدارس تلقت تعليمات من الأكاديمية في عناية. للعناية بالفصول وبلباس الأطفال في كافة مراحل التعليم وبنظافتهم أيضاً. وأجهزة الحزب ومنتسبيه استنفرت بكافة فروعها وبدأت تعلق اليافطات في الطرقات العامة و الساحات ومفارق الطرق. وهكذا بدت البلدة كأنها تتهيأ لحفل تاريخي على قدر من الأهمية.كان الحدث عظيماً يستحق مثل هذا البذخ المادي والعناء الجسدي فالثامن من شهر (ماي) تحتفل (قالمة) و(سطيف) و(خرّاطة) بانتفاضة العام 1945 المشهورة. التي راح ضحيتها آلاف الشهداء، لقد جرى في قالمة بحر من دماء الأبرياء، ومازال شهود العيان أحياء لم يموتوا بعد.يصفون حفلة الموت التي دامت أياما بلياليها.وهم يدفنون شهداءهم أفراداً وجماعات. لذلك قررت الحكومة الجزائرية تكريم هذه البلدة المناضلة ووفي مقدمتها رئيس جمهوريتها. بالاحتفال بهذه المناسبة في وسط بلدة المناضلين والشهداء.

— 3 —

نُصِبَتْ منصة الشرف في منتصف الطريق العام العريض ذي الاتجاهين. ومن الصباح الباكر بدأت طلائع المدارس، ومؤسسات الحزب ومنتسبيه. ومئات الألوف من الجماهير تحتشد في هذا الطريق، وفي الطرق الجانبية والفرعية التي تصل إليه. والكل يحمل شيئاً يعبر به لأول رئيس جزائري يدخل المدينة منذ مائة وأربعون سنة، الأعلام والرايات. والصور. حتى الخيالة اصطفت بين الجماهير.

وها هي أصوات أبواق الدرجات النارية تخترق الأسماع لتقف في مدخل البلدة ولكن الركب لم يصل لأن الرئيس – كما عرفت أراد ان يلقي السلام على والد وزير دفاعه (الهواري بو مدين) في قريته (هليوبوليس) وفي داره بالذات التي لا تبعد عن قالمة بضع كيلو مترات احتراماً لشيخوخته واحتراماً لصديقه (بو مدين). وبعدما دخلت سيارة الرئيس السوداء اللون المكشوفة مدخل البلدة اجتاحت الجماهير موجة من العواطف الجياشة. اضطر الرئيس في كثير من الأحيان التوقف لمصافحة الناس وتحيتهم. كان باسماً وحاراً في لقاء الناس. وذو طلعةٍ تلفت الأنظار فلم يزل شاباً مفعماً بالحيوية والنشاط وذو طاقة لا تعرف التعب والكلل.

وعند وصوله مقر قيادة الحزب. استقبل من قبل المسئولين هناك، وارتاح قليلا في مقر الحزب ثم زار مقابر الشهداء. وبعدها مباشرة إلى منصة الشرف. مصاحباً أركان الدولة كلها ما عدا (بومدين) الذي كان في زيارةِ الاتحاد السوفيتي.

كنا نحن معلمي المشرق قريبين جداً من المنصة. فأبى الرئيس إلاّ مصافحتنا فرداً فرداً مردداً كلمات الترحيب، بعينين ضاحكتين ناصعتين. أخذني مسئول الحزب وأجلسني بجانب أحد الوزراء وأظنه

وزيراً للشباب والرياضة الذي بقي صديقاً لي لفترة طويلة - لأنني اعرفه من عنابة قبل أن يكون وزيراً -وقد زار سورية عدة مرات.

قدم مسئول الحزب في قالة الرئيس بكلمة قصيرة معبرة، بعدها نهض بن بيلا إلى الميكروفون فاجتاحت الجماهير موجات من الهياج الجماعي. ثم بدأ بخطابه مرتجلاً. تحدث عن الثورات الجزائرية كلها وتحدث عن مجاهدي قالة بنبرة حزينة.

كانت لديه قدرة التأثير على مستمعيه وكان يستنهض الهمم والمشاعر فتحسب أن الدنيا ترعد وسينزل المطر كان الخطاب مشبعاً بالعواطف وكثيراً من الايمان بالوفاء بعهد الشهداء. وقليلاً من الحديث عن المهام الاقتصادية والحياتية للشعب. لم تَشْعُر الجماهير بحرارة الشمس بل تدافع أهالي المناطق المجاورة تِباعاً مُنْصَبّينَ فوق كتلة البشر التي ليس لها حدود.

أنهى الرئيس كلمته بشكر الجماهير على حسن الاستقبال والضيافة ثم طلب من الجميع خوفاً عليهم من الحر أن يلتقوا مساءاً في المسرح الروماني. عُزف النشيدُ الوطني بعد أن خيم الصمت على الجمع الهائل. استقل بعدها الرئيس وصحبة السيارات إلى ضيافة الحزب حتى المساء.

بومدين ابن قالة لم يكن في الصورة التي رسمها الناس لرئيسه. كان خارج الاطار يغرق في بحر من الأفكار لا تمكن قراءة سطورها ولا كلماتها لأن طبيعته العسكرية الصارمة تقف حائلاً دون البوح بذلك.

- 4 -

كان مساءاً لا يُمحى من الذاكرة في المدرج الروماني (قيصر) لم يجلس على منصة الشرف العليا إنما فَضَّلَ أن يكون مع صحبه في الصف الأول أمام المنصة مباشرة. والبشر من حوله بعشرات الألوف.

كان الحفل بسيطاً كبساطة البلدة. مدرس الموسيقى (المصري) بدأ الحفل بأغنية كورالية متواضعة أداها أبناء وبنات المدارس، كانت ناجحة، كلماتها مفعمة بالوطنية والعواطف النبيلة وفي ختامها تقدم الرئيس وصافح الأستاذ المصري بكل مودة وحب.

ثم أدت فرقة المسرح البلدي مشهداً تمثيلياً لمدة نصف ساعة أشاع الصمت على المسرح كله. وقد أجاد مدير المسرح بصوته الشبيه (بيوسف وهبي) كان الإلقاء والحوار والتمثيل غاية في الإجادة فنال عاصفة من التصفيق والإعجاب. بعدها غنت مطربة جزائرية مُسِنَّةٌ تغطي وجهها بمنديل شفاف عدة أغنيات جزائرية لها مذاق وطعم البيئة الشرقية الجزائرية. ثم تلاها عدة مطربين أضفوا على المناسبة جواً احتفالياً مشبعاً بالزهو والفرح.

لم يستطع الرئيس وصحبه مغادرة البلدة إلى مطار عنابة للرجوع إلى العاصمة إلا بصعوبة شديدة فقد سدت الجماهير كافة الطرقات والمنافذ الخارجة من البلدة وأخيراً غادر الركب. ولم تغادر الجماهير البلدة لأنها فضلت البقاء في المقاهي والحانات حتى الصباح.

كانت قالمة بطلة المسرحية بلا منازع صفق لها أهلها وزفوا ركب عرسها المشهود بكثير من الجهد والعناء والفرح العميق.

بعد أسبوعين فقط من هذه الحفلة الصاخبة، وُضِعَتِ الأصفادُ بيدي الرئيس بن بيلا مغادراً قصر الشعب في الجزائر العاصمة إلى السجن

مباشرة مع الكثير من أعضاء اللجنة المركزية للحزب وبعض الوزراء واستلم صديقه ووزير دفاعه سدة السلطة.

— 5 —

بانقلاب عسكري اتخذ طابعاً سلمياً إلا من بعض التظاهرات والادانات في المدن الكبرى. قُمعتْ بصورةٍ عنيفة. ثم استتب الأمن في الربوع الجزائرية خلال عشرة أيام. ويومها برر (بومدين) انقلابه بأنه عملٌ ضروري لتصحيح الأوضاع. والتي لم يعد الشعب يرضى بها. وانحرافٍ واضحٍ عن الميثاق الوطني ومبادئ حزب جبهة التحرير؟!.

وأجرى الرئيس الجديد تغيرات جذرية في مجال الأشخاص والتطلعات المستقبلية للجزائر من كافة نواحيها وخاصة الاقتصادية منها.

ترك الجزائر وقتها الكثير من الوجوه السياسية المعروفة مفضلين الابتعاد عن الجو الجديد والعمل الداخلي. وشكلوا معارضة خارج الوطن منتشرين في بعض عواصم البلدان الأوربية القريبة.

وحسب رأي (بومدين) فإنه يود أن يرى الجزائر أكثر التزاماً بالقضايا العربية. وأكثر ابتعاداً عن الدائرة الفرنسية وأكثر قرباً من المعسكر الاشتراكي. مع استقلاليةٍ واضحةٍ وروح صارمة لا تعرف المهادنة. إن تكوين (بومدين) العقائدي وهو خريج المدارس الإسلامية والعربية الشرقية وثوريته الواضحة عندما كان المسئول العسكري الأول لجيش الجبهة في تونس. أدت إلى خلق جو من الجدية والصرامة المتطرفة في العمل ورغم تلك الصرامة الواضحة فإنه لم يستطع أن يؤثر على شخصيةٍ عسكرية وحيدة كانت قابعة في غربي الجزائر والجيش بيدها إنه (الشاذلي بن جديد) ابن ولاية عنابة التي ينتمي إليها

بومدين. وقد استطاع بن جديد بعد وفاة (بومديـن) أن يكـون علـى رأس السلطة لمدة طويلة من الزمن لم يستوعب خلالها التحولات الجذرية التي حدثت في المجتمع الجزائري وبالتـالي لـم يستطع كبح جماح القادة والوزراء الذين غرقوا في الفساد المادي حتـى نهايتـه. مما خلـق حالـة اقتصادية منهارة تبعتها بالضرورة حالـة اجتماعيـة في غايـة البشـاعة، استطاعت خلالها القوى الدينية - المتطرفة والمعتدلة- على حد سواء أن تقلب موازين القوى الشعبية المتأثرة بذلك لصالحها.

ورغم المبادئ الديمقراطية الهشة التـي لـم يمارسـها النظـام جعلتـه يقف حاجزاً أمام الموجة السياسية الجديدة. مما خلق هوة بـين السـلطة وتطلعات الناس وبدأت عمليات الترقيع السياسي صعدت خلالها وجـوهٌ جديدةٌ وإصرارٌ جديدٌ وحربٌ أهليةٌ واقتتال بـين الأخـوة أقسـى مـن أيـة حرب عرفتها الجزائر في تاريخها- ولن تعرف مثيلاً لها - هذا إذا بقـي التراب الجزائري على حاله متجانساً دون تطلعات أثنية وعرقيـة تظهر على الساحة.

- 5 -

والجزائر بطبيعة الحال لم تشذ عن قواعد اللعبة السياسـية السـائدة في العالم الثالث فتجربة السلطة من الداخل عمل يختلف أشد الاختلاف عن المماحكات السياسية والتنظير المثالي بعيداً عن ميدان العمل التنفيذي ضمن المؤسسات الرسمية للدولة.

والعالم الثالث ليس بحاجة لجعله مختـبراً لصلاحيـات السياسـات وعدم صلاحياتها بقدر ما هو بحاجة إلى تعميق ثقافته الوطنية. ووحـدة ترابه والمحافظة عليه. وإشراك كافة التيارات الفكرية في العمل السياسي لتبقى الدولة في حالة توازن مستمر. تستقي مبادئ عملها من خصائصـها

الذاتية ومن جغرافية مكانها ومن مصالح شعبها وقدرتها على تصحيح أخطاء مسارها الاقتصادي والسياسي الذي لا بد من الوقوع فيه. فتجارب الأمم لم تصنع على الورق فقط. وكذلك الأخطاء وصنعتها ثم وضعت نفسها في المسار الصحيح.

– 6 –

هذه هي قالمة التي عرفتها وعرفت بعض ناسها وأحببتها من خلالهم. هي قالمة التي تمشي دون عصىً للتوازن. على حبلٍ مشدودٍ بين الغرب وقيمه وحضارته الملوءة بالمصلحة والمادة. وبين الشرق وقيمه وحضارته الغابرة المملوءة بالروح والعقيدة.

(قالمة) هذه معلقة بين غياب الايمان وحضوره في كل لحظة من لحظات العمر.

(قالمة) التي حكمت الجزائر من خلال واحد من أبنائها. طموحاته أكبر بكثير من واقع بلده. لكنه واحد من الزعماء الذين بقيت صفحة حياتهم الشخصية بيضاء لا غبار عليها.

تُرِكَتْ قالمة غارقة في تناقضاتها تعيش على أمجادها وتطلعات أبنائها نحو أفق بعيد لا يمكن إدراكه إلا بشق الأنفس. ولكني لا أعرف حتى الآن كيف استطاعت أن تبقى سائرة على الحبل المشدود فأنا أنظر من بعيد ولا اعرف مقدار نجاحها أو سقوطها. ولكن المدن العظيمة تصنع تاريخها بنفسها حتى لو سقطت. فسكان قالمة ومثقفوها عادة لا يلتفتون إلى الوراء. عيونهم ترنو إلى أبعد من المكان الضيق والبلدة الصغيرة التي تضمهم.

إنهم يودون – حسبما أفكر– الدخول للقرن القادم بروح أكثر جلاء من الروح السائدة.

الجزائر لا تودع السلاح

– 1 –

في العَشْر الأخير من شهر أيار (ماي) لعام 1967، باعتِ الشركاتُ الأجنبيةُ أجهزة الترانزيستور النّقال، والأجهزة المسيّرة بالكهرباء أكثر مما باعته خلال عقد من الزمان. فقد حمل واحدٌ من كل ثلاثة أشخاص في العالم العربي، جهازاً لمتابعة حرب المواجهة الثالثة بين العرب واليهود، ابتدأت بحروبٍ كلاميةٍ استفرازيةٍ من إسرائيل ضد مصر وقائدها ناصر، واتهمته بتحريض سوريا ومعها القوى المسلحة الفلسطينية ضد إسرائيل، والقيام بأعمال تخريبيةٍ تهدد السلام في الشرق الأوسط. تبعها استنفارٌ كاملٌ لقواتها المسلحة، ووضعها في حالةٍ قتاليةٍ على الجبهتين السورية والمصرية. كانت القاهرة في ذلك الوقت هي المركز الوحيد الذي يؤثر على سياسات الحكومات في الشرق الأوسط رغم الانتصارات الفذّة في فترة الخمسينات، والانكسارات المثبطة للعزائم في بداية الستينات (انفصال الوحدة السورية المصرية، وصعوبة وضع القوات المصرية القتالي في النزاع اليمني).

كان (ناصر) يريـد إعـادة الثقـة – التـي تنـاقصت – لـدى الشـعب العربي بقدرة مصر على قيادة العرب في صراعـهم مـع العـدو الأساسـي. وصراعـهم مـع القـوى الداخليـة المناهضـة للمبـادئ المصريـة السياسـية والاقتصادية. ومـع القـوى الخارجيـة التـي تريـد هزيمـة نـاصر هزيمـةً ساحقة. أو إرجاعه إلى موقعه في مصر. دون تصدير للمبادئ التي يؤمن بها ولجم اندفاعه.

فرّداً على الاستنفار الاسرائيلي أمر ناصر بـإغلاق مضـائق (تـيران) الحيوية لإسرائيل في وجه سفنها. وسفن الـدول الأخـرى المتجهـة نحـو (إيلات). وطلب من الامين العام للأمم المتحـدة. وكـان في ذلـك الوقـت (أوثانت البورمي) سحب القوات الدولية من صحراء سـيناء التـي كـانت تفصل بين جيشي البلدين بعد حرب السويس لعام 1956/ الـذي خـرج منها ناصر بنصرٍ سياسـيٍ ودوليٍ كبيرين رغم الخســائر البشرية والماديـة التي مُني بها من قبل فرنسا وانكلترا واسرائيل.

ولم تستطع الوساطات الدولية. ولا النصـائح مـن حُلفـاء كـلا طـرفي النزاع. من نزع فتيل الحرب القابل للانفجـار. فتقـدم الجيـش المصـري بكافة أسلحته. وتمركز في مواقع القتال المحتملة في سـيناء. وكـذا علـى الجبهة السورية.وهكذا اكتملت كل عناصر المواجهـة بـين الأطـراف ولـم يتبقَ سوى ساعة الصفر.استنفرت أجهزة الإعلام المصرية. وهي المشهورة بنبرتها العالية. والمسموعة في أرجاء الوطن العربي، وتهيأ الناس لانتصار قادمٍ وأكيد. وتتابعت زيارات ناصر إلى جهات القتال، وأذيعت خطابته المتزنة أحياناً والملتهبة أحياناً أخرى. مُذَكّراً بانتصاراتٍ تاريخيةٍ للعرب على أعدائهم. كــل هـذه الأحـداث تجـري في المشـرق. ونحـن المعلمـين

الفلسطينيين نترك أعمالنا في المدراس – التي لم تنته بعد– ويسمح لنا بالمغادرة بعد أن وجّه مكتب منظمة التحرير في العاصمة الجزائر نداءً يدعو فيه للالتحاق بدورةٍ عسكريةٍ قتاليةٍ مكثفةٍ بهدف إرسالنا إلى جبهات القتال التي لا بد واقعة.

– 2 –

في تلك الفترة وخلال وجودي في (عنابة) انتظاراً لأمر الالتحاق بالمعسكر. كان الجزائريون يتابعون الأخبار بعقول حذرةٍ وأحاسيس متناقضة. وكانت المصادر التي يتلقون منها المعلومات أوروبيةً وثيقة الصلة باسرائيل وتعرف قدراتها العالمية (كإذاعة فرنسا. وأوروبا رقم –1 – واللوكسمبورغ) والأحاديث الدائرة بين الناس كانت مشبعةً بروحٍ متشائمة في اغلب الأحيان وإن لم تكن كذلك فإنها حذرةً. ترى أن الصراع في النهاية ومهما كانت المقدمات سيكون لصالح العرب إذا استطاعوا إطالة الصراع. وإبقاء حالة الحرب قائمةً لاستنزاف القدرات العسكرية لاسرائيل. التي لا تستطيع متابعة هذا النوع من القتال. لعوامل عديدة تتعلق بالجغرافيا. والسكان. وقدرة الاحتمال. مُسْقِطينَ رغم ذلك القوى الكبرى المناصرة لها. والتي يمكنها التدخل في ساحة الصراع إذا اقتضت الضرورة لذلك. فالامريكيين استنفروا جيوشهم واساطيلهم أكثر من الاسرائيليين أنفسهم. وكان الناس يتناسون هذه الحقيقة من العلاقة الاستراتيجية الغير مكتوبة والغير المعلنة بين الطرفين. فمساعدة اسرائيل في وقت السلم موضوعٌ غير قابلٍ للنقاش على مستوى الرؤساء الامريكيين. فما بالك أثناء الحرب واسرائيلً قد تشرف على الانهيار.

القليل من الأخوة الجزائريين يتابعون الإذاعات العربية التي تصل إليهم كصوت العرب والقاهرة وتونس. والتي كانت مفعمةً بالعواطف والمقابلات التي تتصف بصبغةٍ بلاغيةٍ وإنشائيةٍ أكثر منها شرحاً موضوعياً لحالة الحرب ودور الشعب في ذلك.

ودور المؤسسات الحكومية. وكيفية إنشاء جيشٍ رديفٍ للجيش النظامي المقاتل على الجبهة. وما هي مهامه المدنية والعسكرية والقتالية إن اقتضت الضرورة لذلك في الجبهة الداخلية.

والكثير من هؤلاء الإخوة أرادوا الإنضمام إلى صفوف المقاتلين – ولو سيراً على الأقدام – حتى حدود المعارك. وكنت متأكداً من صدق مشاعرهم. فالكتائب الجزائرية التي قاتلت في جبهة القتال يومها تستحق أعظم الأوسمة نبلاً في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي لأن أكثرهم استشهد هناك ولم يعد. فهذه طريقتهم في فهم الجهاد.

– ٦ –

في الرابع من حزيران بدت عنابة أكثر ازدحاماً من ذي قبل. وامتلأت الأماكن العامة بالروّاد من كافة أنحاء الولاية. الفلاحون بزيّهم المميز. وعمائمهم المشدودة على الرؤوس. والعمال الذين تركوا أعمالهم مبكراً كأنهم في إجازةٍ مفتوحة. لقد أصبح الحدث جماعياً. والكل يدير رأسه نحو المشرق العربي. وأذناه مفتوحتان على الغرب ماذا يقول؟ وماذا سيفعل؟! ووجوهٌ جديدةٌ تدخل المدينة آتيةً من تونس وليبيا وبعض الدول الأوروبية الشرقية.

إنهم الطلبة الجامعيون الفلسطينيون الذين سمعوا نداء المنظمة في الجزائر العاصمة. فتركوا دراستهم. وامتحاناتهم على الأبواب. والتحقوا بأقرب نقطةٍ تستطيع ايصالهم للعاصمة.

كنت ولفيفاً من أصدقائي الجزائريين العارفين بمجريات السياسة، والمتابعين للأحداث العالمية. نسير حتى ساعة متأخرةٍ من الليل. ودائرة الضوء مسلطة على أهمية هذه المعركة. فكل البيانات والدلائل تشير على وقوعها في آية ساعةٍ أو أية لحظة فلا تراجع من الطرفين، وقد عبّر بعض الاصدقاء عن تخوّفه من نتيجة الحرب إذا قامت. فالمصريون ما زال قسمٌ كبيرٌ من جيشهم على الجبهة اليمنية. وهم يقاتلون هناك قبائل لديها القدرة على الانتقال وتشتيت الهجمات دون مجابهةٍ فعلية مع جيش نظامي.

بينما هنا فالتجربة مختلفة. تعتمد على استراتيجيةٍ عسكريةٍ في غاية الدقة. نظراً لحداثة الاجهزة القتالية التي ستزج بالمعركة، والتكتيكات في الساحة العسكرية نفسها. علماً بأن الإسرائيلين كانوا قد قاتلوا عام 1956 على نفس أرض المعركة. فهم خبراء في مسالكها ومواقعها الهامة. بل أضاف بعضهم بأن الصواريخ البعيدة المدى والتي طوّرت في مصر على يد العلماء الألمان (كالناصر. والظافر. والقاهر) لا يمكن المجازفة باستخدامها ضد المدن الإسرائيلية لأن الطرف المصري يعرف ماذا تعني القاهرة بالنسبة للإسرائيليين كهدفٍ محقق تدمره الأسلحة الاستراتيجية التي تملكها. وكانت قد بدأت بتصنيعها في مطلع الخمسينيات.

ولكن عرب المشرق أبدوا تفاؤلا أكثر من المعقول. كانوا يظنون بأن نتيجة الحرب ستكون لصالحهم لأن وسائل إعلامهم كانت مصدر قناعاتهم. ولم يعتد أحدٌ منهم الشك في مصداقية هذه الوسائل، لأنها كانت قد عبأتهم عواطف مبالغاً فيها، وضخّمت الذات لديهم حتى باتوا ينتظرون دخول فلسطين. ورفع الأعلام فوق القدس، وسهولة الانتصار في معركةٍ طال انتظارها.

- 4 -

في الخامس من حزيران كنت كمن يقع بين الكفر والإيمان. يصلنا صوت (احمد سعيد) وغيره من المذيعيين العرب. وكأن نصف الجيش الاسرائيلي قد تحطم أو أُبيد. مبيناً أعداد الطائرات التي أسقطت وعدد الدبابات التي تحطمت أو أعطبت. والمواقع العسكرية التي احتلت في الجانب الاسرائيلي. مع القتلى والجرحى والأسرى. وتتالى البيانات في تضخيم الأعداد حتى بدأنا نشك بسلامتها. وفي الجانب الآخر يصلنا صوت إذاعة أوروبا رقم -1- وإذاعة لندن العربية والإنكليزية وغيرها مشيرةً إلى الحالة التي تسير عليها الحرب دون ضجيجٍ مفتعلٍ مع استضافة محللين عسكريين غربيين ذوي خبرةٍ في المجال العسكري. ونقلٍ مباشرٍ وحيٍ ومن مراسليها في ساحة المعركة. وكلها تؤكد الحقيقة المرة بأن الجيش المصري فقد السيطرة على ميدان المعركة بعد أن قصفت كافة مطاراته. ودمرت أكثر الطائرات وهي جاثمةً على الأرض. وبذلك أخرج العسكريون الاسرائيليون أهم عنصر في القدرة القتالية للجيش ومتابعة الحرب. لقد أصبح كل شيءٍ مكشوفاً في ساحة المعركة وفي الساعات الاولى من اليوم الأول للحرب.

لا بد أن دول أوروبا وأمريكا - التي تملك وسائل تقنيةٍ عالية - جعلت من الحرب الاسرائيلية العربية تسليةً لرواد شاشة التلفاز في البيوت.

ونحن في عنابة ندور على أنفسنا بين الحقيقة المرعبة. والخيال المطمئن. وبين قتل اليقين بالشك.

كان لا بد من الانتظار قليلاً فساحة القتال تحمل مفاجآت قد تحدث وتقلب موازين القوى. والطرف الاسرائيلي لا يملك القدرة البشرية لاحتلال مدنٍ عربيةٍ. وقد زاد دخول الأردن إلى جانب مصر وسوريا في الحرب اندفاعنا العاطفي فالجيش الأردني هو الأقرب لقلب اسرائيل. والجيش السوري هو الاقرب لشمال اسرائيل. كل ساعةٍ تعني ونحن نقلب المذياع على كافة محطات العالم لتزيد تحطيم أعصابنا، وتصيبنا بالقلق والتوتر. فنطلب المزيد من القهوة والإكثار من التدخين. وقد شاهدت الكثير من زملائي الفلسطينين من قطاع غزة والضفة الغربية وهمن يذرفون الدموع بجانب أجهزة الإرسال. وقد وصل الغضب بأحدهم بأن حطم المذياع بقدميه أمام مرأى من أهل عنابه حتى أخذ بعضهم يواسيه ويشعل له لفافة تبغٍ لتهدأ أعصابه التي قتلتها الحقائق الصاعقة.

— 5 —

كنت قد سلمت مفتاح غرفتي في (قالمة) لجارةٍ لي. أحترم سلوكها وأمانتها. ودعتها دونما أملٍ باللقاء. وأوصيتها خيراً بكتبي ودفاتري فقط. وفي السادس من حزيران قررت ألاّ أستمع للاذاعات حتى نهاية الحرب. واتجهت صباحاً مع الفلسطينيين المتواجدين إلى محطة السكة

الحديدية بإتجاه العاصمة. الطريق طويلة. ولم تعد تهمني الطبيعة الجميلة التي أركب القطارات من أجلها. ولكن رأسي لم يزل ممتلئاً بكافة الاحتمالات التي ستحدث في الشرق الأوسط. وتذكرت الاتحاد السوفيتي الصديق مع كتلته الشرقية. وكيف يمكن أن يكون الموقف الدولي إزاء هزيمة اصدقائه. وهزيمة سلاحه. لا بد له من دور قد يكون فعالاً! وانطبعت في ذاكرتي صورة 1956 حين هدَّد باستخدام القوة ضد الدول التي قاتلت مصر. واضطرت بعدها للانسحاب من الأراضي الذي احتلتها.

بقي الآخرون في المقطورات مستغرقين في حوارات لا طائل تحتها، حوارات تتخللها موجاتٌ من الغضب والشتائم واللّعن. كنا نتمنى أن نكون قريبين من ساحة المعركة. فالروح الجماعية للناس تتوحد في النصر أو الهزيمة. رغم اختلاف قطبي المعادلة بدرجةٍ كبيرةٍ؟.

وكثيرون منا لم يتذوقوا الطعام خلال السفرة المجهدة. مكتفين بكؤوس القهوة السوداء. والشاي مع التدخين الذي لا يتوقف؟!.

وصلنا العاصمة قبل مغيب الشمس بقليل. ضمن جوٍّ عامٍ كئيب. يدعو للانكفاء على الذات. وأخذت مع أربعة من فلسطينيي قطاع غزة سيارةَ عامة للأجرة تنقلنا إلى مدينة (البليدة) جنوبي العاصمة بحوالي ستين كيلو مترا. مخترقين جبال الأطلس التلّي. كان السائق الجزائري غاضباً على العرب كافة. لأنه لم يستطع احتمال دخول الجيش الاسرائيلي. إلى مدن الضفة الغربية واحتلالها واحدةً بعد الأخرى، والاقتراب من القدس الشريف. وكان قد سمع الخبر من إذاعتي لندن

وأوروبا رقم 1. وكان يؤكد بأننا نحن فقط الذين سمحنا لليهود بعد ألفي سنةٍ من تحقيق أحلامهم. بسبب فرقتنا واقتتالنـا. وتأخرنـا في الدخـول إلى عالم اليوم. الذي يؤمن بالعقل والعلم والتنظيم. ونحن نجتر ماضينا وشجاعة آبائنا دون جعلهم مثالا حقيقياً لنا. شعرت بأن السائق يشتمني ويهزني. ويعيد تشكيل وجداني وكياني. وتمنيت أن يكون وصولنا إلـى (البليدة) قريباً قبل أن يفقد كلٌ منّا أعصابه واتزانـه ويقـدم علـى أعمـالٍ تناقض احترام الذّات.

وصلنا كلية تدريب صف الضباط على تلِة مرتفعةِ بعيدةِ عن المدينة، ودخلنا المعسكر برفقة ضابط جزائري صارم التقـاطيع. متجـهم الوجـه، طويل القامة. وبعدها سُجّلت أسـماءنا ووزعـت علينـا المـهمات اللازمـة (اللباس. السلاح. وأعتدةٍ أخرى) مــن قبـل رقيـب مصـري عرفنـاه مـن لهجته المميزة! يعمل مدرباً في الكلية، ثمن نقلنا للمبيت في أحد المهاجع الواسعة. بعد أن عينت مفرزتنا واسم مدربنا، على أن نلتقـي في سـاحة المعسكر الخامسة صباحاً لبدء التدريبات القتالية)!

كان المهجع مضاء وخليـةً مـن النحـل بداخلـه. نصـف الأعـداد في المهاجع تقريباً من الطلبة الدّارسين في أوربا. ونصفها الآخر من المعلمـين العاملين في كافة أنحاء التراب الجزائري. والظـاهر أن كـل واحـدٍ منّـا، كان يظن أن تحرير فلسطين سيكون على يديه متناسياً أين نحن؟ ومن ؟ وماذا نعرف مـن فنـون الحـرب النظاميـة؟ ومتـى سـنكون لازمـين علـى جبهات القتال؟ وما هي قدراتنا المعنوية كمدنيين لا نعرف حياة الجنديه إلاّ ما تدربنا عليه سابقا في المدارس الثانوية. وهـو شـيءٌ يتعلـق بالنظـام أكثرَ منه جندية حقيقية. ولاحظت أن أجهزة الذيـاع قـد صودرت مـن

كل من يملكها. فأصبحنا منقطعين عن العالم الخارجي. لا ندري ما يدور فيه. وكان ذلك أمراً عسكرياً صادراً عن مدير الكلية. وكان له الحق بذلك.

لم نعد للمعسكر إلاّ بعد سبعة أيام. قضيناها في تدريبٍ قتاليٍّ شاق في جبال الأطلس التي تكللها الثلوج. في مناخٍ دافئٍ خلال النهار. وبردٍ قاتل في الليل. التدريب في كل مكان. اختراق أنهار باردةٍ بكامل الأعتدة. وتسلق جبال وعرةٍ وعالية. ورمايةِ حيّةٍ في الغابات التي لا ترى نور الشمس. الإستراحة والأكل في الخلاء. والنوم ليلاً في الأحراش بأغطيةٍ خفيفةٍ. كنا في مسيرنا نحاذي القرى المنتشرة والمعلقة في الأعالي دون أن ندخلها. وكان الضباط والمدربون لا يتركون وقتاً من أوقات الصلاة إلا ويؤدونه تحت سماء الطبيعة الالهية الخلابة. فتمكنوا بذلك من جلب أعداد كبيرةٍ من المتدربين إلى تأدية الصلاة، مقتدين بهم، ولكنهم أثناء الاستراحات لم يلقوا بالاً لأي سؤال يتعلق بمجريات الأحداث في جبهات القتال. معللين ذلك بأنه خارجٌ عن نطاق التعليمات التي يتلقونها من رؤوسائهم وقياداتهم؟!.

ها نحن نصل مجهدين في صباح اليوم السابع إلى المعسكر ثانيةً، دون أن نعلم لماذا؟!

ولكن حركة الضباط والمدربين تدعو إلى القلق وتنبئ عن شيء ما قد حدث فجأة. ولكننا لم نكن نعرف ماهيته؟ وفي حوالي التاسعة صباحاً دعي الجميع للاجتماع العام. وقُدِّمَت الصفوفُ إلى القادة، ثم أَدْخِلْنا إلى مهجعٍ واسعٍ جداً. وطُلب منا الجلوس على الأرض.

مدير الكلية في صدر القائمة جالساً ومسنداً رأسه على يديه، وممثل منظمة التحرير بلباسه المدني يجلس إلى جانبه - وهي المرة الأولى التي نراه فيها - افتتح مدير الكلية الكلام بتنهيدةٍ فيها سخريةٌ وحزن ثم تكلم عن الهزيمة دونما مواربة أو دوران حول الموضوع. كان واضحاً وحاداً (ايها الأخوة أعلن وقف اطلاقٍ النار على كافة الجبهات، واحتلت اسرائيل سيناء. والضفة الغربية بما فيها القدس مع هضبة الجولان) تململ بعدها الجميع. وتقابلت الوجوه والنظرات، وساد الصمت والوجوم على القاعة. تحدث بعده ممثل المنظمة بلهجةٍ حارةٍ بلاغيةٍ تلفيقية. ولم أكن أشك بأن أحداً من الحاضرين قد أحس بها، فمنابر الخطباء الملتهبة عليها أن تنتهي من هذه اللحظة. ثم ودعنا مدير الكلية ببضع كلمات أبويه. طالباً منا الرجوع إلى أعمالنا. وترك مهماتنا القتاليه في المعسكر والانصراف كلٌ إلى جهته التي يرغب.

أحسست بأننا فقدنا كل شيء قابلاً لمتابعة الحياة. ولا معنى لوجودنا. ولا مكان لأفكارنا في العالم. وأحسست أن جمال (البليدة) هي أفضل مكان للعيش بعيداً عن العالم وهروباً من الهزيمة.

ارتديت لباسي المدني وتركت الأصدقاء الذين عرفتهم في الجبال. وكلٌ يتحدث مع نفسه. وسرت على غير هدىً من المعسكر حتى وسط المدينة الهادي المزروع بأشجار البرتقال المثمرة المتدلية فوق طاولات مقاهي الأرصفة. استأجرت غرفةً في فندقٍ صغير. وأخذت حماماً ساخناً استطاع أن يزيل أقذار الأيام السابقة في الجبال. واستطاع أن يهدئ أعصابي التي لم تتوقف عن الرجفان لحظةً واحدةً. اشتريت جريدة (الشعب) اليومية وتابعت الأخبار المأساوية بين سطورها. واستمعت إلى

المذياع المفتوح في المقهى على إذاعة صوت العرب مستمعا إلى اصوات وهدير الجماهير المصرية منادية بعودة ناصر إلى الحكم وتجاوز الهزيمة والتحضير لمعركة الثأر القادمة (وكان يعاد ذلك كل يومٍ رغم مضي أكثر من عشرين يومٍ على وقف القتال) وقبول ناصر الرجوع عن استقالته وقيادة مصر مرةً أخرى نزولاً عند رغبة الشعب الذي لم يكن يملك مقومات العيش الكريم والحرّ. ولكنه كان مؤمناً بقيادة ناصر الذي قال له يوماً ولأول مرةٍ في تاريخه (إرفع راسك يا أخي فانت صانع التاريخ).

— ٥ —

في العاصمة نزلت ضيفا ثقيلاً عند ابن عمٍّ لي يعمل مدرساً ومتزوجاً من مدرسةٍ جزائرية. يسكن في (باب الواد). تقاسمنا راتب زوجته كي نستطيع العيش لأن بقية راتبي كنت قد أهدرته في مصاريف الفندق والطعام والسهر في مقاهي (البليدة) ثمناً لمئاتٍ من فناجين القهوة التي لم تستطع أن توقف عقلي عن التفكير. بل سرقت النوم من عيني ولم تسمح لي برقدةٍ قصيرة.

ولكن الحياة في العاصمة عادت إلى طبيعتها. وانتظمت الدراسة ثانية ورجع العمال إلى أعمالهم بعد أن ألقى الرئيس الجزائري (بومدين) خطاباً أمام بوابة قصر الشعب فور وصوله من زيارةٍ خاطفة للاتحاد السوفيتي أمام حشود عارمةٍ من البشر تطالب باستمرار المعركة والقتال حتى الشهادة. كنت أراه أول مرةٍ عن قربٍ متجهم الوجه أكثر من عادته والتعب والإرهاق باديان على جسده وتصرفاته. كان الخطاب غاضباً وقاسياً. لم يترك أخاً أو صديقاً إلاّ لامه وعاتبه – وأحياناً – قرّعه بلهجة واضحه لا لبس فيها. وناشد الشعوب العربية أن تعتمد على

نفسـها وقدراتـها الذاتيـة، وأن تعيـد حسـاباتها الدوليـة، وأن تـترك حكوماتها خلافاتها وصراعاتها العربيـةِ العربيـة، واعتـبر هـذه الهزيمـة ضربةً مهينةً لكل العرب وللتاريخ العربي، ثم ترك منبر الخطابة منسحباً إلى داخـل القصر، انسحبت وراءه الجماهير تلـف الرايـات والأعـلام والشعارات منكسةً الرؤوس وهي غارقةٌ في بحـرٍ من العـار والمهانـة أمـام شعوب العالم قاطبةً. إنها لحظـة تقريـع الـذاتٍ وتعذيبـها لأنـها كـانت مستهترةً بالخطرة الجاثم أمام أبوابها، ولم تتعرف حقيقتـه الموضوعيـة، ومخططاته العقائدية التي كانت تُرسم في أكثر عواصم العالم كرهاً للعرب والمسلمين.

لم يعتمـد العـدو غوغايـة الإعـلام، ولا التظـاهر بـالتفوق العسـكري والاستعرضات الاحتفالية ورفع الشعارات التقدمية المفرّغة مـن محتواهـا الحقيقي، والاسترخاء أمام حركة التاريخ معتمدين على مجدٍ قد اسـقطه الحاضر بفضل التقدم العلمي الهائل الذي ساد العالم الغربـي والامريكـي وها جناحا الطائر الاسرائيلي المسالم، بل أعتمدوا على قدراتهم الفكريـة والمادية والعلمية الذانتية في كسب الرأي العام العـالمي وكسب الاحـترام لدولتهم الصغيرة التي تعيش في بحر من العداء العربي والاسلامي!

هزيمة حزيران أعادت تشكيل الخارطة السياسية في الجزائر فظـهر على السطح بشكل واضح التيار الوطني، الـذي يـود قطـع كافـة اشـكال العلاقات مع المشرق العربي، واعتبار الجزائر وطنـاً للجزائريـين وحدهـم ذوي الخصوصية الثقافية والاجتماعية المتميزة وإلـى جانبـه ظـهر التيـار المؤمن بالوحدة المغاربيـة التـي قـاتلت استعماراً واحـدا وتـأثرت بثقافـة واحـدة

ولها أهداف متكاملة، وهي أقـرب الأشـكال لاقامـة وحـدة قابلـة للـدوام والاستمرار وكذلك استطاع التيار الاسلامي الذي كان مغيباً عـن السـاحة السياسية أن يضع قدمه في الشارع الجزائري ويجهر علانية بأن الهزيمة حصلت لأن الشعوب العربية قد داست على تراثها المقـدس ولـم تحـترم تاريخها المليء بالامثلة العربية مما أوقعها في مزالق السياسـات الشـرقية والغربية على حد سواء، مما أفقدها صفتها الخصوصية وهويتها الدينيـة وأخذ هذا التيار على نفسه بإعادة الناس إلـى منـابع الاسـلام الاصوليـة الأولى ولم يبدُ عليه بأنه يسلك طريق العنف لتحقيق غاياتـه وذلـك مـن خلال قـراءة أدبياتـه ودراسـاته التـي كـان ينشـرها بـالصحف والكتـب الصادرة عن مثقفيه ومفكريه.

بينما بدا التراجع واضحاً على أصحاب التيار القومي والعروبي ولـم يستطيعوا تبرير نتيجة الحرب، وإن كان بعضهم قـد أوضـح أن الصـراع الحالي هو صراع الحضارات، وبناءً علـى ذلـك فـلا بـد مـن بنـاءِ حيـاة حضارية جديدة لدى العرب كي يسـتطيعوا الوقـوف بوجـه عـدو مسـلح بأفضل اعتدة الحضارة الحديثة، وضمن مجتمـع حضـاري أيضـاً يحـترم مواطنه ويحقق عدالةً واضحةً من خلال مؤسساته الدستورية التـي تعتمـد نـهج ديمقراطيات الغرب وأساليبه في قيادة شعبه رغم أن هـذه الاسـاليب لا تطبق على الأقليـة العربيـة الباقيـة في فلسـطين لا بـل تشـبه الفصـل العنصري في جنوبي افريقيا.

وبقي التيار اليساري مُظاهراً للسلطة لم يُبْـدِ رأيـاً تجـاه الأحـداث غير أنه لم يدخر وسعاً في الدفاع عن الموقـف السـوفيتي، الـذي اسـتطاع مساعدة العرب بالسلاح واستعداده لمتابعة ذلـك واعـادة تشـكيل القوات

المسلحة العربية إضافة إلى أنه كان المؤثر الأكبر في وقف اطلاق النار عل
جبهات القتال، وتحذيره لاسرائيل باته لن يقف مكتوف الايدي إ
فصلت عدوانها تجاه العواصم العربية.

- 7 -

لقد غادر الكثير من المشرقيين العاملين في الجزائر إلى بلدانهم
وألغوا عقود عملهم، فقد أثرت الهزيمة على حياتهم البعيدة عن بلدانه
وأسرهم ففضلوا الرجوع والبقاء هناك، ومتابعة أعمالهم، وغادر أبن
الضفة المحتلة حديثاً وقطاع غزة لمعرفة مصير ذويهم وأسرهم في هجرته
الجديدة نحو الضفة الشرقية لنهر الأردن، ولم يسمح لأي منهم الالتحا
بأسرهم تحت الاحتلال الطازج وخاصة أبناء مدينة القدس التي أعلنـ
الاسرائيليون مدينة موحدةً وعاصمةً لدولتهم بعد رفع العلم ذي النجم
السداسية على المسجد الأقصى، لذلك فهي تريد إنقاص عدد العر
المتواجدين وليس رفع العد، فأقدمت من الشهر الأول بجرف حيٍ بكام
منازلهِ (حي المغاربة) فأزالته من مخطط المدينة.

ضمن هذا المناخ البائس إلتحق أكثرهم بالعمل الفدائي الذي تمرك
في قواعد جديدة على الساحة الاردنية.

والحق يقال في هذا المجال بأن الجزائر استضافت الكثير من الأسـ
الفلسطينية التي فقدت المأوى والملجأ والعمل فعمدت إلى تقديم كاف
الخدمات والتسهيلات الضرورية للإقامة والعمل ولم تبخل عن مَدّ يـ
العون والمساعدة لمنظمة التحرير الفلسطينية، فألتحق شباناً كثير
بالكلية الحربية وتخرجت منها كوادر قتالية مؤهلة على غرار حر
تحرير الجزائر ومدهم بالسلاح المطلوب واللازم ودفع مستحقاتهم الماديـ

مع التبرعات السخية من مواطنيها، فالجزائريون يعتبرون القضية الفلسطينية قضية مقدسة يجب ألا تمس بضرر أو تقصي من أحد وبقي الجزائريون اوفياء لمبادئهم حتى هذا اليوم.

وكان لا بد من الانتظار لست سنوات قادمة كي يسترجع الجزائريون إيمانهم بعروبتهم وانتمائهم العربي الذي هزته الهزيمة وكذلك كل العرب، حين قاتل الجيشان السوري والمصري جنباً إلى جنب ويوماً بيوم في أشرس حرب عرفها العالم منذ الحرب العالمية الثانية وأظهر الجيشان قدرات قتالية فعالة ومؤثرة، تضامن الوطن العربي خلالها بشكل يدعو إلى الشرف والنبالة فأستعاد المقاتل والمواطن الثقة بالنفس. والأمل بالمستقبل، واستطاعت هذه الحرب بحكمة القيادة أن تجبر الدول الكبرى على إعادة النظر بكل المقولات والمسلمات السياسية والأمنية التي كانت سائدةً، وأرجعت لدول الشرق الأوسط قيمتها الاستراتيجية واضطرتها إلى فتح الملفات السابقة لإعادة قراءتها.

التدوينات الرابعة

أيّامٌ من العمر في الجزائر العاصمة

1- رحلة الشتاء نحوالعاصمة
2- الجزائر تخبئ جسدها بالتاريخ
3- امرأة للحب والموت

رحلة الشتاء نحو العاصمة

(سحر الاتصال هو: أنـه يجعلـك تشعر بأنـه
ليس هناك إنسانٌ غريبٌ عنك، فـأنت والشخص
تلتقيان كرفيقي سفرٍ، وتتشاطران تجارب الحياة،
مما يجعل الطريق أمامكما أقل خوفاً)

– 1 –

أول رحلةٍ أستمتع فيها بشتاء الجزائر، كانت في السنة الأولى مـن عملي أثناء إقامتي في عنابة، ورغم بعد المسافة بين مدينتي والعاصمـة، فإني كنت أتمنى متابعة السير حتى أبعد مدينة في الغـرب الجزائري، على حدود المغرب، فلـدي الوقـت لذلـك، لأن عطلـة الشـتاء المدرسية تأتي ضمن عيد الميلاد ورأس السنة، المعلمون الفرنسيون تركـوا الجزائـر ليقضوا إجازتهم في بلدهم القريب، فهوعيدهم الحقيقي ولن يتخلـوا عـن التواجد بين أسرهم، ولن يتخلوا عن المتعة والتسـلية والانطـلاق بحريـة في نطاق مجتمعهم.

أخـذت مكـاني بجـانب السـائق، وشـخصان آخـران فـي المقعـد الخلفي، تعارفنا بسرعةٍ، وأصبح بيننا ما يدعى بألفة أوصداقـة الطريـق،

سننطلق من البحر بجوه اللطيف الدافئ الماطر، إلى منتصف الداخل البارد المثلج في (قسنطينة وسطيف) ومن ثُمَّ علينا العودة، ثانية والصعودَ إلى الساحل عند العاصمة التي لا تعرف توقفاً للأمطار، وسنجتاز طرقات جبلية صعبة بين الغابات العذراء المنتشرة في الأطلس التلي.

كان السائق متمرساً بالطريق ــ رغم طوله ــ يعرف أماكن الخطر وأماكن السلامة، فهو يعمل على هذا الخط منذ سنوات عديدة، وعادةً ما يقضي ليلته في العاصمة ليعود بعدها إلى عنابةَ في مطلع الشمس، كان يُعَرِّفُني على أسم كل بلدة، أو قرية، أو دشرة صغيرة، والجبال يسميها بأسمائها عندما نجتازها، كثيرة هي الحيوانات البرية التي صادفناها وهي تقطع الطريق متجهة نحوالغابة، أونازلةً بالأودية السحيقة، أرانب برية بأعداد كبيرة، وثعالب حمراء ورمادية تختفي بسرعة البرق، وذئاب تتربص الفرائس في أطراف الطرقات أوعلى الصخور، وجماعات من القردة المدهشة، التي كانت تنتقل بشكل جماعي من منطقة إلى أخرى، ودون خوف من حركة السير الدائمة على الطريق، والعشرات من أنواع العصافير والطيور، التي تظهر عندما تطل إشراقة الشمس، بعد توقف المطر، وهدوء الرياح الرهيبة في تلك المناطق.اختبأنا في مقاهي (قسنطينة وسطيف وبرج بوعريريج) من لسعات البرد القارصة الآتية من الجنوب الصحرواي وتدفأنا بأكواب الشاي الأخضر مع النعناع ذوالطعم اللذيذ المُسْكِر، وأكلنا بعض الشطائر الطازجة اسكاتاً لجوع الطريق.

كان حديثي مركزاً مع السائق فقط حتى قسنطينة، ولم أتبادل أية كلمةٍ مع المسافرَيْن الآخَرَيْن رغم تبادلنا لفائف التبغ بين آونةٍ وأخرى، ولكني كنت أسمع بعض الجمل التي لا تمت للهجة الجزائرية بصلة،

وعند جلوسنا متحلقين حول طاولة المقهى القسنطيني، تعارفنا بشكل حقيقي، أنا فلسطيني، والآخران تونسيان، واحدٌ من العاصمة، والآخر من(بنزرت) كانا في منتصف العمر، يرتديان ألبسة أنيقة، لطفاء المعشر والحديث، يملكان مخزناً كبيراً في عاصمة الجزائر لبيع قطع تبديل السيارات، وقد أبديا كل مودةٍ تجاهي كمشرقيٍ جديد، وقد أكد لي أحدهم بأنه زار مصر أكثر من مرة وهومعجب بها، ويتمنى زيارة سوريا لأنه يعتبر نفسه واحداً من نسلها الفنيقي القديم! كانت لهجتهما سلسةً واضحةً يُمكن فهمها بسهولة، لولا بعض العبارات الفرنسية الدخيلة عليها، وقد أمطراني بوابل من الأسئلة ابتداء من سبل المعيشة والاقتصاد والسياحة وانتهاء بقضية فلسطين، وكنت أجيب بوضوح لا لبس فيه لأني اعتدت على العقلية الناقدة السائدة في المغرب العربي، التي تستطيع ببساطة أن تميز بين الإجابة الموضوعية ذات المصداقية، وبين الإجابة المدَّعِيَةِ التي تُضَخِّمُ الأشياء دون داعٍ لذلك، والسائق بجانبي يستمع وهوفي حالة من الغبطة الداخلية المنطبعة على تقاسيم وجهه.

كذلك جلسنا في سطيف والبرج كأصدقاء كُسِرَتِ الحواجزُ فيما بينهم، ولكنهم لم يتركاني أدفع قرشاً واحداً ثمناً لمشروب أوطعام رغم إصراري مراراً على ذلك، فتركت الأمور تجري على طبيعتها، دون دخول المادة في عداد صداقةٍ عابرة، ولكني لاحظت حذرهما حين الحديث عن الجزائر، إلى أن تَبَرَّعَ أحدهما وكان الأكبر سناً برأيه بصدق كامل (نحن ذاهبان لتصفية أعمالنا في العاصمة والعودة إلى تونس لأنَّ السوقَ الاقتصادية الجزائرية لا تتيح لنا الحرية كما في السابق للعمل التجاري الحر، ونحن لم نعتد على هذا النوع من التضييق في العمل التجاري، فكانت خسارتنا كبيرة في السنة الماضية، لذلك قررنا ترك

الجزائر مع اقتصادها الجديد الذي ربما ينجح! وربما يتحطم في منتصف الطريق؟! فالاقتصاد علم لا تفيد معه القرارات الارتجالية التي نراها تسود هذا القطاع، فتونس تستطيع استيعاب أموالنا وأعمالنا لذلك لا بد من العودة).

لم يُعَقِّبْ السائق على الكلام، ربما لعدم استيعابه الفكر التجاري، أولكثرة سماعه مثل هذه النقاشات في سيارته خلال سفراته المتعددة بإتجاه العاصمة يوماً، وبإتجاه عنابة يوماً آخر، ورغم دفاعي عن سياسة الجزائر الاقتصادية، التي تتبنى النهج الاشتراكي كحالةٍ ضروريةٍ- لا بد منها - للخروج من حالة الدمار والضياع لبنيتها الاقتصادية خلال الحرب وتوزيع الثروة توزيعاً عادلاً بين الناس، للوصول إلى مجتمع متجانس، لا طبقات واضحة فيه.

قاطعني أحدهم قائلاً: إن الأرضِ الجزائرية وثرواتها الباطنية تكفي لمئة مليون من البشر، دون تطبيق أيٍ من أساليب الاقتصاد السائدة في العالم. ومن حق الدولة الجزائرية الاستيلاء على أملاك المعمرين وتعتبرها ملكاً للدولة ولكن التجارة الداخلية والخارجية والتصنيع هومن حق طبقة الممولين المتمكنين من العمل التجاري، وإنشاء الصناعات التي لا تحتاج إلى تدخل من قبل الدولة، لأنها بذلك تطرد الأموال الوطنية المستثمرة في هذا القطاع الهام إلى خارج حدودها وهذا ما يحدث!

كان الكلام موضوعياً وعقلانياً، وقد ظهرت قيمته بعد سنوات طويلة من التطبيق، الذي خلق صعوبات لا حصر لها أمام القطاع الخاص، الفاعل والذكي والمدرب سابقاً، مما أفقد الجزائر الكثير من العناصر الهامة التي كانت تستطيع تسيير اقتصادها بوجهةٍ سليمةٍ، وإدخالها ضمن البلدان المزدهرة.

لقد أوجدت هذه الحالة الاقتصادية واعتمادها الاقتصاد الموجه، شريحةً عريضةً من الموظفين (البيروقراطيين) الذين كانوا سبباً من أسباب تفشي سوء التقدير، والاحتيال على القوانين، وإدارة الاقتصاد الضخم بصورة تدعوإلى الريبة والشك في نزاهة هذه الطبقة، وحسن تسييرها لحياة البلاد الداخلية، رغم جهود الحكومات المتعاقبة على الحكم والعمل على تصحيح هذا المسار، إلا أنه استطاع الاستفحال والاستشراء بصورة عريضة، إنه أحد الأمراض القاتلة في العالم الثالث، أوعالم الدول النامية نقلته الجزائر إلى قطاعاتها الاقتصادية رغم تحذير الكثير من رجال الاقتصاد ورجال السياسة الموجودين خارج الحكم وإبداء الانتقادات الايجابية لتصحيح الوضع الوظيفي والإداري، وحتى تصحيح التوجه الايديولوجي نفسه، ولكن السلطة العليا بقيت تؤمن بأن الاقتصاد –في دولة جديدة كالجزائر– لا بد من مروره بأزمات تُعيقُ تقدمه ولكن الأطر الحزبية النظيفة تستطيع تجاوز مثل هذه الأزمات، ولكنها لم تكن تعلم لقصر تجربتها السياسية –في إدارة الدولة – بأن (الاقتصاد لا يحتاج إلى أيدٍ نظيفة تلبس قفازاً أبيضاً، ولكنها بحاجةٍ إلى أيدٍ قذرة وأمينة)!.

– 2 –

من بلدة برج (بوعريرج) إلى (سور الغزلان)كان السائق يشير بإتجاه يمين الطريق ويعرفني على سكان (القبائل) الذين يسكنون هذه المنطقة الجبلية الوعرة ويؤكد لي بأنهم يتحدثون لغة خاصة بهم تسمى (الأمازيغية) وأحياناً يدعون أنفسهم بالأمازيغ، وكذلك لهم تقاليدهم الخاصة وعاداتهم الموروثة منذ مئات السنين، ولكنهم جميعاً يدينون الإسلام، ومنهم نبغ الكثير من العلماء، والمفكرين، والثوار والسياسيين

اللامعين وتعد الجزائر العاصمة ساحةً لانتشارهم الشديد. لقد بقيت كلمة (الأمازيغ) محفورة في مخيلتي، وأحببت التعرف عليهم عن قرب أوالقراءة عنهم وأحسست في تلك الفترة البعيدة عنا أن الجزائر قطعة من الفسيفساء البشرية جميلة المنظر قاعدتها الدينية تتمتع بصلابة الحجر ولكن أحجار الفسيفساء نفسها غير موضوعة في أماكنها الطبيعية ولا بد لهذه اللوحة من إعادة الترتيب من الداخل وإلا فإن القطع ستحاول الابتعاد عن قاعدتها، والتخلي عن وحدة الصورة لتخلق بالتالي كيانات بشرية ذات ثقافات متباعدة، وسياسات متباعدة، فتتشوه بالتالي وحدة التراب الجزائري من جراء صراعات (أثينة) تستلهم تراثها من الزمان الموغل في التاريخ، حتى لو كان وثنياً (وهذا ما يحصل اليوم) ولقد زاملت وعاشرت أثناء عملي الكثير من سكان القبائل فكانوا مثالاً للأخلاق والاستقامة والنزاهة وتعلقهم الشديد بالعلم والثقافة ولكنهم كانوا دون شعور منهم يتحدثون عن العرب وعن المشرق خاصة حديثاً يعوزه الكثير من معرفة الحقائق الموضوعية للتاريخ، حتى أن بعضهم حلل الوضع الاجتماعي في الجزائر على أنه احتلال من العرب لقبائل البربر والأمازيغ سكان الجزائر الأصليين، ومن الوجهة القانونية الدولية فإن احتلال أراضي الغير بالقوة غير جائز ولامقبول،وكذلك ارغام السكان الأصليين على اتباع ديانةٍ ما. هو غير جائز أيضاً، فكأن الكلام لم يكن تابعاً من الفراغ بل له مدلولاته ومعانيه البعيدة.

حينها كان شعوري مزيجاً من العواطف القومية المؤمنة بوحدة العرب، وموضوعية الحقائق المادية التي تغطي الخريطة العربية بألوان عديدة، لا يمكن مزجها بسهولة لاستخراج لون الحياة القادمة ذات الأهداف الواحدة، والثقافة الغنية الواحدة!!.

وصلنا ساحة بور سعيد قريباً من المساء، ورائحة الأرض الأخاذة المغسولة بماء المطر تعانق حواسنا، وآلافٌ مؤلفةٌ من عصافير (الدوري) تبيت على أشجار الساحة اللامعة النظيفة بأصواتها التي تصم الآذان، وَدَّعْنا بعضنا - نحن رفاق السفر- وتبادلنا العناوين فلربما يجمعنا الزمان يوماً ثُمَّ سرت تحت أروقه الطريق المبلط المقابل للبحر، ودخلت مقهىً واجهته الزجاجية تشرف على الطريق والبحر معاً. كانت السفن العملاقة ترسوفي الميناء، وبعضها يطلق صفارات تنذر بالاقلاع والهجرة، كنت أحمل حقيبة صغيرة من الجلد، تحوي القليل من الثياب ورواية (لألفونس دولامارتين) تحمل عنوان (جينيفيف) ابتعتها من المكتبة العامة في عنابة مترجمةً للعربية، وقد وَصَلَتْ حديثاً من القاهرة، ولم أقرأ منها حرفاً بعد، وقليلاً من النقود تكفي للطعام، ولحاجات أخرى عند الضرورة، ولكنها لا تكفي ايجاراً لغرفة نوم، ولم أكن بحاجة لذلك لأني ضيفٌ عند صديق من دمشق يسكن في شارع (فيكتور هوجو) ورقم البناء 9 وحيداً عازباً شاركني غرفتي في حلب عندما كنا نعمل هناك لفترة طويلة مما خلق بيننا نوعاً من الصداقة لا تقوم على شيء من المصلحة.

طلبت من النادل، قهوةً و(كرواسان)، شاعراً بالدفء اللذيذ، الذي يشع في المقهى الأنيق الصغير، وشللٌ من الأصدقاء يتحدثون ويقتنصون النظر إلى البحر والسماء، وأنا بدوري أحاور نفسي ولا نهائية العالم أشاهدها في صفحة البحر المشرف على الظُلمة التي تظللها الغيوم السوداء، التي تقتحم سطحه كل لحظة.

أُضيئت مصابيح الشارع، وأنيرت مصابيح المقهى، فشعرت بأني

أرتقي شرفةً عاليةً تطل على الماء وما فيه، وَسَرَتْ بجسدي قشعريرة الحنين، إلى الشاطئ السوري الهادئ، بموانئه الصغيرة الآمنة واناسه القانعين بالحياة الفطرية، التي تطوي في ثناياها قناعة الحكماء ونبالة الشعوب، بانية الحضارات، فمياه المتوسط واحدة، ولربما كانت مياه الجزائر خليطاً من شرق المتوسط وغربه.

دلني نادل المقهى على طريق (فيكتور هوجو) ولكنه نصحني بأخذ سيارة أجرة، ولكني قررت المشي في هذا الجوالذي أعشقه، محاذياً البحر، فأشعر بالحرية، والوحدانية، التي تعيد الإنسان لذاته، حقاً كان المكان بعيداً، ولكني حركت جسدي الذي أضناه الجلوس على المقاعد.

عانقني صديقي الدمشقي عناقاً حاراً كأنه لم يصدق رؤيتي، سهرنا سوياً حتى منتصف الليل، وحديثنا لا يخرج عن المحور الجزائري، ثُمَّ وضع مفتاح الدار في يدي قائلاً: غداً سأسافر إلى مرسيليا، وسأقضي عشرة أيام مع صديق فرنسي -وعلى حسابه- فأنت الآن صاحب البيت لحين رجوعي، وستقضي أياماً رائعة في العاصمة، ومع ذلك فلن تعرف الكثير، فالعاصمة سِفْرٌ مُغْلَقٌ حتى على أبنائها!؟

الجزائر تخبئ جسدها بالتاريخ

(لتكن جميلةً، أو قبيحةً، فهي بلادي،
وليكن قريباً، أو غير قريب، فهو ابن وطني)
مَثَلٌ صينيٌ

-1-

في المدن العريقة، أمكنة تظل محفورة بالذاكرة، كصور الأساطير الخرافية، تفوح منها رائحة العراقة والأصالة، وتدخل ضمن سياق التاريخ القومي، والذاكرة الشعبية، وحَيُّ (القَصَبَةِ) هوالمكان الذي تزدحم صوره في ذاكرتي عندما كنت يافعاً، أتابع أحداث الجزائر، عندما كنت طالباً على مقاعد الدراسة وها أنا اليوم في وسطه، ولم أسأل أحداً ليدلني على الأزقة والمداخل الضيقة، ومخارج (الزَّنْقات الصغيرة -والتي لا مخارج لها أحياناً- دورٌ بيضاء متعانقه من الحجر المبيض بالكلس، كصفوف من الحمائم البيض، تقف على حبل مشدود. والسُّبُلُ التي تمشي بها مبلطةً بحجارةٍ سوداء قديمة كتاريخٍ المدينة، تَعِجُّ بالصبية والفتيات الصغيرات، وهم ينظرون إليك كشخصٍ غيرَ مألوفٍ، يسألونك

عن الهدف، فتمسح رؤوسهم بيدك، ثَمَّ تتابع السير، ونساء يلبسن الوشاح الأبيض يغطي أجسادهن حتى القدمين، وقناع على الوجه لا ترى سوى عيونٍ خجلةٍ، مشبعةً برائحة الأنوثة والكرامة والود، كُلُّ دارٍ في القصبة لها حكاية أورواية، لها رجل سُجِنَ، أومات في السجن، لها مناضلٌ استشهد في المدينة أوالجبال، أحذية جنود الاحتلال القذرة داست قداسة كل زنقة، وكل دار، بل وكل سطح من أسطحتها المتفتحة للشمس، نُسِفَت دور المناضلين على رؤوسهم، لأنهم أبوا الاستسلام لحقارة المستعمر وفضلوا الموت تحت حجارة دورهم، حتى أصبحت بعد الاستقلال محجاً ومزاراً لكل المؤمنين بالحرية، وشرفاء العقيدة.

شربت في القصبة من سُبُلِ الماء النَّقية ذات الطاسات النحاسية المنتشرة في الأزقة الداخلية، وقرأت آلاف فواتح الكلم كلما شربت قطرة ماء ترحماً على أرواح الرجال والسيدات الذين أعادوا النقاء التاريخي لهذا الحي، سمعت عشرات المرات عبارة (السلام عليكم)من رجال الحي الذين كانوا يودون استضافتي في دورهم، حتى استدارت ذاكرتي نحوالقدس، وأنا ما زلت في القصبة استدرت نحوشوارعها وأحيائها وخاصة (حي المغاربة) الذي ما زال يقطنه منذ مئات السنين عائلات من الجزائر والمغرب وتونس، استقرت هناك مستندة إلى قداسة المكان، وقداسة العلم، والاجتهاد، وطهارة الروح والجسد، وعندما سمعت آذان الظهر، وأنا غارق في لجة الحي أحسست أني أمام مسجد الشيخ (محي الدين بن العربي) لأُصَلّي بجانب رفاة الأمير عبد القادر الجزائري الذي أحب دمشق، وعاش فيها، ودفن في مقام أعظم المتصوفين الاسلاميين الذين قَدِموا من الأندلس، وبقوا حتى وفاتهم في دمشق الشام، وجنة

المشـرق. تنـاولت الغـداء فـي مطعـمٍ حجـري صغـير، فـي سـوق الحـي المزدحم، طلبت وجبة جزائرية صافية (الكسكي) ولبناً رائباً مذاباً بالمـاء المثلج، شعرت بلذة الطعام وخفته، وأحسست بنظافة المكان وطهارتـه، وعندما عرف صاحب المطعم هويتي جلس قبـالتي يحدثنـي عن حالـة المشرق وعن عملي واعتبرني ضيفاً عليه، ولكني لم أقبل سوى كأساً مـن الشاي الأخضر، ولفافة التبغ، ضيافة منه، ولكنه بقي يحدثني بحماسـة عارمةٍ، وتعابير وجهه تدل على صدقه، وأمانته، عندما اسْـتُقْبِلَ (جمـال عبد الناصر) كأول زائر للجزائر، وكيف دخل الحي لزيارة قصـيرة، ولـم يستطع الخروج منه، إلا بتدخل الجيش. واصفا بدقة، شـخصية الرجـل بكل دقائقها معتبراً إياه رجلاً تاريخياً، وكيف وقف يخطب ببحـارٍ مـن البشر، أمام مسجد (كيتشاوه) يرافقه أول رئيس للجزائر أحمد بن بيـلا، وأعضاء القيادة، وقد أشعرني حديثـه بأنـه يريـد إيقـاف عجلـة الزمـن، وعجلة التاريخ، عند ذلك الحدث الذي لا ينساه.

تركت الحي هابطاً أمام المسرح الوطني الضخم المبني علـى الطـراز الأوربي، مزيناً بأعمدة رخامية لها تيجان ورقية تحمـل واجهـة المسـرح الضخمة، جلست قليلاً على درجة العريض وأنا أتابع حركة السير ناظراً إلى عملية ترميم المسجد القديم فـي المدينـة، الـذي حولتـه السـلطات الاستعمارية إلى كنيسة، وها هي الجزائـر تعيـده إلـى أصالتـه الحقيقيـة المهندسون، والحرفيـون البنـاؤون ضمـن ورشـة عمل ضخمـة، يقـابلني المسجد بمئذنته المربعـة العاليـة وقبابـه البيضـاء، ومسـاحته الواسـعة، وقربـه مـن الميـنـاء، يسـتقبل الداخـل مـن البحـر كأنـه منـارة للعقيـدة والايمـان، أحسسـت بـبرودة الجـو، وهـروب الشـمس، وراء السـحب

الماطرة، واقتراب العصر من الدخول فتوجهت شطر المسجد، توضأت وصليت تحية المسجد، وجلست في طرفه الأخير متأملاً التحفة الفنية النقية التي أجلس داخلها، وامتزاج تراث الشرق التركي والأندلسي، وروعة الهندسة المعمارية الداخلية للمسجد وطراز النوافذ والكّوات، وعظمة المنبر الخشبي في المنتصف، بل انتابني أحساس التلمذة تحت أروقته المقنطرة، يتعهدني مؤدبٌ عالمٌ يهديني إلى مناهج العلم، ومسالك الدين. أديت صلاة العصر مع جمع من المصلين فداخلني احساس بأن روح الانسان أعظم من الحجارة والبيوت والتقاء الناس في وحدة روحانية واحدة وصادقه هي السلام والأمن على الأرض، وهي الهدف الألهي الذي خلق البشر من اجله.اتجهت نحو ساحة بور سعيد، حيث حركة الناس تزداد ازدحاماً والجوُّ ينذر بتساقط المطر، فأحتميت داخل المقهى ذو الشهرة الواسعة بين أبناء العاصمة (طانطون فيل) الذي يملك رصيفاً عريضاً تنتشر فوقه الطاولات والكراسي، المملوءة بالبشرِ رغم برودة الجوّ أخذت مكاناً في أقصى الداخل الدافئ على كرسيٍ من الجلد، وطلبت فنجاناً من القهوة، ناولني النادل الفنجان مع جريدة الشعب التي طلبتها منه، شربت بعدها قهوتي ببطء، وتصفحت الجريدة بسرعة فهي لا تستحق العناء في ذلك الوقت فما زالت وليدة الصحافة الجديدة لا أثر للموضوعات الثرية بين صفحاتها الثمانية، لا وجود للمرأة في المقهى، فأغلب روّادها من الشبان، الذين لا يتجاوزون الثلاثينات من العمر، يتحادثون بلهجة حادة فيها نوع من العصبية، والملاحظ أن أكثرهم يمتهن التسكع، أومن طلاب العلم، يقضون فيها أوقاتَ فراغهم في الفرجة والاصطياد. وهناك بعضٌ من الناس يؤدون

أعمالهم في العاصمة، لأني شاهدت الكثير من وجوه أهل عنابة. التي كنت أشاهدها تمارس التجارة، أونملك محلات تجارية فيها، وقد سلمّ عليّ بعضهم من بعيد، كأننا أهل مدينة واحدة، اشعرتني بالانتماء رغم الغربة البعيدة!!.

خيمّ الظلام وأضيئت أنوار شوارع المدينة والمقهى، والمطر ينهمر دونما توقف، مما اضطرني للبقاء مع ذاتي وحيداً متفرجاً، ثُمَّ قررت السير بعد انقطاع المطر متنقلاً من شارع (ديدوش مراد) إلى شارع (العربي بن مهيدي) إلى (فيكتور هوجو) حيث أسكن، كانت المسافة شاقة ولكن توقف المطر أغراني بالتفرج ليلاً على أماكن أحب رؤيتها دونما زحمةٍ أو ضجيج، تَقَلَّصَ المارة في الطرقات ـ وأنا أقطع شارع البريد المركزي متجاوزاً ساحة الأمير عبد القادر وتمثاله البرونزي الذي وضع حديثا على قاعدته. وعشرات المقاهي تحيط بالساحة تضج بالأنوار مع قليل من الزبائن، وكثير من الهواء والصفاء.

وصلت مقهى (اللوتوس) على يسار الطريق المملوء بالروّاد، وبعد أن أبتعت علبة تبغ جزائرية، من كشك الصحافة بجانبه، دخلت المقهى، وأنا أودّ متابعة السهر، وإذا بأحد المعارف السوريين يناديني لأشاطره الجلسة مع جلسيين جزائريين من العاصمة، وقد علمت منهما - وكان ذلك صحيحاً- بأن لهذا المقهى شهرة ومتعة خاصة، فهوقريب من الجامعة والبريد، ورواده من المهتميين بعالم الثقافة والمعرفة، ونستطيع من خلال جوانبه البللورية رؤية حركة الشارع كلها، والحقيقة أني قد شاهدت في مرات لاحقة، وأنا أجلس فيه الكثير من الوزراء وأصحاب الشأن، يتناولون القهوة والحديث مع الأصحاب، وكم كنت أشعر وقتها

بالأمان على مستقبل الجزائر، ومستقبل نظامها السياسي، فهـاهم رؤوس السلطة يعيشون كما يعيش الآخرون دون رقيب أوأجهزة، ولكن شـعوري الساذج كانتتعوزه التجربة، وكـم مـن التجـارب اللاحقـة، جعلـت هـذه الفكرة تتبدد من عقلي وشعوري، كلما ازددت معرفة بالجزائر، وعمّا كان يجري في أروقة الحكـم حتـى هـذا الوقـت (فـالنبل والنظافـة السياسـية شيئان مختلفان عن الظهور في المقهى ،والتحدث مع الآخرين)!.

كنت أقرأ (جينيقييف) في جوالقرن التاسع عشر، المملوء بالموهبة والأبـداع، والرومانسية الجميلـة، التـي تحفـز المشـاعر النبيلـة لـدى الأنسـان، عصـر (جـورج سـاند) و(موسـيه) و(شـاتوبريان) و(هوجـو) وغيرهم.. في مناخ يشبه المناخ الذي يعيش فيه أبطال القصة، فأنـا فـي شارع ڤيكتور هوجوواعيش في مسـكن بنـاه الفرنسيون فـي آوخـر القـرن الماضي، فكان الريف الجزائـري، وجوالمـدن أيضـا صـوراً تتلألـئ أمـام ناظري، وأنا أتابع القراءة قبل الرقاد.

في أربعة أيام بلياليها، تحت المطر أحياناً، وتحت دفء الشـمس أحياناً أخرى، توغلت في قلب العاصمة، وذهبت إلـى أطرافهـا الممتـدة على شاطيء البحر، شرقاً وغرباً، كأنهـا دونمـا نهايـة!! وكـم اشـتاقت عيني رؤية العاصمة، وأنا قادمٌ إليها من الشمال عن طريـق البحـر، وقـد تحققت رغبتي بعـد ثـلاث سنواتٍ. عندمـا ودعـت ميناءهـا علـى ظهـر السفينة (الجزائر) ورجعت إليها مشتاقاً أثناء رحلتي إلـى اسـبانيا. حقـاً إنها وردة بيضاء، يتوجها تـاجٌ مرصـعٌ بـالفيروز والعقيـق، إنهـا شـقيقةٌ للمـدن، ذات الطـراز الاسـلامي النـاصع، شـقيقة تونـس وطنجـة وفـاس وتلمسان ومكناس والقيروان، ونسيبة مرسيليا وبرشلونة و(بالما مايوركا)، إنّها إحدى حِسانُ المدنِ المتوسطية.

وفي المسرح الوطني عَطَّرْتُ نفسي وروحي، بليلةٍ لا صباحَ لها، وأنا استمع إلى وصلاتٍ من الغناء الجزائري، الآتي من الصحارى والواحات، ومن المدن الأندلسية البعيدة، (محمد العنقا) مع عوده، وفرقتة ذات الألبسة الفلوكلورية، التي تغريك بالنظر إليها واستحسانها، فقد قدَّم وصلةً غنائيةً على طريقته الخاصة، أخذتني إلىفارس وتركيا والأندلس معاً، كان فناناً متمكناً ذوصوتٍ خاص ارتجالي يعيد الإطراب بتذوق خاص. تلته (فضيلة الجزائرية) مقدمةً وصلةً كلثومية (يا ظالمني) حسبتٍ أني أجالس (رامي وشلته في مسرح الأوبرا في القاهرة) ثُمَّ تلتها وصلةُ موشحاتٍ كادت تخترق قلوب السامعين، جاءت بعدها شمس الصحراء، وريحها، ورمالها، وبلحها، على لسان (رابح درياسة) الذي يتقن اللفظ العربي بنبرةٍ واضحة المعنى، مع صوتٍ يسوق فيه إبل الصحراء حادياً مرتحلاً باحثاً عن محبوبته بين القفار والفيافي، وقد اكتسب هذا المغني الرائع، شعبيةً كبيرةً عندما زار المشرق العربي، وصُفِقَ له طويلاً لأنه يحمل صفة العروبية الحقه ذات النبرات المرتفعة.

في الثالثة صباحاً أخذت سيارة أجرةٍ نحوالمسكن، علماً بأني لم أكن أود الرجوع، وددت الدخول إلى حانةٍ ساهرة، أرتوي فيها، وأبَيتُ ليلتي تلك، على درج المسرح الوطني، حتى تعود (النجمة القطبية) ثانيةً إلى مكانها في سماء الصحراء، كي تهتدي حبيبتي التي لا أعرفها إلى دربي، وتسكن في داخلي كما سكنت العاصمة، (فبعد نشوة الطرب لا يجوز للإنسان أن يبقى وحيداً)!!..

امرأة للحب والموت

(إن الحبَّ لا يعرف الفصول، ولا الساعات،
ولا الأيام ولا الشهور، إنه ينبثق فيها كلها)؟!!

جون دون

—1—

في اليوم الخامس، لوجودي في العاصمة، استيقظت متأخراً، أُحِسُّ آلاماً برأسي، فقد كانت ليلة المسرح طويلة، فتحت لي جراحاً وجدانية كانت غائرة في اللاشعور، الغربة، الوحدة، التشرد، الوجود، المستقبل!!

أخذت حماماً ساخناً، وتناولت حبة أسبرين مع كأس من الشاي الأحمر صنعته في المنزل، ثُمَّ حلقت لحيتي، ولبست جديداً، لأعود إلى ضجيج المدينة ثانية، اشتريت عدة بطاقات للمعايدة، تُصَوِّرُ معالم الجزائر، وقررت إرسالها إلى الأهل بعد كتابة يضع جمل تُطَمْئِنُ الأهل على أحوالي، وأسرعت إلى داخل مقهى (الطانطون فيل) طلباً للهدوء، وكان كعادته غايةً في الحركة والضجيج، والبار مفتوحاً على غير العادة

فالمشروب يلزمه جواز سفر أجنبي، لاحظت كثرة النادلين وراء البار والأرفف ممتلئة حتى السقف بكل أنواع المشروب، ولكن الكراسي ذات السيقان العالية المنتشرة حول البار يشغلها عدد قليل من الزبائن يتناولون المشروب، فحسبت أن أيام الأعياد لا تحتاج إلى أوراق حسن السيرة والسلوك، كانوا عربا، والقليل منهم يبدون كالفرنسيين نزعت معطفي وطويته إلى جانبي وصُوَرُ الأهل تنطبع أمامي في كل كلمة أسطرها خلف البطاقة، كنت مستغرقاً بما أود كتابته، حتى أني نسيت القهوة ولفائف التبغِ التي تنطفأ تلقائياً في منفضة السكائر أمامي، ولكن صوت حذاء نسائي نبُّهني من استغراقي، يقتحم صالة المقهى، مما جعل الحضور يلوذون بالصمت، واصطناع الأدب في حضرة الجنس الآخر، كانت وحيدةً إلا من جمالها الخارق، ومشيتها الواثقة، وحركة عينيها اللامبالية، وقف شاب جميل الطلعة، أنيق المظهر لاستقبالها، سلمت عليه قبلا على الخدين على طريقة أهل الغرب، ثُمَّ تركته مع مجالسيه معتذرةً، وتوجهت إلى البار مباشرة، تاركة مفاتنها تسقط على جنبات الكرسي، تدير الرؤوس، وتحرك المشاعر، وتترك الرجال يتعوذون من الشيطان الذي أجبر حواء على الهبوط إلى الأرض، ليقاسي الرجل مأساة العالم السفلي، كان ظهرها يقابلني، ولكني كنت أرى وجهها على صفحة المرآة المقابلة خلف النادل الكهل الذي حياها بالفرنسية، ومسح طاولة البار كله عدة مرات ووضع لها كأساً طويلة العنق مملوءة بكوكتيل من المشروبات مع بضعِ قطعٍ من الثلج.

أشرفت على كتابة كلمات البطاقة الأخيرة فركزت تفكيري على الجمل، فضاعت إحداها من الذاكرة، رفعت بعدها رأسي لعلني أسترد الكلمات الهاربة، فإذا بعيون المها الصحراوية تعانق عيوني عبر المرآة

مع ابتسامةٍ هادئةٍ، جعلتني أرتجف من الصدمة، ومن البرد.

هالني الموقف فظننت ذلك عبثاً نسائياً لا هدف له، فرجعت إلى بطاقتي الأخيرة ولكني لم أجد الكلمات، التي تجعل من النهايات سعيدة ومفرحة.

-2-

لم أجد حولي من آخذ رأيه في المرأة والحب، فلعله ينصحني أولعله يبعدني عن الجنس، ويحرم المشروب علي، ولكني (أحسست برغبةٍ جامحةٍ للصداقة، والحب، لقتل توحدي الذي يزداد مع مرور العمر).

وتساءلت لِمَ لا أكون رجلاً- كباقي الرجال -الذين يبحثون عن الحب؟! (أليست العواطف أحياناً أقوى من المحاكمات العقلية كما تقول "جورج سائد"؟! ومع ذلك لن أكون متطفلاً على امرأةٍ ناريةٍ من هذا الطراز النادر الذي أتوق إليه، فهو من جنس آلهات المشرق، (أليس الإنسان ضعيفاً؟ أليست حاجته مستمرة وماسة إلى العطف والرقة والحنان والحب) كما تقول "فرانسوا ساغان" فالطرفان إذاً بحاجة لبعضهما مهما علا شأن وقدر أحدهما.

حيَّتْني السيدة برأسها في المرآة، دون أن تلتفت، مما وهبني الشجاعة، أمام هذا الحشد من الرجال المتحفزين للمغامرة، رتبت البطاقات ضمن مغلفاتها، وحملت معطفي متجهاً نحو الجحيم!!.

وقفت بعيداً عنها، وطلبت زجاجة من البيرة فطلب النادل جواز سفري، أبرزته، وهي تنظر إلى الموقف دون كلام، لابد أنها فرنسية- قلت في نفسي، لأنها كلمت الشاب بالفرنسية، ولم تبرز جنسيتها

عندما جلست على البار، كانت قد تجرعت نصف مشروبها المشبع بالألوان، وأشعل لها النادل أكثر من لفافة تبغ.

تحدثت مع النادل بصوت غير مسموع، وكنت قد أخذت مكاني، وكأس البيرة المترع بالرغوة اللذيذة أمامي شاغلاً نفسي عن المرآة قبالتي، ثُمَّ شربت الكأس حتى القاع فلربما يهرب الخجل، والخوف، من بين جوانحي. وبلحظاتٍ شعرت بأني غير مبال بأيٍّ موقف سيحدث!.

نزلت عن كرسيها وتوجهت نحوي دون مقدمات: أنت مصري؟ قالتها بالعربية، لا يا سيدتي أنا فلسطيني، ازدادت دهشتها حين أجبتها بالفرنسية. تابعت قائلة بصوت له رنة الفرح: إذن هل تشاركني المشروب؟ سيدتي يسرني ذلك إن لم أسبب لك إحراجاً.

حَمَلَتْ معطفي بيدها وَمَرَّرَ النادلُ بقية مشروبي إلى جانبها، كانت تتكلم وأنا أنظر إلى وجهها، وحركة يديها الصغيرتين، وأتنسم رائحة جسدها. وعبق الحناء الذي يفوح من شعرها الفاحم المنسدل على كتفيها. وأرمق دهشة النادل وتغير تعابير وجهه، وأحس كأن حركة غير طبيعية دبت في أرجاء المقهى.

تابَعَتْ: اشْرَبْ مشروباً غير البيرة، وأمرت النادل أن يصنع كوكتيلاً جديداً، مع علبتي سجائر أمريكية ورمقتني راجيةً أن أترك البيرة. ففعلت، رفعنا الكؤوس مجدداً لنشرب نخب تعارفنا، ثُمَّ غرقنا في الهمس والكلام والإبتسام والضحك، قالت مؤكدة: ستعيش في داري طالما أنت هنا ولا تبالي بأحد ـ حتى بمعارفي هنا ـ فأنا سيدة الكل؟!

كانت في منتصف العمر تكبرني بسنوات طويلة، مطلقةَ رجل فرنسي كان يمتلك مصنعاً في الجزائر، لها ابنةٌ وحيدة، تعيش في مدرسةً

داخلية وما زال زوجها مكلفاً بالصرف عليها ـوبسخاء ـ حتى يسترجع ابنته، وعندما ذاب الجليد بيننا، وبدأت حرارة الأجساد والأرواح تندمج، تذكرت مقطعاً من قصيدة "ليالي" لألفريد دوموسية وأنا أنظر إلى العيون المبللة بالفرح أمامي، وأنا أكاد أمتلك كيانها عندما يقول:

تعري أمام الجميع من الكبرياء التي تفترسك
يا ذات القلب المترع بالمرارة، وكنت تحسبين أنه مغلق
أحبي فتولدين من جديد، كوني وردةً دائمة التفتح
بعد أن تألمنا يجب أن نتألم
ويجب أن نحب دوماً بعد أن أحببنا

تَدارَكَتْ الموقف العاطفي المعرّى أمام الجميع، وطلبت من النادل ورقة الحساب، لكنها رفضت بتجهمٍ واضحٍ أن أدفع، وطلبت زجاجة "سكوتش وسكي" وعدة زجاجات من الصودا، وعلبتا تبغ فرنسي جديدتان، وضع النادل الأغراض المطلوبة في كيس من الورق الأنيق وأنقدته الحساب كاملاً مع إكرامية مجزية، وأنا غير مبال بما يحدث نزلنا سوياً عن الكراسي، وأخذت معطفي بيدها وألبستني إيّاه كزوج تُكِنّ له الاحترام. وتأبطت ذراعي، والذهول بادٍ على وجوه الخلق المتناثرين على الطاولات المزدحمة! ونادلٌ صغير يفتح المظلة للسيدة، ونمشي سوياً تحتها، لنقطع الطريق، وندخل سيارة (بيجو) بيضاء اللون، ويناول النادل الأغراض إلى سيدة مسنة ترتدي لباساً جزائرياً خالصاً، تجلس المقعد الخلفي للسيارة.

أجلستني قريباً منها وقالت وهي تتطلع للوراء: هذه (ماما جميلة) مربيتي ومدبِّرَةُ منزلي ثُمَّ أردفت:

أجلستني قريباً منها وقالت وهي تتطلع للوراء: هذه (ماما جميلة) مربيتي ومدبِّرَةُ منزلي ثُمَّ أردفت:

- إنه فلسطيني يا ماما، لقد وجدته أخيراً، صافحتني السيدة وشدتني نحوها وأنا أستدير، ثُمَّ قبلتني على جبهتي بشفتين باردتين من طول الانتظار في السيارة.

أدارت المحرك، ودارت معه ماسحات الزجاج، وأنا أدور مع الزمن كيفما دار، لا أعرف أين أنا؟!

وإلى أين سأذهب؟! وأين الأمان في مثل هذه المواقف؟! وأين الخطر؟! لا أعرف؟! ولكني تذكرت أهلي ودمشق البعيدة عن مرتع شبابي البعيد عنها، وهممت في داخلي مودعاً وحدتي القاتلة، ومودعاً الرجولة المتزنة الحمقاء المغطاة بالأسرار الشريرة، والسيارة، والنشوة، تسيران جنباً إلى جنب.

قطعنا شارعي العربي بن مهيدي وديدوش مراد، وصعدنا الأماكن العالية المكدسة بالفيلات الأنيقة حيث الهدوء، والنظافة، ورائحة السرووالصنوبر البري، مختلطة برائحة المطر، دون أن أعرف أسماء الأمكنة والشوارع التي تلتف حولها.

كان الكحول يقود السيارة والكحول يزيد من القبل اللانهائية دون حسابٍ للمنعطفات الخطرة التي كنا نجتازها، وأخيراً هدأ المحرك وتوقفت السيارة أمام (الفيلا) الغامضة والمرعبة التي سندخلها.

نزلت السيدة الكبيرة وهي تلملم ذيل عباءتها المبلل، تحتضن الكيس تحتها، وهرولت نحوالباب الحديدي لتفتحه، شدتني(فريدة) نحوها، وصعدنا بضع درجات حجرية في الظلمة، حتى وصلنا درب

الحديقة الضيق، بعد أن أضاءت لنا السيدة النور، ثُمَّ أدخلتني إلى استراحةٍ واسعةٍ تقع بمستوى الحديقة، مفروشة بعدة أطقم من الكنبات المريحة الواسعة، كانت القبلات الشبقة، تمنعني من الحديث، وتمنعني من التنفس، استرخيت بعدها كي تأخذ بعضاً من الوقت للحديث، وتشعر أني لن أهرب من قدري! وأني سأتقبل المغامرة مهما كانت نتائجها!

ولكنها تعاود النظر إليَّ بكثير من التَّحدي البشري ذي الأسرار الدفينة وأثرٌ من الحزن يحيط جوانب شفتيها الممتلئتين، وعينيها المخضلتين بالدمع، دفعتها بلطفٍ فهدأت، وابتعدتُ عنها قليلاً، ولكنها مع ذلك لم تترك يدي.

فظلت تمسك بهما كطفل لا تود تركه فقلت: فريدة، أنا رجلٌ غريب عن أسرتي وبلدي، وأناً مسؤول عن إعالة إخوتي، لذلك فأنا ضعيفُ الحال كما تَرَين ومن كل الجوانب، ولا أريد متاعب لك أولاً ولي ثانياً فإذا أردتِ أن أكون نزوة عابرة في حياتك فأنت حرة في ذلك، ولك من الرجال ما تختارين، ولكني لستُ الرجلَ المناسب، فأنا أعمل في أقصى الشرق، ولن أبقى هنا سوى بضعة أيام، كانت تنظر إلى شفتي، وعيناها تهطلان بالدمع، وعندما سكتُّ رطبت شفتيها قائلة: يا محمد وجودك معي هذه المدة تكفيني مدى عمري الباقي، فأنا محتاجة لرجل يفهم روحي قبل جسدي، إنّ جمالي -إن كنت جميلة كما يقال- هو مصدر شقائي وعذابي لا أريد منك سوى البقاء لتلامس روحي التي تبحث عن مكان بين الأرواح، لقد سئمت الرجولة الكاذبة!!..

ضغطت على يدها ورفعتها إلى شفتي وقبلتها طويلاً وقلت:

- فريدة أنا أتحدث عن وجودي هنا، دون غطاء أحتمي به، فإذا

استطعت تغطية بقائي فأنا مستعدٌ للبقاء، وسأحمي روحك وأجرب روحي القلقة التي لا تعرف السكون!

– محمد أنت لا تعرفني، ولا تعرف علاقاتي العامة! ولكنك ستعرف من أنا عندما تعاشرني، وسأجعل منك سيداً لا يمسه أحد، ولو كان من علية القوم!! لا تخف يا محمد فإن العالم لا يفكر بعقله ولكن بعقل نسائه وعشيقاته!!

هيا لندخل الدار "يا عمري" لأن ماما ستكون قد جهزت كل شئ لنا، ولتعلم أني أثق بـ ماما، كما أثق برب العالمين!

–3–

غرفة الجلوس إيوانٌ فارسيٌّ مفروشٌ بالسجاد الفاخر، والجدران مطرزة بلوحات من البسط المشغولة بالأنامل، عربية الطراز، مساندُ الظهر مغلفة بالسجاد والدانتيل المخرم الأنيق، ومدفأة الدار يتوهج فيها الحطب المشذب بقياسات متساوية، ورائحة البخور تعطر أجواء المكان مختلطة برائحة الصنوبر المشتعل وماما خلعت الملاءة تُسَوّي حطب الموقد بملقط نحاسيٍ طويل، وتدخل فريدة وقد تزيت بلباسٍ من الساتان الزهري، مع خُفٍ جزائري مشغولٍ للعرائس! شرعت ماما بعدها بتسريح شعر فريدة وتزيينها بأدوات الزينةً الفرنسية غالية الأثمان، وأنا بمنامةٍ مقلّمةٍ من القطن الناعم، أبتسم في صدر القاعة بعيداً عن النار، لعيون فريدة الضاحكة للحياة، والضاجة بالعشق والوله، لوحة لن أرى مثلها في مستقبل حياتي، ولا أجمل ولا أصدق منها، وحتى الآن أحب أن أرى لوحة " دولاكروا" في " نساء جزائريات" فأصدق ما رسمه، وأصدق حدسه الداخلي، ومغامراته القاتلة، ولكن عيني تمتلئان دموعاً حارةً وبشكل مباشر لا أعرف كيف، (واحسرتاه دائماً إنسان! واحر قلباه!)،

دائماً دموع هكذا قال (موسيه).

قدمت لنا ماما كل شئ يُأْكَلُ مع المشروب –من موجودات الثلاجة العامرة– وبدأنا نحتسي أقداح الشراب ببطء شديد، فَلَيْلُ الشتاء طويلٌ، يمنح الوقت للسُّمَّارِ والساهرين وللشعراء، ليمتحنوا قلوبهم ومشاعرهم، وفريدة تتوسد ركبتي برأسها، وعيناها مركزتان صوب وجهي، فألمس جبهتها، وأنفها، وفمها، وذقنها، ورقبتها وأُبْعِدُ الشعر عن أطراف أكتافها وأقبل يديها الصغيرتين، المضمختين برائحة الحياة، ولقد عرفت ساعتها لماذا يموت العشاق غير آسفين على حياتهم مقابل نظرة واحدة من المحبوبة، وعرفت أيضاً لماذا يقدم العشاق على الموت الذاتي والإنتحار، فالموت أهون من البعاد والارتحال والهجران، ومن قال بأن القديسين دون معشوقات، لقد كانت مخيلتهم المثالية تخلقهم وتصورهم، فالحكمة لا تأتي من الوحدة ولكنها من التجربة الروحية الداخلية، لتصور المثال الحق للحياة وهوسعادة الذكر وأنثاه.

جلست ماما بجواري وحَدَّثَتْني عن الأقدارِ بحكمةٍ بالغةٍ، وتحدثتْ عن حياة فريدة الخاصة، وكم هي بحاجةٍ إلى رجلٍ يحميها دونما استغلال أوخداع، يُحبها لذاتها، لا لمقامها وشأنها، ويحبها مع ابنتها أيضاً، كانت لهجة ماما لهجة أهل العاصمة الجميلة الوقع على النفس، حروفها تخرج واضحة رغم خلطها بكلمات قبائلية وفرنسية.

نادتني فريدة إلى غرفة مجاورة واسعةً ومملوءةً بطقم من الكنبات ذات طراز شرقي وثير، وأدارت اسطوانة زادت الموقف عاطفة مشوبة بالحزن والألم "طول عمري عايش لوحدي، (فريد) وراضي بحالي".

لمحمد عبد الوهاب وجعلت ضوءاً خافتاً ينير الغرفة، ولما صدح الصوت الشرقي الملكي، رَجَتْني فريدة أن أشرح كلمات الأغنية مركزة

على كلمة (فريد) الـذي يمـاثل اسمها بـالمعنى، وراقصتنـي بحالـة مـن الوجد، والدموع، وهي تعتصرني بأنين خافت يميـت القلـوب السـليمة، وكلما شرحت بعض المقاطع كلما ازدادت نحيباً لقد لعبـت الخمـرة دوراً في هذا المشهد الدرامـي، أقفلـت الجهـاز، وجلسنا علـى كنبـة طويلـة ورفعت رأسها بكلتا يداي، وأشـبعتها لثمـاً وتقبيـلاً كـي أطفـئ الحريـق الذي اشتعل بكيانها، وبدأت أعصابها المتحفزة تهدأ قليلاً وأنـا أحـاول استرجاع نظراتها المشعة بالضياء والحياة.

– فريدة أنا سـأترك البيـت حـالاً! إذا ظللـت هكـذا، إنـك تبديـن كإمرأةٍ فقدت عزيزاً عليها، ها أنت تزيدين حطامي وألمي!

– محمد: أملك هذه الأسطوانة منذ عدة سنين وكلما أردت اكتشاف ذاتي أدرتها وبكيت حتـى يريحنـي البكـاء، رغـم أنـي لا أفهـم الكـلام كثيراً، وأعدك باني سأرتاح الآن ونرجع إلى ماما.

– نعم سنرجع ولكن دون أن نتابع المشروب، وسـأراك وردة نضـرة صافية، كما وجدتك في المقهى، لا أريد أن أغير الصـورة الرائعـة التـي كنت بها، ولا أريد أن أتصورك في حياتي كلها إلا في نفـس الموقـف، لأنه يتصف بأقصى درجات الإنسانية الشـفافة، والآن يـا مامـا نريـد أن نشرب قهوة من صنع يديـك الحلوتيـن، وأمسـكت بيديهـا المعرورقتيـن وقبلتهما، فلثمت جبهتي بإحساس الأمومة!

– محمد أنت تتصرف بسلوك يكبرك كثيراً، إنـه تصـرف المسـنين العقلاء، وأنا لم أعتد إلاّ على الطيش والعبث، وإذا بقيت معي فسـتجعل مني تلميذة متزنة!.

– فريدة من السـهل أن يكـون الإنسـان عبثيـاً وطائشـاً، ولكـن مـن الحكمة، أن يتصف بـالقليل مـن العقـل والإتـزان، وإلا فقـدَ بذلـك طعـم

الحياة.

ازدادت اقتراباً مني، وتركت شعرها يغطي وجهي وهي تلثم صدري المملوء بالآهات والحسرات، ولولا القهوة اللذيذة، أمام الموقد المشتعل مع لفافات التبغ، ومحاورات ماما لكان القلب قد انصدع كحجارة الصحراء تحت لهيب الشمس الحارقة.

قضينا الليل كله في فراش واحدٍ، وأنا كتلميذٍ، دخل حجرة الصف لأول مرة في حياته، وهويرتعد خوفاً من المجهول الجديد، وتعلمت مبادئ القراءة والكتابة على يدي أستاذ محترف، يحب الأولاد ويتقن المهنة، قدمت لي وجبة دسمة من نشوة الحياة، ودرساً رائعاً لاينسى من اتحاد البشر تحت مظلة من روح الأنثى، التي تجعلك سيداً متواضعاً، مما جعلني أتذكر شريطاً سينمائياً -نسيت عنوانه - للممثلة ا لفاتنة "مارلين ديترش" التي جعلت رجالات عصرها بعد أن جربت معظمهم يبيتون في الطرقات ليلاً لإنتظارها، ويتحولون إلى مهووسين بلقائها ثانيةً، إلا أنها كانت تدوسهم واحداً تلوالآخر، حتى جعلت حياتهم جحيماً وكل ذلك من خلال تجربة واحدة.

وكنت أطمئن نفسي كلما مَرَّ يومٌ آخر، بأن فريدة لن تدعني ابكي تحت نافذتها.

-4-

مرت أ ربعة أيامٍ بلياليها، وأنا أخوض في بحرٍ من الشهد، ليس له قرار، ولا أستطيع الخلاص من طعمه، ورائحته التي تفرح القلوب، كنا نستيقظ متأخرين، نستحم، ونأكل قليلاً، ونتحدث مع ماما عندما ترجع من السوق، ونساعدها في توضيب الحاجات، نستمع إلى الكثير

من الأغنيات الشرقية، والجزائرية، والفرنسية، ننهمك طوال النهار في قبلاتٍ لا تنتهي، نلعب الورق لتمضية الوقت أمام الموقد، وتتركني أغفو قليلاً بعد الغداء، وعندما أصحو كنت أسمع هطول المطر وصفير الريح على سطح القرميد الذي نختبأ تحته.

وأسمع صوت السيول، وهي تهدر في الطرقات المجاورة دون أن أرى شيئاً إلا حين أفتح ستار النافذة في الظلمة، فأرى العاصمة في أجمل حللها، تتحضر لعرس رأس السنة الميلادية، تلمع أنوارها تحت المطر كأنها سماءٌ كبيرة رصعت نجوماً في ليلة صافية من ليال القرى الوادعة.

كعادتنا في المساء نبدأ احتساء كؤوس الشراب، وصوت (أم كلثوم) مرةً و(عبد الوهاب) مرةً أخرى يصلنا دافئاً من الغرفة المجاورة،ليضفي على جلستنا الكثير من الصفاء والزهووماما تروي لنا حكايات من جوانب حياتها، ولأول مرة يرن جرس الهاتف فتهرع ماما للرد وفريدة تلتزم الصمت حتىعودتها.

-فريدة (سي بوعلام) يريد محادثتك حالاً قالت ذلك وقد تغير لونها، وتهدج صوتها، كأن حلقها قد أصابه الجفاف.

-قولي له أني مريضة وتواً جئت من الطبيب وأنا على السرير. غداً سأحادثه.

-ولكن يا ماما فريدة... هذا سي بو... ولم تدعها فريدة تكمل جملتها

-أخبريه كما قلت لك وكفى ثُمَّ أغلقي الهاتف!!

عادت ماما للجلوس معنا، ولكن حالتها وحركة جسدها تدل على

القلق والتوتر، وقد حاولت استرجاع حالتها الطبيعية، ولكن ما يدور في رأسها -لا أعرفه- حال دون ذلك، وبقيت صامتة هائمة ! !

-محمد هذا أحد معارف زوجي القدماء، وهوالآن في منصبٍ رفيع، ويريد دعوتي للسهر أوللعشاء بعيداً عن زوجته وعن أعين الناس، ليظل محتفظاً بأخلاقيات المنصب، وأنا أعرف السلوك الملتوي لهؤلاء الناس، لقد خبرتهم وأعرف سلوكهم.

ارتاحت ماما قليلاً وعاودت النظر حولها باطمئنان، وارتحت معها وعاودنا السمر والاستماع، وأعدت ماما أدوات الزينة لتبدأ بتحضير عروس البحر الغامضة أمام عيني، ولكني طلبت منها - هذه المرة- أن تدع عروستي كما خلقها الله! لأنها بذلك أكثر جمالاً وصدقاً من كل الأصباغ والألوان، وقلت مازحاً:

-فريدة هل تودين أن تسمعي ما قاله العرب القدماء في جمال المرأة فهزت رأسها موافقة، بعد أن ألهبت حلقها بكأس كامل من الشراب.

-يقولون: الحلاوة في العينين، والجمال في الأنف، والملاحة في الفم، فأنا مقتول بجمال عينيك لأنهما أول شئ رأيته منك في مرآة القهوة، وأنا أذوب في ملاحة فمك، الذي طبع ابتسامة صغيرة عندما التقينا، ويروقني أنفك، الذي يدل على نبالة أصلك، أحبك كما أنت يا فريدة، وماما تسمع ثُمَّ تحمل بضاعة الزينة إلى حيث موقعها، وبعدها أنْضَجَتْ لنا الكثير من حبات الكستناء على جمر الموقد المتأجج، وشدت لنا أسياخاً عديدة من ا للحم فعاودني الحنين إلى دمشق ومرتع الرَّبْوَة مع العرق الشامي الطيب الطعم، ونسمات بردى الهادئة، في ليلة صيفية ممتعة، وصوت (العتابا) و(الميجانا) يدير القلوب والعقول.

(أوِ يا دمشق كم من العشاق يتهيبون حباً بفطرتك الندية) آوِ يا أمي، كم تشبهك هذه المرأة، التي دخلت حياتي دون استئذان، ولكني لا أعرف كيف ستخرج؟!)، و(آوِ يا أبي كم أعرف أنك تحب النساء الجميلات ولكنك ستحسدني عندما ترى محبوبتي، ولن توبخني أوتزجرني، لأني أحببت، وتعلق قلبي بهذا المزيج من عصارة الدنيا الذي لا يشبه أحد).

–5–

استيقظت على صوت فريدة وهي تفتح النافذة، وتحادث جارتها الفرنسية في الفيلا المقابلة، حديثاً فيه نوعٌ من العتاب، لأنها لم تعد تراها ككل يوم، فتعللت فريدة بالمرض المفاجئ على أن تزورها مساءً.

–فريدة أود اليوم أن أرى وجه ربي فأطلقيني، فأنا أحب المشي في طرقات المدينة، وأحب معاشرة المقاهي، ابتسمت، وضمتني في الفراش وهمست في أذني: لن تجلس في (الطانطون فيل) كيلا تنظر إلى النساء!

وسأهاتفك لأسمع صوتك في مقهى (اللوتوس) وبعدها سآتي لآخذك بالسيارة.

فتذكرت شعراً

سلاماً، يا صديقتي الوفية!

سلاماً، يا مجدي، يا حبّي!

أنت خير من أجده

لدى عودتي، وأعزه

افتحي ذراعيك، إنني قادمٌ لأغني.

أهدتني قميصاً جديداً، وربطة عنق مقلمة بخطوط زرقاء رفيعة، تلائم البدلة، مع جورباً جديداً، وأعادت ماما كيَّ البنطال، ومسحت الحذاء بقطعة قماش لينة الملمس، وأنا أذوب خجلاً لهذا الموقف الذي لم أعهده أوأعتده فطوال حياتي كنت معتمداً على ذاتي في تنظيف ملبسي والاعتناء بأناقتي، فأنا لا أحب مَسَّ كرامة الغير، لأنه لا يليق بالإنسان أن يكون (جنتلماناً) مزيفاً بالقفز فوق القيم المقدسة للإنسان، مهما كان وضعه وعمله كانت فريدة تضبط شكلي، وتشبعني من حلاوة نظراتها، ومرددة كم (سأشتاق إليك)!

نَزَلْتُ أدراجاً حجرية لا حَصْرَ لها، وأنا أقطع الشوارع الملتفة حول الجبل، كي أصل إلى الشارع الرئيسي المؤدي إلى المدينة، كان الجو بارداً، رغم توقف الأمطار، ولكن الشمس كانت تدفأ الجوبحياء، تنفست هواء رطباً منعشاً وأحسست بالحرية!! وأنا أضع يدي في جيبي المعطف المفتوح كي أبدوكممثل سينمائي تعشقه الفتيات حين يُذْكَرُ اسمه! بدت لي المدينة مُلكاً لي وحدي، وبدت الشوارع والحوانيت والحانات، كأنها أشياء تزخرف لي حياتي، وتضفي عليها رونقاً خاصاً، نسيت شارع (فيكتور هوجو) ونسيت بيت صديقي ولكن المفتاح مازال مخبأً في جيبي لوقت الحاجة، أو لوقت الرحيل.

وضعت بطاقات العيد في أحد صناديق البريد المركزي، فانزاح همٌّ عن قلبي كنت أغوص فيه، وقررت الوصول إلى (الطانطون فيل) وأجلس على نفس المقعد الجلدي الذي جعلني أرى نفسي في مرآة حبيبتي لأشرب فنجاناً من القهوة فقط، دون إطالة الجلوس، فاستقبلني نادل البار الكهل مرحباً هذه المرة، فطلبت قهوتي وأخذت مكاني ترك النادل البار، وحمل القهوة، وسوى الطاولة ووضع كأساً من الماء عليها وقال

كأنه يريد أن يقدم لي تهنئة: لقد كان صيدك ثميناً في المرة الماضية أليس كذلك؟

-يا صديقي أنا لا أصطاد ولكنه تعارفٌ عاديٌ، لم يدم أكثر من قطع الشارع ولتعلم بأن الصيد في بلادكم يحتاج إلى مدافع رشاشة وأنا لا أملكها؟!

شعر النادل أنه أخطأ الهدف، فاعتذر بطريق المزاح - وهوماهر بذلك - نظراً لكثرة تجاربه اليومية، تظاهرت بالقبول وشربت القهوة وأنا أستعيد ما جرى بدقائقه، وعيناي تنتقلان بين طاولات المقهى المحشوة بالزبائن كعادتها، غادرت، وأخذت سيارة أجرة لأصل إلى (اللوتس).

وبعد أكثر من ساعة سمعت اسمي مطلوباً على الهاتف وكان الليل قد خيم على المدينة كلها كلمتني فريدة واطمأنت على وجودي على أن تكون في ركن الشارع بعد ساعة من الزمن، طلبت وقتها كأساً من الكريستال وجعلت أرتشف منه ببطء كي يمر الوقت، وأنا أراقب السيارات والمارة والمتسكعين الذين يبحثون عن شيءٍ ما في هذا الجو المكفهر بغيوم سوداء داكنة تغطي صفحة القمر والنجوم، وجعلتني الكأس الثانية في مزاجٍ أستطيع من خلاله أن أخترق حالتي النفسية، وأطرح أسئلة مريعة كانت تلح علي: هل تعاني فريدة من أزمة ما خلال خيبات وإحباطاتٍ عاطفية متتالية؟؟ أم هي تبدل عشاقها؟؟ أم تخشى الوحدة والعزلة فدخلت حياتها كي أخفف عنها عذاب الماضي ومرارة الحاضر؟؟ وهل أنا الإنسان الأخير الذي وضعه القدر في طريقها؟ وإلاّ لماذا ترعاني هكذا وتدفعني للبقاء في أحضانها إلى آخر العمر كما أقسمت على ذلك بأشد الإيمان؟!

لم أستطع الإجابة عن أيٍ من الأسئلة فما زال الوقت مبكراً فتركت

التفكير بذلك، وسلمت نفسي للقدر، فهوأكثر نفوذاً وسلطة من العقل والعاطفة، وهوالذي سيدلني على الطريق، ويدلها على الصواب، وصوت داخلي يدفعني نحوالحياة والمسرة قائلاً: (إذا حدث شئ سار وجب الاستمتاع به بأكمله، بدون التوقف كي نفكر في أنه ليس مضاهياً في مسرته لشيء أخر لم نحصل عليه).

-6-

كانت تنتظر وصولي، وهي متوقفة في ركن بعيد عن المقهى، جلستُ بجانبها فأحسستُ بالدفء، وبدأت أنظر إلى جاذبيتها، في ثوبٍ صوفيٍ، أسود اللون، تحيط رقبتها بشال من الصوف الوردي، فبدت أكثر امتاعاً وجمالاً قبلت وجنتيها، وأثنيتُ على جمال ثوبها، ابتسمتْ بهدوء وانطلقت دون ترحيبٍ أو كلامٍ بغير اتجاه المنزل، فتركتها دون كلامٍ حتى بادرتني:

-محمد: سنهرب بعيداً عن العاصمة وسأريك أماكن جديدة ستحبها، وبنفس الوقت تقضي وقتاً لإستنشاق هواء منعشٍ وجديد، ولكن اقترب مني أكثر، فأنا أشعر بحاجةٍ إلى دفءٍ أكثر.

كانت طرقات الإسفلت نظيفةً ولامعةً، من أثر المطر الذي غسل أدرانها، ورائحة البحر تعانق حواسنا، والأضواء تتلألأ بعيداً وعلى جوانب الطرق، متراقصة كأن الريح تهزها بعنف.

توقفنا في نهاية شارعٍ طويلٍ في آخر العاصمة واحتسينا كأسين من (المارتيني) في مقهى تغسل قدميه مياه الشاطئ، وشعرت وأنا أنظر حولي بلا نهائية العاصمة، فهي ممتدة عشرات الكيلومترات من الطرفين، وكنا نتوقف أحيانًا في أمكنة عالية مطلة، ونفتح نوافذ السيارة

للهواء، ونتبادل القبل كالعصافير التي تهاجر عبر الطبيعة.

وأخيراً وبعد سير طويل باتجاه الغرب توقفنا في قريةٍ هادئةٍ خلاّبةٍ، لها شاطئٌ صغِير فيه كثير من البيوت الخشبية المتناثرة والمهجورة، ودخلنا استراحةً تعرفها (فريدة) محاطة بسور زجاجي من كل الجهات تناولنا فيها عدة أكواب من الشاي الأخضر الساخن، الذي أضفى على أجسادنا جوّاً من الدفء المحبب.

وتركت فريدة تتحدث عن كل شئ، كانت هادئة، ومنطلقة، ومعبرة وصادقة، وكلما ازدادت كلاماً كلما ازددت صمتاً، وأنا أنظر إلى محياها وحركة يديها وعينيها، كانت بالنسبة لي هديةً من السماء، وهبت للأرض، وكل نظرة في وجهها تستفز عواطفي للبكاء - لا ضعفاً في رجولتي- ولكن لأني أعرف نهاية اللعبة!؟وأعرف بأن الزمان سيقسوعليَّ في المستقبل، وسيجعل من ذكرياتي مفرشاً يومياً، لطقوس الحسرة والأسف، وصرير الأسنان، كل كلمة، وهمسة، وضحكة، أو نشوة، ستظل كالأنشوطة تحيط برقبتي، لأني أعرف بأني حكمت على نفسي بالإعدام. ولكني كنت كذلك سأظل غبياً لأني لم أجرؤ على إزاحة الكرسي الذي كنت أقف عليه؟!

بعدها بدأت نظرات فريدة تميل إلى الإمتثال للإتحاد بشهوةٍ جامحة، فشعرت وقتها بالحاجة للعودة إلى منزلنا فماما بانتظارنا وهي لابد قلقة علينا فلم يطل وقت العودة كثيراً فكنّا في التاسعة نركن السيارة أمام الفيلا، وسيارة من نوع (المرسيدس) سوداء اللون تقف على بعدٍ قليلٍ منّا، وهي المرة ا لأولى التي أشاهدها هنا!!

أسرعت فريدة بالقول:

—محمد انتظرني هنا في صالـة الحديقـة، ولا تشـعل النـور، ولا تخرج إلاّ عندما أناديك، فأحدهم دخل الفيلا، وهوالآن عند ماما بانتظار عودتي، سأصرفه، لا تخف ولا تنزعج.

دخلت الصالة وأخذت لفافة، وجلست على كنبةٍ بجـانب النـافذة، تبينتها حين أشعلت الولاعة؛ وأنا غارقٌ في صمتٍ يشوبه نوعٌ من الحذر والخوف من المجهول، وبعد دقائق تناهى إلى سمعي حـوارٌ سـاخن فيـه عتابٌ ثقيل، وكان صوت فريدة حاداً، وذو نبرة فيها صلابة الموقف، ثُمَّ وَقْعَ خطواتٍ سريعةٍ تغـادرُ ممشـى الحديقـة، باتجـاه البـاب الخـارجي للفيلا ثُمَّ صوت السيارة يخترق جدار الصمـت، وانطلاقـاً علـى الإسـفلت يدل على نفاذ الصبر والإنزعاج.

أخذتني فريدة من يـدي وهـي تحكـي لُغـةً لاأفهمهـا ولكـن نبرتهـا كانت نوعاً من السباب والشتيمة!

أضاءت الممر ودخلنا وصوت فريدة لا ينقطع.

—ماما ألم أقل لك ألاّ تدخلي أحداً في غيابي كيف حصل هذا؟؟

—يا فريدة، لقد أصر على البقاء بعد أن صـرف سـائقه، وهـا أنـا ارتعد لأني لم أستطع إقناعه بأنك مريضـة وأنـك عنـد الطبيـب، بعدهـا بكت مامـا بحرقـة، ولـم تعـد ترفـع رأسـها عـن الأرض، تقدمـت منهـا وجلست جانبها أواسيها بكلمات تنم عن الإعتذار وطلبت مـن فريـدة أن تعتبر الأمر منتهياً فأنا السبب في ذلك!

—لا يـا محمـد أنـا السـبب، أريـد أن يخـرج هـؤلاء النـاس مـن حياتي، لأني لست محتاجة لمجدٍ مزيف.

فهم يعتبروني دمية يتسابقون على سرقتها كالأطفال، إنهـم يـودون

إشباع غريزة التملك الكامنة فيهم ليس إلاّ.

—فريدة: اسمعيني جيداً، لقد بدأت متاعبك منذ هذه اللحظة، وأنا لا أود أن تذكري إسماً من أسماء تلك ا لشخصيات فهذه أمورٌ وقعت وجرت رغم إرادتك، ونظراً لظروفك الشخصية، وأنا أعذرك على ذلك، ولكن فكري الآن بمتاعبك القادمة بصورة جادة، وأنا وأنت سنبتعد عن بعضنا، ولكني أفضل أن أموت قهراً، دون أن يمسَّ حياتك يأسٌ أومكروه.

قامت ماما وضمت جسدينا واتحدت معنا في مأتمٍ من البكاء الصادق النبيل، ولقد أضفى الحادث ظلالاً قاتمةً على وجودنا، فتاهت فريدة في شرود طويل، ولم تعد عيناها سوى قنديلين أرهقهما طول السهر، وأكثرت من التدخين، والشراب، وفي منتصف الليل استيقظت أنوثتها وشبابها، وصعدت العافية من قلبها إلى وجهها النضير، وأعدنا حياة العشق فكأن شيئاً ساراً دخل قلبينا، فوجب علينا الإستمتاع به كاملاً حتى الصباح.

–7–

عند ظهيرة اليوم التالي، تركت فريدة نائمة في السرير وتسللت إلى المطبخ، لأجد ماما قد حضرت لي القهوة، ولكني كنت متكدراً تلفني الكآبة، فَحَدَثُ البارحة كان قد أيقظ لدي شعوراً غامضاً ومراً، أحسست أنه يصعد إلى رأسي، من أعماق قلبي، قوةً لا أستطيع الوقوف أمامها، وقادرة على سحقي في كل لحظة، وأنا مازلت على عتبة الأمل، فقررت مغادرة المنزل، لأستطيع جمع شتاتي، واتخاذ القرار الذي لا يمسُّ شعور فريدة، وانتظرت حتى استيقظت، وشربت القهوة ثانية معها، ودخنت الكثير من اللفائف، ثُمَّ أمسكت يدها ونظرت إليّ بنقاء الصباح

-فريدة أحب أن أسير قليلاً، وأطمئن على بيت صديقي، وسأعود في المساء لوحدي دون أن تشغلي نفسك بالمجئ لأخذي.

ابتسمت وطبعت قبلة على شفتي

-نعم ولكن في السادسة ستكون هنا، وخلال غيابك أكون قد استقبلت ابنتي مع مربيتها، وتسامرت مع الجيران الذين يودون زيارتي، وإذا لم تأت سأتلفن للمقهى وآتي بسيارتي، فلا تجعلني قلقة أرجوك فأنت تعرف أين أقف وستجدني هناك.

حضنتها بكل قوتي، وتمليت طويلاً عينيها، وشعرها وأنفها وفمها المبتسم الحزين! وأردت أن أبكي وأنا أقبل وأشم شعرها ويديها ولكن الدمع لم يسعفني هذه المرة.

نزلت درج الفيلا وأردت إغلاق ا لباب الحديدي ورائي فإذا بها على نافذة غرفتنا ترفع يدها العاجية لتطبع على فمها قبلةً حملها هواءٌ معطرٌ، وأسكنها قلبي.

تسكعت طويلاً في طرقات المدينة الباردة، وكلما هطلت الأمطار أحتمي بأحد المقاهي، لأحتسي مشروباً ساخناً. وكم كان (أندريه جيد) صادقاً عندما قال في كتابه "قوت الأرض" (مدينة الجزائر ترتجف من الحب نهاراً، وتهيم في الليل غراماً) ومع ذلك فإنه لم يكن يميل نحوالصدق عندما قال: " مقاهيها ملآى بالغانيات يرقصن على ألحانٍ موسيقيةٍ حادةٍ، والعرب يجولون فيها بثياب بيضاء".

فالصدق أن مقاهيها ملآى بالآهات الشرقية الحزينة. التي تستقر في قلوب الرجال من العرب.

وقرابة الخامسة بعد حلول الظلام أخذت سيارة أجرة صاعداً إلى

(منزلنا) وطلبت من السائق أن ينزلني بعيداً عن ا لفيلا وسلكت بقية الطريق ماشياً، وعندما هممت بفتح الباب، فإذا بشئ حديدي يلاصق منتصف ظهري قائلاً بلهجة صارمة: هيا ارجع، ولا تعد ثانيةً، وإلا ستدفع روحك ثمناً لذلك!!.

استدرت واجفاً مدهوشاً، دون أن أسأله من يكون! لأن مظهر وجهه يدل على أنه من صنف الكائنات الليلية، التي تعيش في الظلام، وتقتل في الظلام بدمٍ باردٍ، دون أن يتحرك في جسدها شعرة واحدة، تابعني بمعطفه الطويل، ويده على الزناد حتى بدأت أنزل درج الشارع الطويل، وكلما ازددت نزولاً كلما طالت خطواتي. وأصبح الظلام أكثر قتامة في عيني، أشرت ليسارة أجرة تقلني إلى مقهى (اللوتوس) وحال دخولي، طلبت كأساً من الكحول لعله يطرد الرعب الذي داخلني، وبقيت أنتظر هاتفاً، حتى السادسة عندما جاء الفرج، وأمسكت السماعة ورأسي يضج بأفكار لا حصر لها متسارعة لا تنسيق بينها.

-محمد لا تذهب إلى أي مكان أعرف ما حصل! سأكون عندك حتماً ولوتأخرت، وسنجد حلاً.

-فريدة حفاظاً على حياتك أرجوأن تعالجي الأمور بهدوء فهؤلاء الناس لا يسقطون بسهولة، ولا يستسلمون سريعاً، يجب أن تجدي حلاً معهم، يُعيدُ لك حياتك الهادئة، بعيداً عن العنف والقسوة، وغداً ساكون في عنابة هاتفيني على فندق الشرق مساءً وسأكون بالإنتظار وداعاً يا... وغاصت الكلمات في حلقي، وابتلعت شوكاً صحراوياً.. يا ... وحيدتي..

وبعد أن سلمت مفتاح شقه صديقي الدمشقي إلى جاره، أخذت قطار الثانية بعد منتصف الليل إلى قسنطينية، ودون أن أغادر عربة الإستراحة في القطار، وأقداح البيرة تتوالى أمامي على طاولة البار،

وفتاة فرنسية بصحبتها شاب جزائري سكرى من الشراب، بدأت تنادي وتصرخ بأعلى صوتها " عاشت فرنسا.. عاشت فرنسا". والآخرون يبتسمون لها،لأن فرنسا بعيدة عنهم، ومع ذلك ما زالت تشكل جزءاً من قلوبهم وأفئدتهم.

وفي الصباح، وبعد أن قضيت الفجر في مقهى المحطة الدافئ شربت القهوة فانتعش جسدي وعقلي، ثُمَّ استقليت سيارة أجرة متجهة إلى عنابة التي أحبها –وردة الشاطئ الجزائري النضرة– وصلتها في بدايات النهار فأسرعت إلى غرفتي الواقعة على أطراف المدينة ونمت ساعات طويلة بهدوء وسكينة!!

وفي المساء المكفهر بالغيوم المتراكمة على أعالي الجبال، دخلت مقهى فندق الشرق، فاستقبلني الصَّحابُ بترحاب فيه الكثير من الود الصادق، سائلين عن أحوالي وسفري، فكذبت في كل شيء!!

وجاء عامل السنترال في الفندق ليخبرني بأن سيدة هاتفت من العاصمة وتركت لك هذا الرقم وهي تنتظر مكالمة منك وعليَّ أن أخبرك يا سي محمد بأني أحسست غصة بكاء في كلامها، مع توتر شديد، وأكثرت من رجائي كي لا أنسى إخبارك، وسلمني رقم الهاتف مكتوباً على قصاصة صغيرة شكرته وطلبت منه أن يطلب الرقم ويحول المكالمة إلى غرفة الهاتف المجاورة للإدارة.

لم تمض سوى بضع دقائق فإذا به يشير لي بالدخول إلى (الكابين) رفعت السماعة وسمعت صوتها آتياً، يقذف حمم البراكين في إحساسي، غاضبة بأدب، ومتأسفة بحنين، ومأكدة بأنها ستظل وفية لعلاقتنا حتى ولواضطرت للسفر خارج الجزائر.

-سألتها عن ماما وتابعت حديثي معرباً عن مدى حنيني واشتياقي لرؤيتها مضيئة نضرة وسعيدة، ووعدتها بأن أكلمها متى أرادت ذلك، عانقتها كلماتي، فبكت بصوتٍ حطم أعصابي.

-محمد لا تخف من شئ، فأنا كما قلت لك سيدة الموقف لقد كان موقفك سليماً عندما غادرت لأنك ستصدم بأشرس أنواع البشر، فهم يتربصون بكل شئٍ جميل ونبيل ليقتلوه، إني مسرورة لأنك بخير، وسنظل بخير، ولكن لا تنسى أني أخابرك، كي تطلع على مجريات أموري، إذا كان ذلك يهمك!

-فريدة: أنا يهمني أمرك، وأمر ابنتك كما تعرفين، فالتردد في اتخاذ القرار سيزيد من متاعبك وارهاقك أليس كذلك؟!

-نعم يا حبيبي، سأظل حكيمة كما علمتني وسأتصرف بعقلانية ولن أسمح لأحد أن يمسني بعد الآن.

-والآن يا فريدة أنا فرحٌ لأني سمعتك فكأني أعيش قريباً من جسدك وروحك، ولكن قاتل الله الغربة يا فريدة وسأودعك الآن مع قبلاتي الحارة وسلامي لإبنتك ولماما.

-بالسلامة يا راحة القلب. ثُمَّ أغلقت السماعة وشعرت بعدها وأنا في هذه الزاوية الضيقة من العالم كيف يحكم الإنسان على نفسه بالبقاء أو بالموت، في خضم هذه الحياة المتدفقة بالأحاسيس حلوها ومرها أو بالانغلاق على الذات في ركن كهذا الذي أجلس فيه.

مرّت الأسابيع والشهور، وأنا أحاول الاتصال ولكن لا مجيب انتظرت على السنترال كي يناديني يوماً، ولكن بقيت نظراته دون معنى، وبدأت حياتي أيضاً تسير بلا معنى ولكني واظبت على السير

بجانب القدر ! !

وقبل نهاية السنة الدراسية جاء الهاتف وفريدة تكلمني بصوتٍ بعيد الغور، وغير واضح وكنت مذهولاً لا أكاد أفهم سوى أنها في فرنسا وستظل هناك لفترة غير محدودة.

أغلقت الهاتف يتقاذفني الحزن والسرور، وأنا لا أستطيع أن أختار أيهما أفضل لي، لكن الحزن أصرَّ أن يدخل النفس ويولد ألماً وحسرة حتى هذا اليوم.

وعندما أستعيد الذكرى أستعيد معها قول " فرانسوا ساغان":

"ورغم ذلك فإنها لم تكن صورة هزلية ومضحكة للحب".

التدوينات الأخيرة

1- مداوروش : قرية من النبلاء

2- مداوروش : نجمة من الماضي

3- وداعاً يا أرض المنب الحزين

مداورش: نجمة من الماضي

(تَطَهَّر من كلِّ ما هو حِسِّيٍّ وخيالِيٍّ وعقلِيٍّ
كيْ تُشاهدَ اللهَ في قلبك واعملْ صالحاً، تكتسب
الفضيلة وتأهل للتأمل، بالطمأنينة والطهارة، ثم
أدخل في النُور لِتَصِلَ دَرَجَةَ المقام)

القديس أوغسطين تلميذ أكاديمية مداوروش

— 1 —

(مداورش) إحدى القرى الجميلة التابعة لولاية عنابة باتجاه الجنوب، اختار لها الفرنسيون اسماً لأحد كتابها العظام (مونتسيكو) وهي في الحقيقة لا تحتاج إلا لإسمها اللامع عبر التاريخ الجزائري فهي أحد أضلاع المثلث الذهبي، الذي اشتهر أيام الرومان، وقَدَّمَ للعالمِ آنذاكَ، الكثير من العلماء، والشعراء، والفلاسفة، ورجال الدين المسيحي.

هذا المثلث هو (سوق أهراس) و(مداوروش) و(تيبسة) الواقعة إلى أقصى الجنوب منها، لقد كانت هذه القرية الصغيرة، مِحَجّاً للعلمِ والعلماءِ، فهي حاضرة (نوميديا الشرقية) حيث الحضارة الرومانية، وما

تـزال الآثـار المتبقيـة فـي مـداوروش والمسـرح الرومـاني والمعبـد وبقايـا المدينة ، شاهدةً على عظمة تلك البقعة من العالم.

إضافة إلى كون أبنائها هم الذين سَطّروا تـاريخ قرطاجنـه الحربـي، ولولا هذا المثلث الذهبي، الذي رفد (هانيبعل) برجال الحرب، والحِكمة لما هَدَّدَ هذا القائد الفذ روما، وحاول فتحهـا، وعلينـا أن نذكـر أن هـذه القرية التي تعشق الحرية هي التي ثار رجالها مراراً، لعجز قرطاجنه عن اداء واجباتهم تجـاه نوميديـا كلهـا، وقـد اسـتطاعت أن تـأخذ حقوقهـا كاملةً، لقد أخطأ الفرنسيون حينما دعوها بهذا الإسم الغريب عن جسدها وروحـها، فما أبعد الفرق بين (القديس أوغسطين) الذي تعلم في مهدهـا، واستطاع بقوة إيمانه وتفكيره مـن تغيير الكثـير من المفـاهيم المسـيحية واستطاع أن يخط لنفسه منهجاً مازال قائماً حتى يومنا هذا.

وبين المفكر (موتنسكيو) الذي تجاوزه الفكر المعـاصر دون الإلتفـات إليه، وإن كان قد كتب للقانون والشرائع، فهو تلميذ المدرسة ذاتها.

وعلى كلٍّ فيمكنك بذلك كتابة عنوان الرسائل بأحد الإسـمين حتـى يصلك البريد دون عراقيل، وكذلك نسـتطيع الوصـول إليهـا بالقطـار مـن عنابة، أو قالمة، أو حتى سوق أهراس، فهـي عقـدة مواصـلات دائمـةٍ، لوقوعها في منتصف (العمالة)، وحالياً هذه القرية التي ابتعدت قليلاً عن آثارها الفاتنة، تحتل تلاً مرتفعاً، تتدافع بيوتها حتى تصل إلى الوادي، الذي تخترقه السكة الحديدية في محطة دائمـةِ الحركـة ولكنهـا صغيرة وبمنتهى اللطف والجمال، وحين تنزل بهـا، وتقـابل مـن هنـاك، فـإنك تتذكـر المحطـات التـي كـان يـنزل بهـا أبطـال تشـيخوف أو بوشـكين وليرمنتوف في القصص الروسية، وحتى وجود فلاحيها تجـد شـخوصهم في تلك القصص والروايات الرائعة.

مدرسة القرية الوحيدة، تقع أعلى التل صفوفها متلاصقة – كأنها مبنية على عجل – ساحتها غير مرصوفة بأي نوع من الحجارة أو الإسمنت، وتستطيع من خلال نوافذ صفوفها الواطئة والمتشرة على الجانبين، أن ترى السهول الواسعة، والجبال البعيدة، والفلاحين، والبهائم في كل لحظةٍ من لحظات اليوم الدراسي، ومستوصف القرية، غير بعيد عنها، في الطرف الآخر من الطريق الترابي، حيث تشاهد أعداداً من الأمهات، والعجائز، والأطفال، يتزاحمون أمام الباب، انتظاراً لدخولهم إلى غرفته الطبابة المجانية التي توفرها الدولة.

مداورش رغم ضآلة عدد ساكنيها إلا أنها رحبة المكان يشعر الإنسان بالراحة النفسية فيها، رغم قلة الخدمات العامة وهناك المقهى الشعبي الذي يقع أسفل القرية على الطريق العام، الذي ترتاده الحافلات الكبيرة والصغيرة، ولن تجد ازعاجاً داخله أو خارجه فمرتاديه من كبار السن الذين يشربون الشاي الأخضر المسكر جيداً، ويمضغون "النفّة" ويلعبون "الضامة" بكل وقارٍ، ودون ضجيج، بل يستقبلونك كقادمٍ جديد، بكل الود والترحاب، وينادوك بالاسم الذي يحترمونه ويجلونه وهذه عادة جزائرية عامة حتى ولو لم تكن تحمله "سي محمد"، إنها المشاعر الدينية العميقة الجذور في التفكير الجمعي الجزائري، وهذا الاسم إن دل على شئ فإنما يدل على الاحترام والتقدير، ويقدمون لك المشروب مجاناً احتراماً لشخصك، وعملك، ولقد أكسبني هذا المقهى المتواضع فضيلة الإنصات والهدوء، واحترام الآخرين بغض النظر عن الأعمار، ولقد تعلمت أصول اللعبة منهم اعتماداً على التفكير الهادئ والحساب المتزن.

وقرأت العديد من الكتب الجادة، والأدبيـة، وأنـا استمتع بحـرارة المدفأة الخشبية، في شتاء القرية القارس، متناولاً أكبر عدد مـن كـؤوس الشاي والقهوة الممتعة، متقوقعاً أمام طاولة رخامية تحيـط بهـا أنفـاس، الناس وهم في منتهـى البسـاطة والعفويـة دون أن يقـاطعني أو يزعجنـي أحد، وفي الربيع أهرب إلى الرصيف الخـارجي أمتـع نـاظري بحدائـق الهيةٍ من الزهور والخضرة مع النسيم الـذي يدخـل الصـدر، معطـراً نقيـاً كنقاء السماء في تلك البقعة مـع صـوت أغنيـة جزائريـة حزينـة تضـرب ايقاعاتها في جذور التاريخ الاجتماعي والجمالي لهذا البلد العريق فـرأت تحت أروقة ذلك المقهى البعيد كثيراً من (زولا) ومن (سارتر) و (نجيـب محفوظ) وكنت أحياناً أرى أبطال (زولا) و(محفوظ) جالسين على كراسي المقهى القديمة، أو سـائرين فـي أزقـة القريـة الضيقـة، أو فـي شعابها الجانبية، وكنت أحياناً كثيرة أراهم –وأنا أعجـب بذلـك متحدثيـن فـي الصفوف بلغة فرنسية راقية يتفوقـون بهـا علـى أقرانهـم مـن الفرنسـيين العاملين هناك.

–3–

كنت لا أغتسـل فـي المـنزل المتواضـع الـذي أقطنـه، لأنـه يفتقـد للمرافق العامة بل كنت أستهوي الصعـود إلـى منتصـف الطريـق ـ نحـو المدرسةـ متجهاً إلى الحمام العمومي الوحيـد، الـذي كنـت أقضـي فيـه الليل بطوله متطهراً ساهراً ومسامراً لأناس من مختلف النواحي البعيدة أو المجاورة، فليس الحمام في الريف الجزائري سوى نـزل عـامٍ كـالفندق، لأن طبيعة القرية لا تحتاج لمثل هذه الخدمة الحضارية الحديثة.

وعندما أُنهي اسـتحمامي الطويـل، كنـت أرتشـف الشـاي السـاخن المعطـر، ممزوجـاً بحكايـات الريـف الجزائـري، وأحداثـه الاجتماعيـة

والسياسية إن الناس هناك لا ينقصهم الصدق والأمانة في الحديث ودون خوف أو وجل، وكانوا دائماً يقدمون لي دفة الحديث كي أحكي عن الشرق ما أعرف، وعن أحداثه العامة وينتظرون مني القيام بدور المرشد، أو المعلم، في مناقشة أمور تجري بعيداً عنها، ولكنها مع ذلك كامنة في أحاسيسهم ومشاعرهم الداخلية، فهم متعطشون للمعرفة، والبحث عن الجذور، رغم الحقبة الطويلة من التغريب التي عاشوا فيها متلقين معارف حضارة أخرى غير حضارتهم.

وفي آخر ساعات الليل، أغادر الحمام شاعراً بأني أكثر نظافة في الجسد، والعقل، والقلب، وأكثر اهتماماً بحالة من جئت لأجلهم هنا فها أنا أكتسب أسئلة معرفية جديدة، وأغوص في أساليب التفكير عند الطرف الآخر، وأتعرف على أساليب حياتهم ومعاشهم وبالتالي أمدُهم بما أعرف، و إن كان قليلاً، لقد كانت السويعات التي كنت ازجيها في هذه (المدرسة) من أفضل ساعات الأسبوع وأكثرها متعة وفائدة.

—4—

بصحبتي في مداوروش معلم فلسطينيٌ مقيم في سوريا، ومعلم أردني من ذوي البشرة الإفريقية النحاسية، تقاطيعه الدقيقة تنم عن أصالة العرق، ولكنه متكلف جداً في إضفاء الأناقة على ذاته، فكان أشبه بعاشق يقابل محبوبته كل يوم وكل ليلة! يصرف راتبه الشهري على كمالياتٍ يتجمل بها.

بينما الأول ذو شخصية في منتهى البساطة، والعفوية، ودماثة الأخلاق، ملتزم بعمله المدرسي، ووجباته المنزلية على أكمل وجه، لا تعرف حوانيت القرية "قروشه" ولا دنانيره، إلا فيما ندر –يقضي كل أيامه ولياليه في نطاق الدار التي نقطنها، يطبخ لنفسه، ويغسل لنفسه،

وفي كثير من الأحيان يحلق الرؤوس في القرية بطريقة رائعة - فهو متقن للصنعة من بلده متتلمذاً على يدي والده - وَعِدَّةُ الحلاقة جاهزة في كل وقت وكذلك النقود عندما تلمع بين يديه، ويؤدي واجباته الدينية بكل حرفية المتدين المعتاد على القيام بذلك، كان محبوباً على نطاق المدرسة والبلدية وبين السكان جميعاً، وفوق كل ذلك فقد أنقذنا بذكائه طبعاً، نحن الساكنين معه من ليالي الشتاء الطويلة في مداوروش التي لاتعرف الرحمة.

أنقذنا عندما جلب معه - ومن سوريا- مدفأة تعمل على المازوت! وما أرخص هذه المادة في الجزائر! لقد توقف العمل في مطار العاصمة لأكثر من ساعتين، بسبب هذه المدفأة وملحقاتها أيضاً. ولقد أرهق أمن المطار وهو يشرح لهم طريقة عملها، وعلائم الدهشة والاستغراب بادية على وجوه الموظفين، حتى زملاء بعثته الذين جاء معهم، وأخيراً سمح له بإدخالها، بعد أن تأكد الضابط المسؤول بأنها ليست من منجزات التكنولوجيا المتقدمة، ولا تضر بالأمن القومي الجزائري!!

وأخيراً مدفأة سورية الصنع من ماركة الهلال المسجلة تعمل في الجزائر!!.. وقد لفتت انتباه الناس حقاً كان - مفكراً وذكياً - فلولا هذه المدفأة المتواضعة لما كانت كل أحراش مداوروش تكفي لإنقاذنا من البرد القاتل والرياح العاتية والثلج الكثيف، الذي يكتنف تلك المنطقة طول خمسة أشهر من السنة وإذا كان أحد العرب في مداوروش قد أنقذ نفسه من قساوة الجو بمدفأة تعمل على المازوت، فإن الطبيب البلغاري الوحيد في القرية (بتروف) والذي يعمل في المستوصف، والذي كنت أزوره بين الإستراحات الدرسية كان يتدفأ بطريقة وضع الكحول في طبق واسع من الألمنيوم ثم يشعله ويتدفأ على لهيبه، كي يستطيع القيام بالمهام الصعبة

التـي يمارسـها كـل يـوم، ولفافـة التبـغ لا تفـارق شـفتيه، حتـى أثنـاء الحديث، خالطاً الفرنسية والعربية والبلغارية معاً ليصل إلى إفهامك لمـا يريد، كان (بـتروف) كمـا لا حظـت مسـتمتعاً بعملـه، ومسـتغرقاً فيـه، وملتزماً بالمواعيد، ولكنه كان من المؤكد أكـثر اسـتمتاعاً براتبـه الجيـد، وبحياته الجديدة، ومستقبله المضمون، وكان في أيام العطل يرافقني إلى "سوق أهراس" البلدة التي لا تنسى، ولا تهرب من الذاكرة لأنها نموذجاً للسكينة والنظافة والجمال، ننتقل سوياً من حانة إلى حانة، ومن مقهـى إلى آخر تاركين وراءنا كل مشاغل الحياة، كـي يتنـاول الكحـول بتعقـل شديد، وينشدني أشعاراً بلغته الوطنيـة، أحـس معـه برنيـن التعبيريـة، والتغزل بالوطن والمحبوبة، وجمال الصياغة الشعرية علمـاً بـأني لا أفقـه كلمةً مما يقول، وكان يحاول جاهداً ايصال المعنى بأي شكل وبأية لغة.

كـان هـذا الطبيـب المغـترب عـن وطنـه، مولعـاً بالشـراء إلـى حـد التطـرف! يشـتري كـل مـا تقـع عينـاه عليـه، مـن الأدوات الكهربائيـة الفرنسية، حتى الساعات السويسـرية الباهظـة الثمـن، وكنـت اسـتغرب ذلك أحياناً، ولكنه حدثني يوماً حديثاً صامتاً وبطريقة تدل على الصدق والاستقامة، بأن بلاده تفتقر إلى هذا النوع من المواد الكماليـة، وبالتـالي فهي أعظم هدية يقدمها لأسرته وأصدقائه، وعندمـا كنـا نعـود ليـلاً إلـى مداوروش في قطار العاشرة مساءً، يبدو (بتروف) في أشد حـالات الفـرح والانشراح والصمت، ونترك المحطة وراءنا ليلاً متلمسـين طرقـات القريـة المعتمة، فيودعني بتروف بضحكة ودودة مخترقاً الطريق الموصل صـاعداً نحو غرفته الباردة في المستوصف ومملوءاً بالزهو وهو يحمل هدايا عمـره وعمله.

-5-

لم تدم إقامتي في مداوروش طويلاً، فحزنت لتركها، لأنني أحببتها، ومن خلال تاريخها، وعظمتها، ونبالة سكانها، ولكني لم أترك حجراً فيها إلا قَلَبْتُه، ولا قلباً وعقلاً، إلا حاولت معرفة جوهره وكنهه وقد صادفت فيها أعظم عقل مسيحي عبر التاريخ "القديس أوغسطين" وراجعت بعض كتاباته، وشدتني إلى مراجعة الحقبة الرومانية في تاريخ الجزائر وإلى معاشرة حضارة قرطاجته عن قرب، والحقيقة أني كنت مذهولاً بآثارها أزورها كل أسبوع وأجلس بين أوابدها مستغرقاً إلى حد الهيام، وكنت أحزن لأني لا أعرف بلادي على حقيقتها وأحزن أكثر عندما يبتعد أهل الجزائر عن عظمة تراثهم وتاريخهم المكلل بالفخار والغار، وما زال (البرنس) الصوفي الثقيل الذي أهداني إياه أحد المعارف في مداروش يدفء جسدي ويغمر روحي، بالحنين، والحب والشوق في كل شتاء دمشقي، إلى تلك البقعة المقدسة من تراب الجزائر الفاتنة.

ودعاً يا أرض العنب الحزين

آهٍ.. لو كنتُ لا أعرف شفتيك ويديك
ولم أر وجهك
سِيّانَ عندي الشمالَ والجنوب
ما دام الطريق بلا نهاية

طائرة (الكارافيل) الفرنسية، تقلع من مطار عنابة، في وَضَحِ نهار، وتقترب منخفضةً من المدينة باتجاه البحر، كل شيءٍ واضح، شوارع الخضراء، والميناء الأزرق، والسفن الراسية فيه، والشواطئ اللازوردية البكر، الممدودة تحت الشمس، وعيناي لا تريدان شيءٍ بلا وداع، وبلا أسىً وحزن، تركت ورائي قلبي، يسكن بيوت المدينة وشوارعها، ودورَ علمها، وفنها، ومقاهيها، ودور عبادتها الطاهرة المتعالية، تركته هناكَ ينشطرُ، فيصبح بقايا من كلٍّ شيء، أهديته أصدقائي، وصديقاتي، وعشقي الأول الأزلي، وأودعته أمانةً في حانات الخطيئة، ثم أسلمته إلى محاريب المغفرة، كي تصلح جراحه وتطهره وتنقيه، (فالقلب يسهل جرحه، ولكن تصعب معالجته).

وعندما اختفت المدينة ، لم أجد سوى الدموع، والوحدة القاتلة ، والمصير البشري المجهول، وزرقة البحر القاتمة وزرقة السماء الصافية ، وشمس المتوسط الدافئة ، إنها أشبه بطقس جنائزيٍّ غريبٌ، أنا المستهدفُ فيه ، فأنا لست متصوفاً لأستطيع فهم كُنْهَ الحياة، وفهم العالم، والبحث عنها خارج نفسي، فالعالم هو ما شاهدت، وما أحسست، وما شعرت، وما فكرت، وناقشت، وقرأت، هكذا أحببت عنابه، لأنّها أرشدتني إلى اكتشاف الذات وتعريتها، وعلمتني ألاّ أخاف من إظهار عواطفي ومشاعري، ولكن دون ابتذال، ودون الإخلال بالتوازن العاطفي لدى الآخرين، مع احترامٍ، يتصف بالذوق واللباقة، وفوق ذلك دَرَّبَتْ مَلَكاتي الفكرية، وجعلتني لا أقبل الأفكار الجاهزه، دون دليلٍ أو برهان، وطوَّرَت لديَّ احترامَ الفكر الآخر، وتقديس الحوار المتكافئ، وإعادة النظر بكل المقولات، التي ترسخت في الذهن عبر سنوات العمر، ولكني بقيت محتفظاً بالسروح المشرقية الساطعة، التي جعلتها رداءً يقيني من التيارات العاتية، التي تقتلع الإنسان من جذوره وثقافته فَوَقَيْتُ (روحي من أن تقتات بطعام الخنازير) كما يقول برناردشو، فمن العدل أن يعترف الإنسان بالفضل مهما كان مصدره، لكن عنابه مع ذلك ليست مدينة (الفارابي الفاضلة) إنها مدينة هذا العالم، الذي يتشكل من جديد وفي كلِّ يوم ومدينة هذا القرن. الذي يسحق الإنسان تحت وطأة المادة، والعلوم النفعية البحتة...

رجلٌ فرنسيٌّ يجلس في المقعد المجاور، بوجهه العريض المشرَّب بالحمرة والنضارة، وجسده الممتلئ اليدين، ولولا بذلته الأنيقة، وربطة عنقه السوداء، لحسبته صاحب حانةٍ في عنابه، كان يرقبني من حين

لآخر، مبتسماً لي، كأنه يعرف ما يدور في خلدي، وبوده أن يواسيني، ولكنه بدأ حديثه عن الطقس - كعادة الأوروبيين - وعن الخدمة المريحة والتي تقدمها شركة الطيران الفرنسية، وعرفت أنه يعمل مستشاراً قانونياً في عنابه، وهو مسرورٌ بعمله، والآن، هو في طريقه لقضاء إجازةٍ في مرسيليا حيث يقطن مع أسرته، كان ودوداً وواضحاً، يتصف بالرصانة والرزانة التي يتطلبها منصب رجل القانون، وقد عَرَفَ أني لن أعود للعمل ثانيةً في عنابة، فأعطاني حق اظهار مشاعري نحو شيءٍ أحبه، ولكنه أمدَّني بأمل الحياة في أي مكانٍ من العالم- ما دمت أملك الإرادة لذلك - بعدها سَكَنَتْ عواطفي المندفعةً، وعدت للهدوء والسكينة والتطلع إلى وجه جاري بكثيرٍ من العرفان بالجميل.

- هل زرت فرنسا سابقاً؟ قال مسيو ميشيل:

- لأول مرة يا سيدي. وأنوي البقاء فيها قليلاً، فلدي عمل أداريٌ أود انجازه لصديق.

- إذا واجهتك صعوبات هناك، فهذه بطاقتي، اتصل بي على رقم الهاتف - وسأكون عندك.

ثم ناولني بطاقةً صغيرةً من جيب سترته، تحوي اسمه، وعنوان مسكنه، ورقم هاتفه.

وفي وسط الرحلة، ونحن نطير فوق مياه البحر، قدمت لنا المضيفة وجبة طعامٍ خفيفةٍ، وكأساً من المشروب، وبقينا نتحدث عن الجزائر، ومشاكلها الإدارية والاقتصادية لفترةٍ طويلة، ولقد لاحظت أن مسيو ميشيل يضع النقاط على الحروف، بدقةِ العارفِ المتمكن من معلوماته،

وقد أبدى ملاحظاتٍ موضوعيةٍ في غاية الأهمية، تتصف بحيادٍ لا لَبْسَ فيه عن الواقع الاداري، وعن الكيفية التي تسير عليها البلدان المتقدمة في هذا المجال، والتي لا يمكن تطبيقها بشكلٍ مباشر على الواقع الإداري في الجزائر، وذلك لنقص الخبرات، وهجرة المؤهلات، وفي تصوره أن استقرار المؤسسات، ودوائر الدولة وغيرها - تحتاج إلى عقدين من الزمن على أقل تقدير، وقد دعَّمَ حديثه بكثيرٍ من الأرقام ذات الدلالات التي لا تقبل الشك. ثم نظر إلي بعينين بنيتين مستاءتين، وتغيرت على أثرها ملامح وجهه وانكمشت.

- مسيو محمد، لقد ارتكب الجزائريون خطيئةً كبرى - ولربما هي التي أوقعتهم في هذا المأزق، خطيئة إجبار المعمرين - بطريقة أو بأخرى. على ترك الجزائر والنزوح إلى فرنسا، وبهذا، وباعتقادي، فقد حطم الجزائريون البناء بأيديهم، وكانت أمورهم أيسر من الآن بكثير. كان من الممكن يا مسيو محمد أن يندمج هؤلاء المعمرين ضمن نطاق المجتمع الجزائري، مع احترام ممتلكاتهم، وثقافتهم، ولغتهم، وتقاليدهم، لقد خسر الجزائريون خبرة مئة وثلاثون عاما من الحياة المدنية المتصلة مباشرة مع العالم الجديد؟!.

- الحرب يا سيدي تخلق نوعاً من العداء المستحكم، ولربما يلعب الخيال المدمِّر، المبلَّل بالدم، دوراً في نتائجها، فالنزوح نتيجةً لا تبدو لصالح الأطراف كلها، وما زلنا نحن شعب فلسطين نعاني منها منذ سنة 1948، فنزوحنا خلق لنا قضية الشرق الأوسط الصعبة.

ولكن مسيو محمد، ليس صعباً أن أكون وطنياً جزائرياً، وصديقاً

لفرنسا، بنفس الوقت! ، فالعمل السياسي لا توجد فيه صداقات دائمة، وعداءات دائمة، العمل السياسي أيها السيد هُوَ فَنٌّ إدارة الأزمات، والخروج منها بأقل الخسائر، وأكثر الأرباح.

وكنا سوياً -أثناء الحديث- ندخن لفافات (الجيتان) المفلترة، الحادة المذاق والرائحة، والمضيفة الفرنسية تغيّر لنا أكواب الشراب، كلما طلبنا منها ذلك، حتى نبهتنا -بلباقةٍ- أنها الربع الساعة الأخيرة من الرحلة، وبدأت تَلوحُ لنا من بعيدٍ، الشواطئ الفرنسية، وبدأت القرى والمدن تتوضح كلما انخفضت الطائرة.

وها نحن نهبط في أرض الأحلام التي كانت تراود مخيلتنا عن بعد، وظل مسيو ميشيل يرافقني حتى وصولنا كُوَّةَ خَتْمِ الدخول لجوازات السفر، وعند وقوفنا ضمن صفوف الحواجز الحديدية، ننتظر دورنا، فإذا بالموظف الفرنسي يرمي جوازي بحركةٍ عصبيةٍ حادة (اذهب إلى صفوف الجزائريين هناك)؟!!.

صعدت الدماء إلى رأسي، وأحسست أن عيني أصبحتا جمرتا نار متوقدة.

– أيها السيد: أنا أعتز بوقوفي في صفوف الجزائريين، بل أعتز أن أكون جزائرياً، ولكني لست كذلك كما ترى في جوازي، ودفعت الجواز بقوةٍ أمام وجهه، الذي بدى غاضباً.

– لن أختم الجواز فهذا ليس عملي.

– أيها السيد: بما أنك موظفٌ حكوميٌّ هنا، فواجبك الانصياع لأوامر حكومتك، ولن أغادر من هنا، حتى تحترم عملك، وتحترم زوّار

بلادك، فأنا لست متطفلاً على مائدتك.

شعر مسيو ميشيل الواقف ورائـي بـالإحراج، فـاعتذر منـي بعـد أن سمحت له بأخذ مكاني، وتحدث مطولاً مـع الموظـف، ورجـاني بـترك المكان، والانتظار في قاعة استلام الحقائب.

بعدها استلمت حقيبتي الوحيدة دونما تفتيش، وحمل السيد ميشيل الجواز مع ابتسامةٍ، يطيب بها خاطري، ومع ذلك فقد بقيت طويلاً وأنا أشاهد المعاملة اللاإنسانية للأخوة الجزائريين، الذين بقـوا وحيديـن فـي قاعـة المطـار وهـم يُسْتَجْوَبونَ وتفتـش حقـائبهم، كمـا تفتـش عصابـات الإجرام في أوروبا، وأحياناً كانت تنتزع ثياب بعضهم، كـأنهم مصـابون بوباء الطاعون، (إنهم يتجاسرون على التشفي مـن مصـائبهم، ويَشْمَتونَ بهم، فأية محكمة ستحاكم أخلاق هؤلاء الناس -شديدي القسـوة- ولكـن من الصعب على المرء أن يفهم شعباً يكرهه ويحتقره)؟!!.

مازال مسيو ميشيل يرقب ما يدور في عقلي، ولكن سماحة أخلاقه، وكلماته الطيبة جعلتني أترك الصورة اليومية، التي يعيشها شـعبٌ حـرٌّ، كالشـعب الجزائـري، وأخبـئ أحزانـي الكثـيرة، فـي حقيبـــة العروبـة والإسلام التي نحملها، حتى كادت أن تقصم ظهورنا.

أقلني مسيو ميشيل بسيارةٍ تقودها زوجته المنتظرة في المطار، وظل طوال الطريق حتى المدينة يهدأ ثورتي، معتبراً الحادث عملاً روتينياً يومياً لا ظلال له.

وبعد نصف ساعة كنا في ساحة دار البلدية في مرسيليا، نشرب القهوة معاً، على رصيف أحد المقاهي، وزوجه ميشيل تود أن أزورهم في المنزل، إذا بقيت في المدينة طويلاً، شَكَرْتُ كَرَمَها ولطفها، ثم ودعتني وزوجها عِناقاً، وكلمات مسيو ميشيل كَرَّتْ في أذني (لا تنسى البطاقة معك، والعنوان والهاتف، نحن بانتظارك).

إذن ها هي فرنسا -طعنة خنجرٍ غادرةٍ في القلب- وعِشْرَةُ دَرْبٍ كلها أدبٌ وذوق، وعناق من القلوب إلى القلوب، هذا جَدَلٌ مبتذلٌ (فمتى كانت قلوب الشعوب كرةً يمكن اللعب بها) ولو خُيِّرْتُ كوني فلاحاً جزائرياً معدماً، فوق تراب وطني، وعمامتي الجزائرية تجللها الكرامة الشخصية، وكوني جزائرياً أسكن (فرساي) دون استقامةٍ وفضيلةٍ، لفضلت ذلك الفلاح المتوج بالكرامة.

(ما نفع الشجاعة لنا؟! ، وما جدوى كل خصالنا الرائعة)؟!..

ثم أيها الجزائريون، اذكروا، اذكروا كلام أعدائكم فهذه كلمات (أناتول فرانس).





المؤلف في سطور:

مارس التعليم في مدارس وكالة
الغوث الذ

.W .A

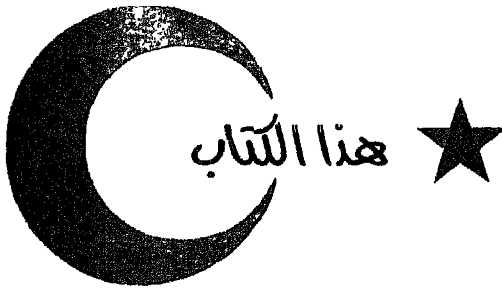
* مارس
في أو

* عَ
من ال
الجز

* كتد
التربو
الدور

* كتب ...
للطال مستوحاة من نضال شعبه.

* عضو الاتحاد العام للكتاب



مايَحْدُثُ في الجزائر اليومْ، يَدخُل ضِمْنَ دوائرِ النَّار المُشتَعِلة في بقاعٍ كثيرةٍ مِنَ العالم.

ولكنَّ نارَ الجزائر، أشدُّ غضباً، وأكثرُ احْمراراً، مِنْ نيرانِ الآخرين.

إنَّها تَلْتَهِمُ الرِّجال الشُّجْعان، والشَّابات اليافعات، والسَّيِّدات الماجدات، وتَذبحُ براءةَ الأطفال، وحكمةَ الشيوخ.

الجزائر اليوم، يتدمَّر تاريخها، وعظمة ثقافتها، ونضارة، ونظافة نضالها.

لذلك .. فكلُّ مَنْ يعرف الجزائر، وتاريخها، وفضائلها، ورفعة ، وشجاعة شعبها لا يمكن أنْ يُدير ظَهره لبلدٍ هو زهرةُ البلدان، تُسْحَق حتَّى الموت.

وهذه الأوراقُ المكتوبةُ، هي جزءٌ صغيرٌ منْ ذاكرةِ الجزائر التي اختزنت الغضب، والكراهية ذاتها مِنْ التَّجارب المؤلمة الَّتي لم تَمُتْ في داخلها بَلْ تحدَّرت، وانفجرت فلم تَتَعلَّم بذلك فنّ العيش المشترك، وهي أيضاً جزءٌ من الحب، والفضيلة التي كانت تنمو في وجدان الإنسان الجزائريّ، ليحصلَ على العظمة.

لنْ تكونَ الجزائر يوماً، قطيعاً مِنَ الذِّئاب الجائعة كما تبدو، إنها أرض الرِّجال الأحرار المتساوين، وأرض النِّساء الحسناوات الفاضلات .. إنَّها، واحةُ الخير، والتخيل، والحلم،والعدالة التي لا تُؤَجَّل.


الروّاد
التوزيع في لبنان والأقطار العربية الأخرى
لبنان — بيروت ☎ ٨٠٤٣٤٩